محمد الحضيف



نقطة تفتيش



نقطة تفتيش

الغلاف :

تصميم : أروى محمد الحضيف

صـورة : Lady -7

د . محمد بن عبد الرّحمن الحضيف

نقطة تفتيش

رواية

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإجازة المتسلسل، لدى دائرة المطبوعات والنشر :
٥٧ /١/ ٢٠٠٦

الطبـعة الأولى
١٤٢٧- ٢٠٠٦

مـــراسلة الكاتب :

د . مـــحمد الحضـــيف
ص . ب ٢٣٣ ، الرياض ١١٣٧٢
malhodaif @ yahoo . com

بسم الله الرحمن الرحيم



إليه ..!

أهـــدي هذا العمل ..

لمقاتل بالكلمة ، مناضل من طرازٍ متقدم :

الصديق .. د . **أحمد بن راشد بن سعيّد**



في ذكـراه ..

ها هي ذكراه الحادية عشرة تأتي .. ولم يزل حضوره في قلبي طرياً.
في ١٤١٦/٣/١٦ - ١٩٩٥/٨/١٣ ، قرّر أن يصعد، يوم اختار طريقاً علوياً للصعود . ولد وقلبه على جناح طائر . لا تكاد تراه إلا متلفّتاً ، منشغلاً .. بهمّ لأمته أو همّ لمجتمعه . حياته القصيرة ، ملأها بكثير من الأحداث والمواقف .

كان شجاعاً .. حتى خِلْتُ أن الخوف .. كلمةً يسمع عنها، ولا يدري ما معناها . وكان حليماً .. حتى سَمّتهُ أمي : (سميحان).

كان إنساناً..

كان إنساناً ..

كان إنساناً ..

يتألم أمام الأرملة ، ويبكي لليتيم ، وينكسر لمرأى الفقراء والضعفاء .

تفقد أوجاع الأمة ، وجروحها النازفة .. فرحل إلى جنوب الفلبين، وتنقلت به قدماه ، على أرض الأفغان ، وكان بينه وبين البوسنة والهرسك بضع ساعات .. لكن القدر سبق ..!

حمل كتاب أجله في جيبه ، فأخطأته قنبلة في الفلبين ، وقذيفة في أفغانستان .. ورصاصات عراقية عند الحدود ، وهو ينقذ لاجئين كويتيين ..

ثم (مات) واقفاً ، بين أهله وقومه .. شَأْن الفرسان .

عبد الله بن عبد الرحمن الحضيف :

السلام عليك .. يوم ولدتَ ، ويوم متَّ ، ويوم تبعث حياً .



صارت لها عادة ، ظهر كل يوم ، أن تلصق أذنها بالراديو ، لتستمع لنشرة الأخبار الرئيسة. عندما تأتي النشرة إلى نهايتها، يزداد تحفزها، وتوجسها . صدرها يبدأ يعلو ويهبط ، وتتسارع دقات قلبها ، وتحس به، يكاد يخرج مع حلـــقها ، لحظة يقول المذيع .. بنبرة كئيبة : " بيان من وزارة الداخلية " .

أصبح هذا دأبها منذ أشهر .. بعد أن غادرهم فجأة ، عقب صدور بيان ، أذاعته وسائل الإعلام الرسمية ، يتحدث عن (مطلوبين) للجهات الأمنية. يعرف اهتمامها ، ومتابعتها للأحداث .. لمّا حمل إليها دواءها ، بعد صلاة الظهر . سألها عن آخر الأخبار ، فذكرت له البيان الذي أذيع . قالت إنها لم تسمع البيان كله، وإنما أدركت جزأه الأخير ، الذي اشتمل على أسماء المطلوبين . اسمه لم يكن من بين من ذكرهم البيان .. لكن همّاً سيطر عليه، فصار قلقاً ، وظل متوتراً ، حتى ساعة رحيله واختفائه .

واحد من الأسماء ، التي وردت في البيان ، كان يزيد .. الشاب العشريني، الذي رافقه في الطـــائرة ، التي أقلتهم عائدين من باكستان . يزيد.. كما أخبرها ، حين قالت له ، أن اسمه ورد في البيان ، وسألته باهتمام، إن كانت له به علاقة ، أو يعرفه .. لمّا كرر عليها السؤال ، فيما إذا هي متأكدة من الاسم .. كان

شاباً عادياً ، يعكس واقع شريحة كبيرة ، ممن هم في مثل سنه. ينطلق في تصرفاته بدافع الحماس ، دون أن يحسب للعواقب . ركب الطائرة ليذهب إلى أفغانستان ، ويساعد المجاهدين ، بعد مداولات قصيرة ، مع بعض الأصدقاء .

حين تعرف عليه في المطار ، وركب إلى جانبه في الطائرة .. وتحدث معه، عرف منه .. أنه يسافر لأول مرّة ، خارج المملكة. كان قبل ذلك ، قد لمحه في مكتب جمعية الهلال الأحمر في بيشاور، يناقش أحد العاملين في المكتب ، حول أنسب الطرق، لتوصيل المساعدة للمحتاجين . لقد بدا بريئاً .. وهو يتكلم بتلقائية ، أن الشباب ، يقصد أصدقاءه ، اتفقوا على جمع مبلغ من المال ، والذهاب لأفغانستان لمساعدة المسلمين ، ودعم المجاهدين .

مساء تلك الليلة .. التي سبقت اليوم الذي غادرهم فيه ، دخل غرفتها، وهي تصلي الوتر .. بُعَيدّ العشاء . جلس على الأرض ، بجوار مصلّاها .. محتبياً . أمست له عـــادة ثابتة .. يمر عليها ، قبل ساعة نومها ، يقبل رأسها ويديها ، ويمضي معها بعض الوقت ، يُقَطّعه بالسؤال عن صحتها ، ويذكر لها طَرَفاً من أخبار المسلمين ، في العالم .. هنا وهناك .

صارت تفرح به ، وتشتاق إلى رؤيته . قبل عام وأشهر ، لم يكن هكذا، لكنه بعد أن عاد من رحلة بحث عن شقيقه ، اكتنفتها مخاطر كثيرة.. صار مختلفاً . قبل ذلك ، كانت كثيراً ما تدخل معه في جدال حاد ، حول تقصيره في بعض الواجبات الدينية، وقسوة معاملته لإخوانه وأخواته الصغار . زواجه الذي تم حديثاً.. بسعي منها ، لم يخفف من لهفتها عليه ، بل زاد تعلقها به .. فحرصت أن يسكن قريباً منهم .. في الدور الأعـلى.

بعد عودته، من رحـــلة البحث عن عبد الله ، في أفغانستان .. أصبح يمثل لها شيئاً آخر . كما أن تحولاً جذرياً، حدث في حياته ، فانقلب شعورها تجاهه .. وزاد التصاقها به .

ساهــماً كان .. يردد كلمات غير مسموعة ، حين التفتت إليه، بعد فراغها من الصلاة :

– يا هلا بمسائك .. اشتقت لك . جئت في غير موعدك الليلة..!

– اضطررت للخروج مبكراً اليوم ، وفي الظهر انشغلت مع الأهل..

– لا تغـــب عني .. ترى قلبي يوجـعني ، إذا ما شفتك ، وملأت عيوني منك .. اتصل إذا ما تقدر تجيء .. !

– أبشري .. الله لا يحرمني من برّك ..

– بالك ما هو طيب الليلة .. فيه شيء مشغلك .. ؟

– لا .. لكن احتمال أن أسافر بكره .

– خيراً إن شاء الله .. ؟

– ما لقيت وظيفة ، و أحاول أن أشتغل في التجارة .. أبغى أشتري بضاعة من الخارج وأبيعها ..

– ما تنتظر .. حتى يأتي والدك من السفر .. بعد يومين .. ؟

– مضطر أن أمشي .. !

من الغد لم تره ، فأيقنت أنه سافر .. كما أخبرها . بعد غيابه بيومين، اتصل عليها ، ســـأل عن والده وإخوانه ، وطمأنها عن نفسه . أخبرها كذلك ، أن أموره (التجارية) جيدة ، وأنه قد عقد (صفقة) رابحة، دون أن يوضح لها أكثر ، أو يعطي مزيداً من التفصيل .

بدت في حديثها، غير مقتنعة .. بل خائفة ، ونبرة صوتها كانت حزينة. كلامها.. في بعض المرات ، جاء مبهماً .. متردداً. سألها دون أن يظهر أي قلق ، أو توجس.. مما تشي به تلك النبرة الحزينة لصوتها .. أو يبدي استغراباً ، لطريقة حديثها معه :

- كأنّكِ تخفين عني شيئاً .. ؟

- أحمد .. أنا خائفة عليك .. ضُحى اليوم الذي سافرت فيه، جاء مجموعة من الرجال ، وسألوا عنك .. زوجتك لم تكن موجودة . أخبرتهم أنك مسافر .. ولم أرغب أن أخبر والدك، حتى لا يقلق عليك ، ويضيق صدره .

لم يعلق على كلامها ، وإنما حاول أن ينتزع قلقها ، بالتلميح إلى أن من يكون قد سأل عنه ، ربما يكون بعض أصحابه . أكد عليها ألاّ تخبر والده بمخاوفها .. خاصةً وأنه قد تأكد لديه ، أنه بالفعل.. لم يطّلع على خبر الأشخاص ، الذين سألوا عنه كان قبل أن يتصل بها .. قد تحدث مع والده ، ولم يلحظ في كلامه ، مشاعر قلق أو خوف ، من أي نوع، ولم يتطرق لموضوع الأشخاص، الذين تذكر أمه ، أنهم قد أتوا يبحثون عنه . كان مطمئناً إلى أنه قد سافر للتجارة ، فدعا له بالتوفيق .

بقية قلق .. ظلت عالقة في ذهنها .. فعادت تتساءل :

- أسئلتهم كانت غريبة .. !

- لا تهتمي ..

- أيضاً سألوا عن عبد الله ..! هل يعقل أنهم لا يدرون ، ما الذي حدث له ..؟!

- احتمال ألاّ يكون الخبر قد وصلهم ..!

- أيضاً .. أسلوبهم في الحديث كان جافاً ..!
- بعض الشباب ، لا يحسن التصرف .. أحياناً ..

ثم أرادت استعطافه ، بالإشارة إلى زوجته .. لتشعره بأن هناك قلقاً عاماً عليه :

- لا تنس تكلم (أسماء) ..
- كلمتها ..

ختم حديثه .. بالتأكيد على أن أموره ، تسير نحو الأحسن، وأنه سيعود ، حالما يرتب أعماله في الخارج .

قلقها عليه ، يؤججه جرح .. لم يندمل بعد ، على عبد الله ، شقيقه الأكبر ، الذي رحل بطريقة مفجعه . عبد الله كان عين قلبها ، كما كانت تسميه . شاب اشتهر بين أهله ، أنه نقي كالمطر، وهب وقته لمساعدة الضعفاء والمحرومين في مجتمعه ، ثم وهب روحه .. لنفس الغاية . بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان ، الذي أعقب تفجيرات سبتمبر ، هرع مثل مئات غيره من الشباب .. إلى هناك . استثارته الصور التلفزيونية ، لمشاهد القتل والدمار، الذي خلفه القصف الأمريكي للقرى الأفغانية.. فاتخذ قرار السفر . التحق بإحدى المنظمات الإغاثية العاملة هناك ، وبحكم خبرة اكتسبها ، انضم إلى الطاقم الصحي مسعفاً .. وكانت تلك رحلته الأخيرة .

ذكرى عبد الله الدامية ، تشتعل في قلبها كل مساء . حينما يهجع الليل.. تبدأ الخيالات الجميلة ، تمر في خاطرها، تتقدمها ابتسامة عبد الله ، وبريق عينيه ، الذي ما انطفأ.. حتى لحظة وداعه الأخير لها . تقبض على اللحاف بأطراف أصابعها، وتشده

إليها .. وتتذكر عبد الله . تتذكر لحظة ضمته إلى صدرها وأحست بضلوعه . تشهق .. حيث لاثمة إلا اللحاف، وخيال لحبيب .. ابتلعته أرض غريبة بعيدة .

أدارت مفتاح الراديو ، قبل أن تحاول الخلود للنوم ، تريد أن تسمع كلاماً ، يمنحها بعض سلوى في مصيبتها .. ولد ذهب ولن يعود ، وآخر يمضي نحو المجهول . في الإذاعة .. كان الشيخ محسن .. يدندن حول مسائل التكفير ، والخوارج ، والجهاد .. والتحذير من انتشار الفكر (المتطرف) بين الشباب. كثر ظهور الشيخ محسن في الإذاعة والتلفزيون، في الفترة الأخيرة .. حتى الصحف ، التي وصفها في فترة من الفترات، بالعلمانية والضلال ، استضافته في أكثر من لقاء ، وصار المرجع المفضل لديها ، في الحملة التي تشنها ، على ما تسميه التشدد الديني ، خاصةً .. بعد فتواه الأخيرة ، بعدم جواز مقاومة الاحتلال .

قبل ١٠سنوات ، كان الشيخ محسن داعية (إصلاح) ، وشيخاً (جهادياً) .. ومفتياً يُرجَعُ إليه ، في مسائل الولاء والبراء. يتردد على درسه ومنزله ، عشرات الشباب ، الذين يتحدثون بإعجاب، عن شجاعته وثباته .. ويلتمسون عنده فتوى، بجواز الخروج لجبهات القتال .. بدون إذن الوالدين، ويسألونه الفرق .. بين المُعَاهَد، والمُحارِب ، والذّمي .. وما هي دار الحرب، ودار الإسلام. عبد الله آنذاك .. كان يافعاً ، في ربيعه السابع عشر، حين جاء وأخبرها ، أنه سيذهب للجهاد في أفغانستان . كانت تتوسل إليه ألّا يذهب ، وهو يردد عند كل طلب منها :

- فرض عين .. فرض عين .. !

الشيخ محسن أفتاه ، أنه في حال فروض الأعيان ، لا يشترط إذن الوالد .. وأن ما يحدث هناك ، هو من جهاد الدفع ، ورد العدو الصائل ، الذي لا يُحْتَاج معه إلى استئذان .

أغلقت الراديو على صوت الشيخ محسن، يوجه نصائح لأولياء أمور الشباب .. ولأسرهم ، بوجوب الحرص على أبنائهم.. بتربيتهم التربية الشرعية (الصحيحة)، والمحافظة عليهم من الأفكار الشاذة، والحذر من الفتاوى المنحرفة ، التي تشجعهم على الذهاب إلى أماكن ، تنتشر فيها (البدع) ، وتكفير الحكام و الحكومات.. بدعوى أنها أماكن، يزعم بعض الأشخاص ، أن الجهاد فيها قائم.. ووجوب اتباع رأي العلماء (الموثوقين) ، في هذه المسائل . أكد الشيخ محسن كذلك ، في كلمته .. على الآباء ، ضرورة تبليغ الجهات الأمنية المختصة عن أبنائهم ، إذا ما لاحظوا أي تحول في أفكارهم وسلوكهم ، أو ترددوا على أشخاص ، يشجعونهم على تبني مثل هذه الأفكار .

ليس الشيخ (محسن) فقط ، هو من تغير.. أو انقلب، على حد تعبير إحدى البنات .. وصار له رأي مختلف. أمس كان الأربعاء، يوم الاجتماع الأسبوعي لبناتها ، يلتقين عندها مع أطفالهن . كان هناك برنامج حواري في التلفزيون ، موضوعه .. يدور حول العنف ، وظاهرة ما عرف بالجهاديين . أحد ضيوفه.. الأستاذ (جميل) ، رجل تردد كثيراً على أفغانستان، أيام فترة الجهاد ضد الغزو السوفييتي ، وعرف عنه، إظهار تعاطفه مع الجهاد ، والقضية الأفغانية ، و(اهتمامه) بالمجاهدين العرب ، على وجه الخصوص . قدّمه المذيع ،

على أنـــه إعلامي ومفكر (إسلامي) ، وخبير في الحركات الإسلامية، والشـأن الأفغاني. ما إن ظهر على الشاشة ، وبدأ يتحدث عن (التطرف)، حتى سارعت إحدى البنات ، إلى البصق في اتجاهه ، وإغلاق التلفزيون.. وهي تقول :

- هذا هو الجاسوس ، الذي يقول أحمد ، أنه كان يندس في صفوف المجاهدين ، بوصفه أحد العاملين في منظمات الإغاثة .. ليكتب تقارير للاستخبارات .

تفجيرات سبتمبر ، وعلائقها ، وتداعياتها .. لم تكن حدثاً عابراً ، على شاب مثل أحمد . تحول من شخص ، كان موضع لوم أمه ، بسبب تقصيره في واجباته الدينية ، إلى شخص مـطلوب أمنياً ، من قبـــل السلطة ، بسبب ما قيلٍ عن تشدده الديني. الحدث .. في نظـر كثيرين، أصبح مسؤولاً عن تحولات عنيفة، حدثت لأحمد .. ولآخرين غــيره . أحداث.. أدّت نتائجها وتداعياتها، إلى أنواع مختلفة ، من ردود الفعل المتطرفة ، والمواقف المأزومة .

الهجمة الأمريكية .. بصفتها أبرز تداعيات أحداث سبتمبر، على كل نشاط إسلامي ، ترى الحكومة الأمريكية أنه يؤيد الارهاب ، وجد لها تفسيراً، بوصفها .. أطماعاً استـــعمارية، يدفعها حقد (صليبي). مواقف بعض الكُـــتّاب ، الذين تصفهم بعض الكتابات، بكتاب (المـــارينز)، عزاه .. لما وصفه بالخـــيانة ، و (العمالة) التقليدية للأجنبي ، لمن يقولون عن أنفسهم ، أنهم ليبراليين. المســألة الأكثر تعقيداً بالنسبة له .. ليس موقف هؤلاء الكتاب ، وليس أن يتقلب الشيخ (محسن)، في مــواقفه وآرائـــــه، ولا أن يــنزع الأســتاذ (جمـــيل)..

ما يرى أنه (قناع) ، يغطي فيه دوره ، ووظيفته الأساسية . الأمر الأخطر في رأيه .. والأكثر قبحاً ، كما يردد أحياناً، هو ما يطلق عليه .. (مظاهر الردة) ، والسلوك الانبطاحي، لمن حسبهم يوماً في صفه .

أحداث سبتمبر .. في رأيه ، يمثل وقوعها ، والتداعيات التي أفرزتها.. علامة فارقة ، ومفترق طرق. ليس فقط .. في كونها صنعت ظاهرة مَرَضيّة ، عبرت عن نفسها من خلال سلوكيات ، يعتبرها منحرفة ، لشخصية مهزوزة، مثل الشيخ محسن ، أو أخرى مرتزقة ، كالأستاذ جميل .. وانقشع غبارها ، عمّا سماه مواقف عمالة لبعض الكتاب. هو فوق ذلك .. يشعر أنه بإزاء حالة (سبتمبرية) أخرى ، يرى أنها أكثر شذوذاً وانحرافاً. حالة أحدثت شرخاً عميقاً في توازنه، وولدت عنده .. وعند آخرين، (ميكانزماً) دفاعياً.. دفعهم إلى خندق متطرف . إنها شخصية (مساري)..الشاب الذي نشأ مغالياً ، يكفر المجتمع .. و(يتلف) منجزات (عصرية)، باسم الدين .. بوصفها مظهراً غربياً ، ومنتجاً أمريكياً (كافراً)، بسلوك قريب من الأعمال الإجرامية.

مساري .. انتهى به الأمر، مثل آخرين، بعد أحداث سبتمبر، ليذوب تماماً ، في ذلك (الكافر)، ويتقمص طريقته في التفكير.. وقد كان من قبل يحاربه . لم يعد قادراً على تفسير، كيف انقلب (مساري) .. المتطرف دينياً ، الذي يعتمد التكفير ديناً، ويتخذ الإضرار بالمجتمع ، وسيلة لمقاومة ما يراه (كفراً) ، ليعمل في مطبوعة ، كان يتعمد تحريف اسمها، ليصفها

بـ (الشرك) والكفـــــر .. ويصمها بالعـمالة لأمـــريكا ، ويسمي رئيـــس تحــــــريرها : المسخ (عبد الشيطان الضال). صار الآن ، يقول عن أمريكا نفسها .. إنها (الرؤوف الرحيم).. وإنها التي (لا تنطق عن الهوى) . أما (المسخ) .. فأصبحت تسبق اسمه جملة : الكاتب الجميل .

هل كنا نحتاج حدثاً بمثل هذا الهول ، لتختفي (المنطقة الرمادية)، وتسقط الأقنعة ..؟ تساؤل ظل يلح عليه ، وهو يستعرض أسماءً ، لأشخاص تنكروا لمسلّمات وأفكار ، طالما أقنعوا الشباب بها .. وَحَثُّوهم على متابعتهم عليها ، وحين تورطوا ، تخلوا عنهم.. على طريقة إبليس، كما يقول : " إني أرى ما لا ترون " .

يعـلم أنـــه لا يستطيع أن يـحل إشـكاليّتة ، بأن يقول : أن الشيخ محسن (منتكس) ، يفصـّل الفتوى الدينية ، لتوائم وضعاً نفسياً يعيشه. ولا أن يقول أن الأســـتاذ جـميل ، (عمـــيل) كـــان يـــؤدي مهمته (الأصلية)، بوصفه موظف استخبارات ، أو أن مساري ، والذين على شاكلته .. هم كما يقول ، مجموعة (مرتدّين) .. مرتزقة ، انبطاحيين ، يعـبرون عن شخصيات مريضة متخلفة .. غير سوية ، تنتقل من تطرف، إلى تطرف آخر .

-٢-

عندما ذهب عبد الله إلى أفغانستان ، في المرة الأولى ، أمضى ثلاثة أعوام ، ثم رجع . كان خلال فترة وجوده هناك ، يتصل بوالدته وأهله ، كلما سنحت له فرصة .. للخروج من الجبهة ، إلى مدن الحدود الباكستانية .. يسأل عن أحوالهم ، وَيُطَمْئنهُم على نفسه .. دون أن يستجيب لطلبهم ، ورجـائهم المتكرر ، بأن يـعود . أصبح مقاتلاً (محـترفاً) ، وصـار (الجهاد)، هو كل ما يستطيع عمله في هـذه الحياة .. كما يقول ، حين يلحون عليه ، ليأتي ويستقر.. ويهتم بمستقبله .

هناك أيضاً ، تعرف على شباب تقاطروا من أرجاء الأرض ، لم يجدوا الأمان، كما هو تعبيره ، إلاّ في ظل بنادقهم.. في أرض تهبُ الموت فقط.. لتسدي الكرامة ، كرامة عَزّت عليهم في أوطانهم .. على حد قوله، وهو يروي في إحدى المرات، أثناء جدال، حول دوافع الذهاب إلى أفغانستان.. طرفاً من حوار بينه وبين أيمن، أحد الشباب العرب، الذين التحقوا بجبهات القتال هناك :

"- أنت جئت إلى هنا .. برغبتك يا عبد الله ، وأنا أُخرجت للجهاد ..

- لا تتواضع يا أيمن .. بلاؤك في الجهاد ، وإثخانك في العدو، لا يمكن أن يكون بسبب فرارك بدينك.. كما تحاول أن توحي بذلك ..

- لا .. لست أجامل ، بل أنت خيرٌ مني .. أنت على الأقل ، كنت محترماً في بلدك ، تركت دَعَة العيش ، وبلداً لا يحاسبك على لحيتك ، وحجاب زوجتك ، وجئت تطلب الموت . أنا .. كان الخيار أمامي ، أن أتعفن تحت سوط الجلاد ، في حفرة مظلمة، وَأُهَدّد في عرضي .. أو أفِرّ إلى هنا، لأموت واقفاً ، حراً .. عزيزاً " .

مثل هذا الحوار، كان أنموذجاً .. كثيراً ما كان يقدمه .. كذلك، تبريراً لثقافة القتال، التي راجت بين كثير من الشباب العرب ، المحبطين في بلدانهم .. ولتفسير ظاهرة ما عرف بـ (الأفغان العرب) ، وحيثيات ظهورها واتساعها .

حينما عاد عبد الله ، مكث عدة أشهر .. ولكنه لم يطق صبراً على البقاء . كان مثل من يتقلب على جمر . حب القتال والجهاد، تغلغل في أعماقه ، وأثّر في طريقة تعامله ، ورؤيته للأمور.. لا شيء يحتمل الانتظار ، والمعالجة المتدرّجة . ينظر للحياة ، وأحداثها اليومية ، مثلما ينظر للمعارك، والعمليات العسكرية .. حسم سريع، ومباشر . في إحدى المرّات ، شاهد أمراً استنكره، فأسرع إلى أحد المشايخ ، يخبره بما قد رأى، ويطالبه بسرعة الإنكار . قابل (الشيخ) موقفه بلامبالاة ، ونظر إلى حماسه باستهجان .. وفي مرّة ثانية رفض مقابلته ، أو رؤيته.

تكررت طريقة تعامل ، أكثر من واحد من المشايخ معه ، ومع موقفه ، مما يرى هو ، أنها منكرات في المجتمع .. بدرجات متفاوته ، من التسويف، و اللامبالاة .. وأحياناً الصدود . في جلسات مكاشفة مع أصدقاء ، اتسمت بالإحباط ، والرفض ،

والتمرد على المجتمع .. أخذ يتضخم لديهم شعور ، أن المجتمع صار (لا يتقبلهم) .. أو أصـــبح يضـــيق بـ (أهل الخير)، كـما يقولون . اكتـــشف أنه ليس وحده .. في هذا الشعور ، وأن عدداً غير قليل ، من العائدين من مواقع الجهاد ، وجبهات القتال.. في أفغانستان وغيرها ، يتحدثون عن معاناة متشابهة :

"- لقد سيطر الوهن على هؤلاء المشايخ .. يخافون من الحكام، أكثر من خوفهم من الله .. !

- صدقت .. كلما ذهبت إلى أحدهم ، أحدثه عن المنكرات ، التي (فشت) في البلد ، نظر إلي باستعلاء ، وبدأ يتحدث عن الحكمة في الدعوة إلى الله .. واتهمني بالتهور .. !

- ألم يعطك مـــحاضرة عن (حكمة) الشيوخ ، وعن خطر (حـــماس) الشباب ، على الدعوة إلى الله .. ؟!

- أحدهم قال لي : ألا تعلم أن إنكار المنكر درجات.. إحداها، الإنكار بالقلب ؟ لماذا لا يسعك ما يسع المشايخ وطلبة العلم..؟ حينما جادلته ببعض أقوال أهل العلم ، طردني من مجلسه .. لأني كما يقول ، لا أحسن الأدب مع العلماء ..!

- هذا يهون، عند ذلك الذي سمعت من بعض الشباب ، أنه يكتب تقارير عن الشباب ، ويسلمها للمباحث .. بحجة أنهم تكفيريون ، وأصحاب عنف ، يدعون إلى جهاد الطواغيت ، وتغيير المنكرات بالقوة .

- يا رجل .. كلهم ما فيهم خير .. (سعيد أخو مبارك) ، عملاء سلطة، وعبّاد دنيا .. ! أين هم من الرجل الربّاني أبي عبدالله الذي طلق الدنيا، ويردد دائماً قول النبي صلى الله عليه وسلم : " وجعل رزقي تحت ظل رمحي " .

تمـضي الحوارات ، على مثل هذه الوتيرة ، تتخللها أحاديث

عن المجتمع (المسلم) .. الحق ، الذي يؤمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر.. وأحاديث عن الجهاد ، والشهداء ، والحور العين .. وتفاهة هذه الحياة ، التي لا (تستحق) أن تعاش . تصبح الدنيا، في أجواء مثل هذه .. تهيمن عليها، معادلة حديّة للمتضادات ، حيث الموت مقابل الحياة، والغيب مقابل الشهادة، محطة انتظار .. مكروهة ، للانتقال إلى الآخرة ، عبر (موت) بطولي ، يأخذ شكل الشهادة ، ويمثل الحياة الحقيقية . رؤية كهذه ، تجعل أي عمل (دنيوي) ، مهما علت قيمته ، وحاجة الناس إليه .. رخيص وتافه ، وأي جهد يبذل في سبيل تحقيقه ، هو من العبث ، الذي لا يؤجر عليه الفرد . الشهيد .. وفق هذه المعادلة ، هو فقط .. المسلم (الحقيقي) الذي يخدم أمته .

اقتصار مفهوم الجهاد ، على بذل الروح ، واسترخاص الحياة، كسبيل وحيد للعطاء .. والتضحية ، يجعل صوت القوة والحسم، يعلو على ما سواه .. في كل معادلات الكفاح والصراع:

هزيمة العدو .. سبيلها القوة . إفحام المخالف.. من خلال نفيه ، والموقف من الآخر المختلف .. إقصاؤه . " كلمة حق.. عند سلطان جائر"، كنمط من أنماط (الجهاد) السلمي، تراجعت.. أمام تأصيل نظريات الخروج على الحكام، وشرعنة العنف والحروب الأهلية ، لإسقاط الأنظمة المستبدة والدكتاتوريات .

يأخذ النفي والإقصاء .. شكل التبديع والتكفير ، لإخراج (الآخر) من دائرة الإيمان . في بعض القضايا ، لا توجد منطقة (رمادية) .. أو وسط. هناك (ولاء) و(براء) فقط التصنيف في الغالب .. حَدّي ، يكون وفق معسكرين ، أو(فسطاطين).. فسطاط إسلام ، وفسطاط كفر ، من أجل أن

تتم المحـــافظة على (الحدود) وتكريسها، مع الآخر المختلف. يحتاج إبقاء الحدود قائمة ، إلى استشعار خـطر الآخر، وتهديده المستمر . خطره المعلن .. ليس على الذات المباشرة .. الفرد ، وإنما على ما تؤمن به الجماعة .. وتمـثله : الدين ، المنظومة الفكرية، والنـسق الثقـافي .. من حيـث هي مشترك اجتماعي، وممارسة جماعية ، يشترك فيها الفرد مع غيره ، كواحد من أعضاء المجموع . يتم تعضيد ذلك ، عبر استحضار أمثلة من الـواقع .. وإنزالها على الحالة المعاشة .

الشعور الحقيقي .. أو المتوهم ، بالتهديد والحصار ، وحال المطاردة والاضطهاد ، الحسي والمعنوي ، عبر تغوّل الأجهزة الأمنية ، واختلال موازين العدل ، في النظم القضائية .. إضافةً إلى غياب مناخات الحوار، بسبب احتكار النخبَ العلمانية والليبرالية ، للمنابر الاعلامية ، وممارستها النفي والاقصاء ، لكل ما هو إسلامي ، أو ما تلبّس بمظهر ديني.. أنتج حدّية في التعامل ، وأحادية في الرأي . أصبح يُرَفَعُ دائماً ، تطرف العناصر الليبرالية.. في الاعتداء على الديني ، وفي الهجوم على الثوابت، وامتهان المقدس .. كمسوّغ للعنف . كما أن توظيف التجارب التي غدرت بها النخب العلمانية ، بالتيار الإسلامي، حاضر دائماً في الأحاديث .. وماثل، من خـلال استدعاء : الحالة التونسية، والتجربة الجزائرية ، وموقف النظام المصري من الإخوان المسلمين .. وفي انقلابات العسكر في تركيا، وتربصهم بكل محاولة إسلامية للنهوض . تستخدم هذه كثيراً .. مثالاً، لتعزيز الرفض، والتمرد ، والتمركز حـول (ذاتـــية) الـــرؤية ، والحـل ، والمشــروع .. والتوجس مـــن الآخر المتربّص ،

وكراهيته.. وصولاً إلى تأصيل العنف ، وإضفاء الشرعية، على استباحة الدماء .

رجع عبد الله مرّة ثانية إلى أفغانستان ، ومكث مدة أقل من السابقة. تكرر ذهابه .. في فترات لاحقة ، على وتيرة متقطعة. يذهب أشهراً ، ثم ينصاع لإلحاح والدته وأهله فيعود ، حتى يشده الحنين ، إلى ساحات القتال في أفغانستان .. أو غيرها . إذا استعصى عليه الوصول إلى هناك .. يتسلل إلى جبهة أخرى. خابرهم مرّة من البوسنة ، وأخرى من الشيشان . إن لم ينجح في الوصول إلى جبهات القتال ، بقي في المدن ، أو في مخيمات اللاجئين .. يمارس أعمالاً إغاثية ، أو يدرّس القرآن ، ويعلم الناس، ما يجهلونه من أمور دينهم .

في المـرّة الأخيرة ، التي رجع فيها من أفغانستان ، كان أقل حماساً للعودة إلى هناك . الصراع الدموي بين فصائل المجاهدين، انعكس على استقراره النفسي ، وشوّه الصورة الجميلة للجهاد، التي طالما خلقت لديه ، عوالم بيضاء نقيه ، مطرّزة بنماذج مشرّفة ، وَمُشّرِقَةً .. للإخاء والتضحية، والموت في سبيل المبدأ الأسمى .

العوالم الجميلة، التي ظل يفر إليها ، من واقع مجتمع محلي.. بدا له ، في لحظة من اللحظات ، أنانياً، و (منحرفاً) .. وتافهاً، في أهدافه وتطلعاته.. تهشمت صـــــورتها ، برصاص (الإخوة) ، الذي استهدف صدور رفاق الدرب الواحد . المشروع .. الحلم ، للدولة المسلمة النقية ، الذي كان يبصره في نهاية درب طويل .. قاسٍ ، وشاق ، ومؤلم، من الحرب المتوحشة ، ضد قوات الغزو السوفييتية ، رآه يغرق في بحيرة دم كبيرة .. كبيرة ، تشكلت من

دماء (الإخوة) ، المتناحرين .

الشباب العرب ، ممن استنفرهم الغزو السوفيتي ، للجهاد في أفغانستان.. رحل معظمهم ، بعد سيطرة حكومة طالبان ، على أغلب التراب الأفغاني ، وما أدى إليه ذلك ، من توقف الحرب في أكثر جبهات القتال . تفرقوا بين المنافي ، في البلدان الأوروبية .. وعاد قسم غير قليل إلى بلده ، بينما انكفأ الذين انقطعت بهم سبل العودة ، بسبب المطاردات الأمنية ، والمحاكم العسكرية .. التي تنتظرهم في بلدانهم.. إلى معسكرات تنظيم القاعدة . بعض الذين عادوا إلى بلدانهم ، واجهوا فشلاً آخر : عدم قدرتهم على التكيف ، مع واقع لم يستوعبهم ، وأصبحوا غرباء فيه .. لا يحبونه ، وهو يتربص بهم ، وانتهى المطاف ببعضهم ، ليكون في قبضة الأجهزة الأمنية ، أو في صراع دموي معها .

ساحات الجهاد ، والبؤر المتوترة ، في المناطق التي تشهد اضطهاداً للمسلمين .. بدت راكدة ، بعد الهزيمة ، التي ألحقتها حركة طالبان بخصومها ، واستتباب الأمر لها .. الذي تزامن مع تسوية القضية البوسنية. لم تنجح القضية الكشميرية ، في استقطاب المجاهدين العرب، ولم يبق مشتعلاً ، غير الساحة الشيشانية ، التي كان الوصول إليها ، لا يخلو من صعوبات ومخاطر ، لوقوع إيران ، التي لم تكن متعاطفة مع حركات الجهاد السنية ، على الطريق المؤدية إلى هناك . الشباب الذين يغامرون في الذهاب إلى الجبهة الشيشانية ، مروراً بإيران، ينتهي الأمر بأكثرهم في السجون الإيرانية ، أو في سجون بلادهم ، في صفقات تبادل مصالح ، بين الحكومة الإيرانية ، وبعض الأنظمة العربية .

في المـرّة التي نجح فيها عبد الله ، في التسلل إلى الشيشان، كان عن طريق جورجيا ، عبر تركيا .. بينما صاحباه خالد وسعد ، اللذان فضلا سلوك طريق أقصر ، عبر إيران ، انقطعت أخبارهما ، وتسربت معلومات، بعد أكثر من عام على اختفائهما، عقب دخولهما الأراضي الإيرانية ، عن وجودهما داخل أحد سجونها .

اكتفى عبد الله ، بعد عودته الأخيرة من أفغانستان ، بمتابعة المشهد الأفغاني من بعيد .. والانتظار . كان مثل مئات الشباب غيره ، الذين قاتلوا في أفغانستان .. اضطروا للعودة ، والبقاء في بلدانهم ، بعد اندلاع القتال بين فصائل ، وأحزاب المجاهدين. لـقد آثر ألّا يكون طـــرفاً في القتال بين (الإخوة) .. في صراع الزعامات على النفوذ ، وتنافس أمراء الحرب على السلطة. في هذه الأثناء ، التي بدت الأوضاع فيها ، أقرب إلى الهدوء والفتور، منها إلى الانتظار والترقب ، وقعت أحداث سبتمبر، على الأرض الأمريكية ، لتشعل في المنطقة والعالم .. حريقاً كبيراً ، بدأ بالغزو الأمريكي لأفغانستان .

الفضائيات .. نقلت الحرب في أفغانستان ، إلى داخل البيوت، وشاهد الشباب ، الذين قاتلوا في أفغانستان ، من على بعد آلاف الأميال، على شاشات التلفزيون .. الطائرات الأمريكية ، تحوم في أجواء أفغانستان ، وتلقي حمولتها من المتفجرات ، على المدن الأفغانية .. تدمر أماكن أِلفُوها، وتدكّ قرى وادعة ، ساروا في جَوَادّها وطرقاتها ، خطوة .. خطوة، وسكبوا على ثراها .. كثيراً من الدماء .

كان قراراً حاسماً وسريعاً ، ذلك الذي اتخذه عبد الله ،

ومجموعة من أصحابه ، حين قرروا الذهاب إلى أفغانستان. بعضهم سافر .. دون حتى أن يستأذن أحداً من أهله . من باكستان، اتصلوا على ذويهم وأقاربهم، يخبرونهم بسفرهم ، وعزمهم الالتحاق بجبهات القتال ، والجهاد في صفوف حركة طالبان، ضد قوات الغزو الأمريكية ، وميليشيات الشمال المتحالفة معها .. أو القيام بأعمال إغاثة ، إذا لم يتمكنوا من القتال .

لدى عبد الله ، وكثير من الشباب ، الذين سارعوا للذهاب لأفغانستان، إثر الغزوالأمريكي .. اعتبر الالتحاق بجبهات القتال، للدفاع عن حلم الدولة الإسلامية .. الذي قاتلوا من أجله طويلاً ، واجباً مقدساً . الذي يجري ، بالنسبة لهم .. دولة (كافرة)، تغزو بلداً (مسلماً) ، وتئد مشروعاً إسلامياً وليداً ، باسم الحرب على الإرهاب .

حين وصلوا .. كانت هناك حال من الفوضى والذهول ، على الحدود الباكستانية الأفغانية ، تعكس واقع ما يجري في الداخل الأفغاني . القصف الأمريكي العنيف والمدمر ، على المدن الأفغانية الرئيسة ، خَلّف آلاف القتلى والجرحى ، وخلق حالاً من الفزع والارتباك بين السكان ، وأدى إلى عمليات تهجير واسعة . تتحدث الدفعات الأولى من الفارين ، الذين وصلوا .. عن طوابير طويلة من الناس ، تخرج من المدن ، وتهيم على وجوهها ، في رحلة لجوء جديدة .. يحملون خفيف متاعهم ، ويهربون باتجاه الحدود. المظاهر المسلحة انتشرت بشكل كبير .. وغياب الأمن وفراغ السلطة ، بدأ يغري العصابات المسلحة بالظهور .

- ٣ -

في مدينة بيشاور ، حيث انتقل عبد الله ومجموعته ، كـــان الشباب العرب في حيرة .. لا يعرف أكثرهم أين يتوجه ، ولا تحت لواء مَنْ .. يقاتل. الأوفر حظاً منهم ، هو الذي لم ينقطع طويلاً عن الساحة الأفغانية، وظل يحتفظ بعلاقات مع بعض المجاهدين العرب ، الذين استقروا في أفغانستان .. أومع بعض الزعماء الأفغان ، ممن سبق له أن تعرف عليهم.. فأجرى اتصالاته ، ليلتحق بهم .

بعد نقاشات ومشاورات طويلة ، انقسمت المجموعة إلى أكثر من فريق. عبد الله واثنين من أصحابه ، قرروا الالتحاق ، بجمعية طبيّة عربية، متوجهة إلى مدينة قندوز في الشمال ، التي كانت تتعرض لقصف عنيف. البقية توزعوا ، بين من فضل البقاء في بيشاور ، حتى تتجلي الأمور ، وآخرون وجدوا أن من الأفضل ، الالتحاق بجبهة جلال أباد القريبة .. ومجموعة صغيرة ، رأت التوجه إلى العاصمة كابل .

جبهات الشمال كانت أكثر اشتعالاً ، وشدة القتال فيها تتصاعد . القصف الأمريكي كان عنيفاً ومركَّزاً ، على التجمعات السكانية، لإجبار السكان المحليين ، على التخلي عن تأييد حكومة طالبان، وللضغط عليهم، لطرد مقاتلي الحركة ، والمجاهدين العرب .. تمهيداً لفتح الطريق أمام الميليشيات الشمالية الحليفة ، التي بدأت تزحف .. باتجاه كابل ، بغطاء من القصف الجوي الأمريكي

الكثيف . كانت الطائرات الأمريكية تلقي قنابل ومتفجرات .. بزنة سبعة أطنان ، وتعقبها طائرات أخرى ، بإلقاء منشورات، تحرض السكان على طرد المقاتلين (الأجانب)، ليجنبوا أنفسهم القصف الأمريكي ، التي تقول تلك المنشورات ، أنه لا يستهدف الأفغان .. وإنما يستهدف (الإرهابيين)، من أفراد حركة طالبان ، وعناصر تنظيم القاعدة .

سقطت مزار شريف ، أقصى المدن الشمالية .. وأهمها ، بيد ميليشيات الجنرال الشيوعي السابق ، عبدالرشيد دوستم ، بعد أن غادرها مقاتلوا حركة طالبان ، إثر قصف جوي أمريكي، استمر لعدة أيّام . لم تكن حرباً متكافئة ، تلك التي خاضها محاربون مشاة ، بأسلحة شخصية ، ضد طائرات تطلق صواريخ موجهة بالليزر .

تهاوت المدن الأفغانية ، بسقوط مزار شريف ، فانفرطت مثل حبات السبحة .. بعض المدن ، مثل طالقان وقندوز ، أبدت مقاومة شرسة ومميتة ، إلا أن الميليشيات ، ظلت تتقدم ، بمساندة القصف الأمريكي الشامل . تقدم الميليشيات ، أغرى بالظهور، وإعادة تنظيم نفسها .. من جديد، مجموعات كان قد قضي عليها ، مثل حزب وحدت الشيعي، وتنظيمات أخرى مسلحة . كانت هناك أيضاً ، عملية شراء ولاءات ضخمة، استهدفت رجال القبائل ، تمولها المخابرات المركزية الأمريكية .

تبديل الولاء ، وتغيير التحالفات ، شمل كذلك .. بعض القادة الميدانيين.. من زعماء القبائل ، بسبب انقلاب موازين القوى . العرب الذين جاءوا إلى أفغانستان ، للقتال إلى جانب الأفغان ، ضد الغزو السوفيتي، أو للمساهمة في أعمال إغاثية وإنسانية..

أو أولئك الذين فروا من بلدانهم، بسبب التضييق والمطاردات الأمنية ، واتخذوا من أفغانستان ملاذاً .. صاروا مادة رئيسة ، في عملية شراء الذمم، وتبديل الولاءات ، بعد أن رصدت المخابرات الأمريكية ، جوائز مالية ، مقابل كل أسير عربي . أفراد كثيرون، بل حتى أسَر عربية ، تم بيعها، لوحدات أمريكية خاصة ، مقابل حفنة من الدولارات .

انـهار النظام الأفغاني تماماً، بانهيار سلطة طالبان. سقوط للمدن بشكل مـتسارع، واستسلامات بالجملة، للقادة الميدانيين.. ليجد المقاتلون العرب أنفسهم ، أمام قدرهم المحتوم: بين الميليشيا، وعملاء الاستخبارات الأمريكية . مع اقتراب الميليشيات من كابل ، وسقوطها الوشيك .. كانت الفضائيات تنقل الفظائع ، التي يرتكبها أفراد الميليشيات، ضد خصومهم ، وضد المدنيين ، بحماية القوات الأمريكية .. من قتل ، وخطف، وتمثيل.

انتشر (صائدو الجوائز) ، من العصابات، و أفراد القبائل، طمعاً في الدولارات، التي رصدتها المخابرات الأمريكية، لكل أسير عربي، ممن يشتبه في انتمائه لتنظيم القاعدة، أوتعاطفه مع حركة طالبان، ولم يسلم كذلك.. حتى العاملون في المنظمات الإغاثية. معسكرات اعتقال أقيمت، في مختلف مناطق أفغانستان، امتلأت بالعرب، تمهيداً لنقلهم لسجون أمريكية .

مع استمرار الحرب .. وتصاعد حدتها ، انقطعت أخبار عبد الله، فتحول القلق إلى خوف . بدأت القصص ، التي تأتي من هناك ، تتحدث عن استهداف العرب ، من قبل عناصر

الاستخبارات الأمريكية ، وأفراد الميليشيات الأفغانية الموالية لها، فَعَمَّتْ حالٌ من اليأس، كثيراً من البيوت .. وانهارت أم عبد الله . بعض الأسر وصلتها أنباء عن موت أبنائها ، بسبب القصف الأمريكي، أو قتلاً .. على يد أفراد الميليشيات، والعصابات المسلحة .

أم عبد الله استبد بها القلق ، وسيطر على تفكيرها ومشاعرها.. الخوف على مصير ابنها عبد الله :

- لابد أن تبحثوا عن عبد الله.. يجب أن تذهبوا لإحضاره..

كانت تبكي ، والوجع يقلّبها على فراش المرض، حزناً على عبدالله، الذي لا تعرف المصير الذي آل إليه . تهذي باسمه معظم أوقات الليل، وأكثر ساعات النهار ، وتلح على والده ، بضرورة البحث عنه . الأوضاع يكتنفها الغموض في أفغانستان ، وهناك مخاطر كبيرة، يتعرض لها الذاهب إلى هناك .. بسبب الحرب ، وانتشار عناصر المخابرات ، وعملاء الشرطة الفدرالية الأمريكية، الذين يخطفون (الأجانب)، والعرب خصيصاً ، بتهمة الانتماء لتنظيم القاعدة ، أو لمجموعات موالية لأسامة بن لادن .

احمد كان يسمع نداءات أمه ، ويقرأ الرجاءات في عينيها.. وظل صامتاً . لم يكن على وئام مع شقيقة عبد الله ، وكثيراً ما دخل معه في جدال ، واشتبك مرّات كثيرة ، في خصومات كلامية ، مع رفاقه ، من الشباب الجهاديين ، الذين يزورونه ، في الفترات التي يعود فيها من الجهاد .. من هذه الجبهة ، أو تلك . حاول أن يتظاهر ، بأن المقصود برجاءات أمه ، والمعني بإلحاحها .. هو أبوه فقط . ظل يتصنع التجاهل، ويحاول أن

يعظّم في نفسه ، من أمر الذهاب إلى مكان تسوده الفوضى، ومخاطر الحـــرب ، إلا أن شيئاً آخر في دخيلة نفسه ، كان يلح عليه.. كلما حاول أن ينسى .

قبل سفر عبد الله الأخير ، دخلا في مصارحة طويلة ، حول قناعات كل منهما، والمنهج الذي عليه عبد الله . حرص عبد الله أن يقنعه ، بالدور الجوهري للجهاد في خلاص الأمة ، وحتمية المواجهة مع أعدائها .. في الداخل والخارج ، وبسمو الأهداف التي يسعى إليها .. وفي مُقدِّمها انتشال الأمة من واقع التردي ، الذي كما يقول ، صار الموت فيه ، أسمى من الحياة . أراد هــو أن يؤكد ، على أن الذي يهمه ، بالدرجة الأولى ، هو مصلحته الشخصية ، والاستمتاع بحياته ، واستقرار الأوضاع من حوله .. وأن ذلك لا يمنع ، من أن يكون مسلماً صالحاً . لم يصلا إلى نتيجة ، لكنه يتذكر أن عبد الله ، في نهاية حديثهما ، نظر إليه عميقاً .. وقال : أنا رغم كل شيء .. أحبك . ثم شدّ على يده ، وضمه إلى صدره .

بقي الأب متردداً وحائراً ، بين عجزه عن فعل شيء ، وبين إلحاح زوجته .. وصمت ابنه أحمد . لم يكن قادراً أن يطلب من أحمد .. صراحة ، أن يذهب لأفغانستان ، للبحث عن أخيه ، في ظل ظروف غامضة ، وَتحُفّهَا مخاطر شديدة . يدرك أن طلباً من هذا النوع ، معناه .. تسليم ابنه الآخر إلى مصير مجهول . من ناحية أخرى ، أحس أن طلبه هذا ، الذي سيجد ابنه أحمد، حرجاً في رفضه ، سيكون غير أخلاقي ، نظراً لخطورة الأوضاع في أفغانستان . يشعر كذلك ، في قرارة نفسه ، أن الندم سيأكل قلبه .. طيلة حياته ، لو حدث مكروه لأحمد ، بسبب امتثاله

للأمر ، واستجابته له .. بوصفه والده .

مرّت أيّام ، والأزمة تزداد عمقاً .. الأخبار القادمة من أفغانستان ، تتحدث عن أوضاع أسوأ من التي قبلها. الأم يتردى وضعها الصـــحي، وتتدهور حالتها النفسية .. والأب تضيق الدنيا في وجهه ، بتضاؤل فرص وصول أخبار ، عن الابن الغائب.. وعجزه عن فعل شيء حيال ذلك .

كان لِتوِّه.. قد عاد من صلاة الفجر، وجلس إلى جانب سريرها ، بعد ليلة تأزم فيها وضعها الصحي، وأضطروا لنقلها إلى المستشفى.. حين فُتح بَاب الغرفة ، بعد نقرة خفيفة .. كان أحمد. تقدم خطوة ، وأبقى الباب خلفه مواربًا :

- السلام عليكم .. كيف حالك يا أمي ؟

أومأت برأسها، إيماءة خفيفة، دون أن تفتح عينيها. واصل حديثه :

- ســــأذهب للبحث عن عبد الله. ربما غداً، أو بعد غد.. أسافر إن شاء الله.

رد والده بسرعة وعفوية :

- لا .. لا تستعجل ، حتى تتضح الأمور ..!

أثر الإعياء والسهر ، كان بادياً على وجهه .. لكن ملامحه تنطق بالتصميم. لم يرد على والده .. يطلب منه التريث ، في سبيل الحصول على معلومات أكثر ، كما يقول ، عن مصير عبد الله . كَأَنّ لم يكن قبل ساعات ، يتمنى من أعماقه أن يسافر. ربما استشعر خطورة الخطوة، التي سيقدم عليها.. بعد أن صار الأمر جداً، وغدا تحقيقه مسألة وقت.

كان ينظر في عيني أمه ، ويلحظ بصيص ضوء بدأ يتسلل

منها ، ناهضاً من بين أجفان كسلى .. أعياها المرض ، وتتشبث بالرجاء ، فقال مؤكداً :

- أعرف أشخاصاً ، لهم سابق معرفة بعبد الله ، ولديهم تجربة في السفر إلى أفغانستان .. سأستفسر منهم ، عن كل ما يخص الذهاب إلى هناك .

رمقته بنظرة واهنة ، دون أن تحرك رأسها ، وانفرجت شفتاها اليابستان، وشرعت تتمتم ، بكلام غير مسموع .. كانت تدعو له . اقترب منها ، وجمع كفها النحيلة بين كفيه .. وقبلها . خرجت الكلمات ضعيفة :

- استودعك الله .. الذي لا تضيع ودائعه .

-٤-

حين وصل إلى كراتشي ، اصطدمت عيناه بقوافل العائدين ، متكدسين في صالة المغادرة .. في المطار . امتلأ المكان بخليط من الناس ، من بينهم شباب صغار ، يوحي منظر أكثرهم بالبراءة . يُذَكِّرونه بصالح ، ذلك الشاب الذي ذهب إلى مطار الرياض .. أول ما بدأت تصل أخبار الجهاد الأفغاني، وتصبح حديث الناس، وشغل خطباء الجوامع . في صالة المغادرة ، استوقف صالح أحد العمال الأفغان المسافرين ، ودفع له ورقة نقدية من فئة الخمس مئة ريال ، وطلب منه أن يسلمها إلى أحد قادة فصائل الجهاد .. دعماً منه للجهاد الأفغاني :

- أعطها سياف .. هذا تبرع للجهاد .

القصة لم تكن نكتة .. صالح من وجهة نظره ، يمثل شريحة كبيرة من الشباب النقي .. البريء ، الذين لا يحملون (أجندة) سياسية، أو فكرية ، من أي نوع .. ويتصرفون بعفوية . بعضهم ذهب إلى أفغانستان.. بتشجيع رسمي ، حين كانت بعض الجهات الحكومية ، تتحمل قيمة تذكرة السفر إلى باكستان ، تحت مسمى دعم الجهاد الأفغاني .. وفريق ذهب بدافع شخصي. بعض آخر.. مثل صالح ، لم يفعل ، أو لا يستطيع . الذي يجمع بينهم .. أن كُلًّا منهم ، كان يعبر عن تعاطفه .. بعفوية . لم يسافروا، بإيعاز من جهة معينة ، لتحقيق أهداف محددة ، ولا بتحريض من أحد. تأمّل الشباب مرّة أخرى ، وجال في خاطره تساؤل : كيف

خرج هؤلاء ، وأي نفسيات وأفكار .. سيعودون بها ؟

لم يـكن ثمة رابط ، يجمع بين هذه الجموع الغفيرة . بعضهم يتبع جمعيات طبية ، أو مؤسسات صحية ، وآخرون ينتسبون لمنظمات إغاثية.. ومجموعات أخرى متناثرة .. جاءوا بغرض القتال .. دون هـدف محدد، سوى ما يتردد على ألسنة الجميع: الجهاد ضد الأمريكان ، وحلفائهم الشيوعيين . يتحدث أكثرهم عن الجهاد ، وهو لا يعرف مع من ، ولا ضد من .. إلا ما يسمعه: عدو كافر . لم تكن أكثريتهم الساحقة ، قد دخلت جبهة، أو خاضت معركة .. أو تلقت تدريباً من أي نوع . عرف ذلك ، حين تحدث مع أفراد منهم ، محاولاً الحصول على معلومات ، تساعده في بحثه عن شقيقه .

لم يجد من بين هؤلاء من يفيده.. عن طبيعة الوضع، أو يدلّه على أشخاص ، أهل خبره ودراية . أعدادهم كبيرة ، لكنّ قليل منهم من يملك معلومات ، عن حقيقة ما يـجري في الداخل الأفغاني . بعضهم جاء ، ولم يتمكن من الدخول ، وقسم آخر.. لا يدري لماذا جاء ، لكنه وجد نفسه ، ضمن مجموعة قررت الذهاب إلى أفغانستان .. ثم انقطعت بهم السبل . مثل هؤلاء.. سيجدون أنفسهم في موقف صعب ، حينما تستلم ملفاتهم ، الأجهزة الأمنية في بلادهم . إذ لا يكفي لدى تلك الأجهزة ، أن يقول المتهم: لا أدري ! عليه أن يدلي بمعلومات عن أشخاص.. لم يلتق بهم ، وربما لا يعرفهم ، وعليه أن يتحدث بالتفصيل ، عن تدريب لم يَتَلّقَهُ ، وأسلحة لم يسمع بها . معظم الإجابات ، التي سمعها منهم .. حول سؤاله ، عن شقيقه ، كانت تقترح عليه الذهاب إلى بيشاور :

– أكيد .. أخوك في بيشاور . يوجد شباب عرب .. كثيرون

هناك .

توجه من كراتشي إلى إسلام أباد . هناك .. حاول أن يتصل بالسفارة.. لكنه لم ينجح . فَهِمَ من بعض الموجودين ، أن السفارة لن تفيده بشيء، وهو الذي ظن أن لديها سجلاً لمواطنيها، أو تجمعت لديها معلومات عنهم، بحكم أهمية المعلومات الاستخباراتية ، في ظروف كهذه . في محيط السفارة ، تجمهرت أعداد غفيرة . بعضهم قد فقد جواز سفره ، وآخرون لا يملكون قيمة تذكرة العودة .. وكثيرون يبحثون عن أقارب لهم .

مثلما فعل في كراتشي .. حاول أن يحصل على معلومات عن عبد الله، من مصادر غير رسمية .. من بعض من كان موجوداً . أحدهم ، حين سمع الاسم ، قال له .. بعبارة تحتمل الشك ، أنه قد سمع بهذا الاسم من قبل:

- لست متأكداً .. لكني أظن أنه كان مع مجموعة دخلت أفغانستان. سمعت ذلك ، من شخص قابلته في بيت الأنصار.

ثم أضاف :

- أنصحك ألاّ تذهب .. الشباب محاصرون في الداخل ، وبعضهم وقع في أسر الأمريكان .. أو الميليشيات .. وآخرون قتلوا ..

دخله شيء من الخوف ، بسبب الغموض وتضارب الروايات ، حول حقيقة ما يجري داخل أفغانستان ، إلا أنه قرر الذهاب إلى بيشاور . في بيشاور ، رأي فلول الهاربين من الحرب ، واستقبلته موجات ، إثر موجات، من اللاجئين .. ينقلون أمتعة متهالكة ، وفوقهم ملابس رثّة .. ويحملون آثار الحرب على وجوههم .

كانت المدينة مليئة بالبشر ، ويدب على أرضها، وفي طرقاتها الضيقة الترابية ، ألوف الناس . يكاد يجزم ، أن كل أعراق الجنس البشري ، ممثلة في هذه المدينة .

في بدايات الجهاد الأفغاني ، ضد الغزو السوفيتي ، أصبحت مدينة بيشاور ، قاعدة متقدمة ، لإدارة الحرب الباردة ، بين المعسكرين الشرقي والغربي .. من خلال الحرب بالوكالة ، التي تعتمدها القوتين العظميين، لتفادي مواجهة نووية . صارت أفغانستان ، مكاناً لتقاطع مصالح ، بين الحركة الإسلامية الأممية .. التي اعتبرت الساحة الأفغانية ميداناً ، لامتحان قدراتها الحقيقية على المواجهة ، وإقامة نظام إسلامي ، بعد فشل محاولاتها في الوطن العربي .. وبين المعسكر الغربي ، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، التي رأت في الحرب الأفغانية، فرصة لإلحاق الهزيمة بالسوفييت .. خصمها اللدود .

زجت أمريكا بثقلها الاستخباراتي، ودعمها العسكري، اللوجستي والمالي في الحرب، بالتنسيق مع وكلاء، ودول (صديقة) .. عبر بعض الفصائل الأفغانية . كانت تراهن على حرب استنزاف طويلة، ترهق السوفييت ، وتنتقم منهم ، لورطتها في فيتنام ، حين دعموا الفيتناميين الشيوعيين الشماليين ، ضد حلفائها الفيتناميين الجنوبيين، في الحرب التي كلفتها كثيراً .. بشرياً ومادياً ، وانتهت بهزيمتها .

تقاطع المصالح ، في الحرب الأفغانية ، كثيراً ما وظف من أطراف مختلفة ، ضمن منظور (أيديولوجي) ، لتصفية حسابات شخصية، أو لتحقيق أهداف ومصالح خاصة . الولايات المتحدة، استخدمته ضمن آلتها الدعائية ، لمغازلة الشعوب الإسلامية ،

بالإدّعاء أنها تتعاطف مع الإسلام، وحركات الإسلام السياسي، ضد الشيوعية والإلحاد .. الذي يمثله السوفييت، والكتلة الشرقية. إعلام الأنظمة الرسمي ، استخدمه ضمن حرب الأجهزة الأمنية الرسمية ، على الحركات الإسلامية ، من خلال وصفها بالعمالة للأمريكان .. وكذلك فعل القوميون ، الذين اعتبروها حرباً أمريكية ، لا علاقة لها بالجهاد .. ومبرراً لسكوتهم ، على القمع الرسمي للتيار الإسلامي .

الليبراليون .. وهم خليط من المُتَأمْرِكِيْنَ ، والماركسيين (التائبين)، الذين أصبحوا ظاهرة ،بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، نظروا للحرب في أفغانستان ، بوصفها شكلاً من أشكال الحرب (الدينية)، لتحقيق أهداف سياسية ، ولا مكان للجهاد فيها، وكثيراً ما عتبوا على أمريكا، أنها هي التي أخرجت مارد (الإرهاب) الإسلامي .. من القمقم، من خلال التسهيلات ، التي قدمتها للمجاهدين في أفغانستان . بعد أحداث سبتمبر ، أعاد الليبراليون، (إنتاج) الحدث ، في حربهم ضد الظاهرة الدينية .. من موقف شمولي ، باسقاط ظاهرة العنف والإرهاب ، على مجمل التيار الإسلامي، وتحميله مسؤولية الإرهاب ، من منظور فلسفي ، يقوم على أن العنف .. موجود في جوهر الفكرة الإسلامية .

العنصر العربي ملحوظ في بيشاور . رأى أشخاصاً كثيرين بسحنات عربية . بدأ يستوقف بعضهم ، ويسألهم عن أخيه .. أو يسأل عن (بيت الأنصار) ، الذي ذكره له ، شخص قابله قرب السفارة .. في إسلام أباد. حدثه ذلك الشخص ، أن بيت الأنصار ، مأوى المجاهدين العرب ، وأنه لابد أن يجد خبراً عن

أخيه هناك . وجد صدوداً ، ورأى علامات ارتياب ترتسم في الوجوه .. لدى من سألهم . انتشر الجواسيس ، فزاد الخوف.. وهذه أوقات يكثر فيها الشك ، ويغلب سوء الظن .

الوجـود العربي هنا ، خليط من أشخاص .. لهم أهداف شتى. بعضهم جاء للجهاد ، وآخرون تابعون لمؤسسات رسمية عربية ، تقوم بأعمال إغاثة.. بالإضافة إلى عناصر مرتبطة بأجهزة أمنية ، واستخباراتية، يعمـلون تحت مظلات مشابهة . أطرف تعليق على هذه الظاهرة ، سمعه من أحدهم :

- بيشاور .. تُسَقِط خرافة أن الجامعة العربية ، في طريقها للزوال .. وأن التضامن العربي انتهى . هنا كل أجهزة الاستخبارات العربية موجودة.. تعمل بنشاط ، وبينها تنسيق يدعو للإعجاب..!

قال هذه العبارة الســاخرة ، ثم دار بينهما حـديث ، اطمأنّ بعدها إليه .. و دَلّه على (بيت الأنصار) ، إذ توقع له .. مثل كثيرين، أن يجد هناك خبراً عن أخيه. كان قد سمع مراراً ، أنه لا يوجد مجاهد عربي .. إلا ومرّ على بيت الأنصار ، فشرع في البحث عن بيت الأنصار ، منذ أن وصل إلى بيشاور .. وبدأ بالسؤال عن أخيه .. إذ كان في كل مرة ، يسمع إجابة .. تكاد تتكرر :

- قد تجده في بيت الأنصار .. أو ربما تجد هناك أحداً ، يخبرك عنه.

بيت الأنـصار، كما أخبره الشاب الذي قاده إليه ، دار ضيافة، أوجدها المجاهدون العرب الأوائل، الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني .. من بدايته، وكانت مهمته استقبال الشباب

العرب، القادمين لأفغانستان ، وتوجيههم إلى الجبهات .. لأعمال عسكرية ، أو إغاثية . حينما وقفا قريباً من بيت الأنصار .. أشار إليه ، وقال :

- هـــذا بيت الأنصار .. لكن انتبه لنفسك ، خصوصاً لسانك، فالبيت لم يعد (آمناً) ، كما كان.. في هذه الأيام بالذات.

لا يختلف بيت الأنصار من الخارج ، عن بقية بيوت بيشاور الطينية . تدل عليه .. لوحة بـاهتة .. تعلوه ، كتبت باليد ، بحروف عربية ، بخط قريب من خط النسخ . كان الباب مفتوحاً، فوقف عنده ونادى عدة مرّات.. ملقياً السلام ، ومستفسراً عما إذا كان هناك أحدٌ داخل البيت . جاءه صوت من الداخل ، بلهجة لم يتعرف عليها :

- تفضل .. تفضل ..

سار بضع خطوات ، ثم اجتاز ممراً ، تغطي أرضيته طبقة اسمنتية متآكلة ، ولا يزيد عرضه عن مترين . تفتح على الممر غرفتان كبيرتان، عن اليمين والشمال . تبدوان من ظاهرهما ، والأثاث الموجود فيهما ، أنهما مخصصتان لاستقبال الضيوف. هناك مصاحف، وآنية وضوء، وَفَرْش .. وبقايا طعام . في الممر، كان ثَمّة أسلحة شخصية ملقاة .. مسدسات ورشاشات كلاشنكوف ، وصناديق ذخيرة . هناك أيضاً ، كوم من الملابس الأفغانية ، موضوعة على أحد جانبي الممر ، وبجانبها عـــدد من البطانيات العتيقة ، والألحفة الصوفية . في نهاية الممر باب خشبي مفتوح ، علـــيه كتابات بالعربية والأردية ، بعضها .. بدا وكأنه أسماء وكنى ، لأشـخاص أقاموا هنا . أفضى به الممر ، إلى فناء واسع جداً ، تطل عليه غرف كثيرة .

في الفناء ، رأى أشخاصاً متحلّقين ، على شكل مجموعات .. بعضهم واقف ، وبعضهم جـالس . كان هناك أيضاً ، بضعة أفراد يُصلّون .. منفردين . الوقت لم يكن وقت صلاة فريضة .. فَخَمّن أنها نافلة الضحى . حين أصبح داخل الفناء .. مشى خطوتين، ثم ألقى السلام وتوقف ، كأنما ينتظر توجيهاً . شخصت إليه أبصار الموجودين .. ورأوا في عينيه ، حيرة وتردداً. سمع نفس الصوت .. مرّة أخرى :

– وعليك السلام .. تفضل .. تفضل .

التفت إلى مصدر الصوت . كان رجلاً وضيئاً، في مطلع الثلاثينيات، يتدلى من على كتفه رشاش ، شديد سواد اللحية، شديد سواد الشعر، يميل للبياض .. افترّ ثغره عن نصف ابتسامة . أدرك من إطالته النظر إليه ، أنه يدعوه ليتقدم . سار باتجاهه ، وحين اقترب منه ، مد يده مصافحاً ، فالتقطها بكف قوية ، وساعد مفتول .. عكس ما يوحي به منظره الوديع.. وبادره :

– حياك الله .. مجاهد ؟

– لا .. أنا أحمد الشاهد ، جئت أبحث عن شقيقي .. جاء إلى أفغانستان قبل ثلاثة أسابيع ، وانقطعت أخباره .

– أنت من الجزيرة العربية ..؟

– من الرياض ..! أخي اسمه عبد الله ، وأظن أنه يكنى بأبي القعقاع..

– أبـو القعقاع كـثيرون ..! أشـهرهم أبو القعقاع النجدي.. الذي يسميه الأفغان : آرَ ، بي ، جي ، لكثرة ما دمّر من الدبابات الروسية. هل هو .. الذي تبحث عنه ..؟

– لا أدري .. لم أسمعه يتكلم عن نفسه بكلام كهذا .. عرفت

أنه يكنى بأبي القعقاع ، من بعض من يعرفونه.

- إحدى ثناياه ، بها لون أزرق .. من أثر ضربة ..؟

- نعم ..

تناظروا فيما بينهم ، وردد بعضهم ، بصوت مسموع : إنه هو .. أبو القعقاع، ثم تعالت أصواتهم، بالإشادة به، والحديث عن بطولاته . أحس بفخر ، أن يتحدثوا عن أخيه ، بمثل هذا الإعجاب ، وشعر بارتياح، أن الأوصاف التي يذكرونها ، تنطبق على شقيقه .. وأنهم .. ربما قد عرفوه . اعتراه شعور أن هذا أول الخيط ، الذي سيقود إلى عبد الله .

طافت في ذهنه ، خيالات وأفكار ، أثارها حديثهم عن شقيقه. كأنّ اللقاء أصبح وشيكاً .. خاطر أخذ يُلِحّ عليه . سيأخذه بالأحضان، وسيطلب منه أن يسامحه .. على غِلْظَة تعامل بها .. فترةً من الوقت معه . سيرتّب مفاجأة لوالدته .. بالاتفاق مع والده، لن يخبرها عن عبد الله ، إلا إذا وصلا الرياض . سيجعلها تراه بطريقة تفرحها .. ولا تَفْجَؤُهَا . كان سارحاً يتخيل لحظات اللقاء ، ومنهمكاً في ترتيب مفاجاءات لوالديه.. بعودة عبد الله ، حين بادره بالسؤال .. أحد الواقفين :

- كيف يمكن أن نعرف حقيقة علاقتك ، بأبي القعقاع ..؟

بدا الموقف لأكثرهم ، منطقياً وساذجاً في آن .. وهم يرقبون محاولته، إثبات علاقته بأخيه .. يمد يده إلى جيب قميصه الداخلي ، ويستخرج جواز سفره ، ليطلعهم عليه . بالنسبة له.. ليس لديه إلاّ جواز السفر، للإجابة على السؤال . أما هم .. فأساساً .. لا يعرفون أخاه باسمه الحقيقي، ولم يسبق لهم أن اطّلَعُوا على وثيقة رسمية ، تحمل اسمه . حين قدم أول

مرّة.. إلى أفغانستان ، قـــدّم نفسه، باسم (أبو القعقاع) .. تَقْليدٌ يسير عليه أي شاب ، يأتي للقتال في أفغانستان. أحياناً لأسباب أمنية ، ليُبْقي شخصيتة مجهولة ، لدى الأجهزة الأمنية المختلفة، التي ينتشر أعضاؤها في المنطقة بكثرة . كما أن اتخاذ الكُنَى، بين الشباب المقاتل ، واحد من أبرز عناصر ثقافة الجهاد، وَيُعدّ مظهراً من مظاهر الشجاعة والرجولة.

شعر بارتباك وخوف ، حين لاحظ أنهم لم يبالوا ، بالاطلاع على جواز سفره ، والتحقق من شخصيته . كان يدور بينهم همس.. أخذ يرتفع . هل يشكّون في حقيقة شخصيته .. ويظنون أنه يكذب عليهم ، أو أنه جاسوس؟ هل ينوون به شراً ..؟ أسئلة صارت تتراكم ، وتصنع أمام ناظريه نهاية مخيفة . في الطريق إلى بيت الأنصار ، حدثه الشاب ، الذي قاده إلى هناك.. عن تصـــفية الجـــواسيس . يتذكر كلامه ، عن (قذارة) الدور، الذي يقـــوم به الجـاسوس، وما يتســـبب به من قتل لأبرياء .. أو انتهاك لحرمات وأعراض ، بسبب معلومات يسربها للأجهزة الامنية .

الخوف .. كان قد ملأ قلبه ، بعد أن ارتفع لغطهم ، وكثر تلفتهم ، وتبادلهم للنظرات . أحدهم ظل يردد كلمة جاسوس بعصبية ، ويقلب بيديه المتوترتين ، مسدساً التقطه من معطف يتدلى ، من نافذة غرفة قريبة .. كأنما ينتظر إشارة من المسؤول، لينفذ المطلوب .

عنـــد هذه اللحظة ، لمح شخصاً يخرج من إحدى الغرف المطلة على الفناء ، ويتـــطلع .. إلى حيث يتحلقون حوله . كان يبدو أن الأصوات العالية ، قد اجتذبته . خفق قلبه بشدة .. لقد عرفه . كان قد رآه مع مجموعة من الشباب ، عند شقيقة

عبدالله ، أكثر من مرّة ، في الفترات التي يعود بها إلى الرياض هَمّ أن يقول ، لأولئك الذين يحيطون به .. بأن هذا الشاب يعرفه. تردد .. حين تذكر أنه في إحدى المرّات ، لم يكن مهذباً معه .. بل أغلق الباب في وجهه ، لمّا جاء يسأل عن عبد الله . هل سيتنكّر له، بسبب ذلك الموقف ؟ التوتر الظاهر على الرجل، الذي يحمل المسدس، وفتحه لزر الأمان في سلاحه ، لم يجعل أمامه خياراً .. صرخ بلا شعور .. وهو يشير للرجل ، الذي خرج من الغرفة ، ووقف ينظر إليهم :

– هذا يعرفني .. هذا الأخ يعرفني ..

التفت الجميع إلى حيث أشار . كان الرجل قد بدأ بالتحرك تجاههم. حين صار قريباً ، بحيث يستطيع أن يميز ملامح أحمد ، اتسعت عيناه ، وبدت على وجهه علامات الدهشة .. فتح ذراعية ، وصاح بصوتٍ مملوء بالمفاجأة :

– أحمد .. أحمد ..!

تقدم إليه ، وضمه إلى صدره .. ثم اعتنقه ، وهو يردد، بصوت يتهدج:

– الحمد لله على السلامة .. متى الوصول ..؟

حَميميّة الاستقبال ، أثارت استغراب الحاضرين ، وفضولهم.. الذي تمثل في علامات استفهام ارتسمت على الوجوه . الرجل الذي كان يجهز مسدسه ، ويقلبه بعصبية ، وظهرت أمارات التوتر والانفعال على سلوكه، سارع إلى إدخال المسدس في جيبه. قائد المجموعة ، بادر بالسؤال :

– تعرفه .. يا أبا طلحة ..؟

– هذا أحمد .. شقيق (أبو القعقاع) النجدي ..!

أحمد.. لم يكن أقل مفاجأة.. لكنه أيضاً، الأكثر فرحة وسعادة:

– لقد ساقك الله إلي يا أبا طلحة .. كادوا يقتلونني ..!

- الظروف صعبة ، والأوضاع مخيفة . أقل خطأ .. يكلف كثيراً . لقد ذهب إخوة فضلاء ، ضحايا لتصفيات ، من قبل أجهزة استخباراتية..!
- لكني .. لم أعْطَ فرصة ، لأعرّف بنفسي . هل يعني هذا، أن يذهب الإنسان ضحية للظروف والأوضاع .. والجهل بحقيقة شخصيته..!؟
- يحدث أحياناً .. أن تقع أخطاء . على أية حال ، الحمد لله على سلامتك، ما الذي جاء بك إلى هنا .. تبحث عن عبد الله ؟
- نعم .. الوالدة طريحة الفراش. تعرف مكانة عبد الله عندها .. تتهد .. وقال ، وهو يلقي بنظره إلى الأرض :
- عبد الله مع مجموعة دخلت أفغانستان. الأوضاع سيئة .. لكن، لعل الإخوة لديهم أخبار جديدة ..!

التفت أبو طلحة نحو الرجال الواقفين ، وسألهم .. إن كانت قد وصلت أخبار من الداخل الأفغاني . أجابه أحدهم ، أن بعض الجبهات ما زالت مشتعلة ، ولكن أغلب مدن الشمال سقطت ، أو سلّمت للميليشيات . أعاد أبو طلحة السؤال .. بالتأكيد على أنه يعني أحوال (الشباب) ، وهو تعبير يقصد به المجاهدين العرب، في صفوف حركة طالبان . الردود .. من الجميع ، لم تكن مشجعة ، عكستها مظاهر الحزن ، التي تعلو الوجوه ، والعبارات المقتضبة ، الممزوجة بالإحباط ، التي تصف الأوضاع . تضمنت بعض الإجابات ، إشارة إلى مدن " وصلها بعض (الناجين) من حصار قندوز ، أو تمرد الأسرى في مزار شريف " .. على حد تعبير أحدهم .

- ٥ -

الأمل الذي شعر به يورق ، ويزهر في قلبه ، حين سمع أحاديث الإعجاب بأخيه ، وثناء الشباب عليه ، بعد تعرفهم على أوصافه .. أخذ يذوي ويتحطم ، في ظل غمامات الحزن التي خيمت على الوجوه ، وعلى وقع كلمات الإحباط ، التي ترددت .. عن واقع تعصف به رياح اليأس . لمّا استدار أبو طلحة باتجاهه ، ليناقش معه الخطوة التالية ، في عملية البحث عن شقيقة .. رأى في عينية دمعتين طافرتين ، يمنع من خروجهما .. الحياء والتجلد . تعَمّد .. لكي يرفع من معنوياته ، أن يتصنع الصلابة، ويكسو ملامح وجهه بالأمل .. ويملأ كلماته بالثقة ، وهو يوجه الخطاب إليه :

-غداً نذهب إلى جاجي .. لقد وصلها بعض الشباب ، قادمين من الشمال . ربما نجد لديهم أخباراً .

- لماذا غداً .. هل هي بعيدة ..؟

- هناك سيارة واحدة فقط ، تذهب إلى هناك ، صباح كل يوم .. متجهة إلى خوست وجلال أباد .. وجاجي في الطريق. ليست بعيدة ، لكن الطريق غير معبدة ووعرة .

أخذا ناحية من الفناء وجلسا . بعد حديث قصير ، عن الأهل والبلد .. سأله :

- أفطرت ..؟

- لا ..

نهض .. وسار باتجاه الغرفة ، التي خرج منها ، وبعد لحظات

عاد بابريق شاهي سوّدته النار، وكأسين ، ورغيف يابس . صب في الكأسين شاياً ، يميل لونه للسواد .. لكثرة ترديده ، وغليانه على النار .. وقاسمه الرغيف ، ثم صارا يغمسان فيهما ، كِسَرَ الخبز اليابس . فـُطور لم يتعود عليه ، لكنه منذ جاء إلى هنا ، صار خياراً أفضل من الجوع .

خلال دقائق .. انضم إليهما مجموعة من الشباب ، وبدأوا حديثاً متشعباً عن أمريكا ، والحرب ، والجهاد .. والصراع بين الإسلام والكفر . تطرق الحديث إلى كل القضايا ، ثم استقر على مناقشة (شرعيّة) الأنظمة العربية . كان هناك تأكيد على أن أمريكا ، هي أصل الشر، ومسؤولة عن كل بلاء لحق بالأمة . فهي : " حامية اليهود ، وسند الأنظمة الكافرة. لذلك يجب محاربتها في كل مكان " . هي .. كما قال أحدهم: " رأس الأفعى.. وأتباعها أذناب . إذا قطع الرأس ، لم يعد للذنب قيمة".

تجاذب أطراف الحديث معهم ، قدر ما أسعفته ثقافته الدينية، وسمح به علمه ومعرفته . كان هناك (تأصيل) لكفر الأنظمة، وردّتها .. وحكمها بغير ما أنزل الله ، وموالاتها لأعدائه.. وأمريكا على وجه الخصوص ، التي يسمونها حامية الصليب. لم يكن يدرك كثيراً مما كان يناقش ، في هذه المسألة ، ولم يكن يستسيغه .. فآثر الصمت . كأنّ الصمت عُدّ نوعاً من عدم الموافقة ، وضرباً .. من رفض التسليم ، بما يُعدّ حكماً (شرعياً) لدى الغالبية .. فباغته أحدهم بسؤال .. تنطوي الإجابة عليه ، على إدانة، إن لم تأت موافقة لمضمون النقاش :

- كيف هي أوضاع النظام (المرتد) ؟

في مكان لا يشعر فيه بالأمان ، لم يَدْرِ بما يرد . تظاهر بأنه لم يسمع.. لكن الرجل كرر السؤال بإصرار . لاحظ أن الجميع ينتظرون إجابته . أبو طلحة تشاغل بأغراض ، يحاول إخراجها من جيب معطفه . قرر أن يجيب، على أساس .. أن هذا هو فهمه للسؤال :

- الحمد لله .. دروس المشايخ ما زالت قائمة ، رغم وجود بعض المضايقات.
- هذا ما يفعله النظام المرتد .. مع المغفلين .. يلهيهم بإلقاء المواعظ، وأحاديث الحيض والنفاس .

أحس أن هناك إصراراً ، على إطلاق تهمة الردّة ، وتكفير الأشخاص، والهيئات .. ووجد في داخله شعوراً ، بأن هذا أمرٌ مرفوض ، يجب أن يُرَدّ عليه، ويُنَاقَشْ .. حتى لو كانت الأجواء مشحونة ، وتنطوي على مخاطر:

- أعتقد أن التكفير قضية خطيرة .. لا يمكن الجزم بها بسهولة..
- ما هذا الورع البارد .. يا فضيلة الشيخ .. ؟

شعر بمرارة السخرية ، واللغة العدوانية الفَوْقيّة ، التي ينطوي عليها الرد ، لكنه قرر مواصلة النقاش :

- الذي أفهمه ، أن التكفير له ضوابط ، وأن الحكم على إنسان، أو جهة، بالكفر .. يترتب عليه أمور أخرى .. مثل..
- بالتأكيد .. يترتب عليه البراءة ، من نظام يوالي الكفرة والملحدين، ويحارب أولياء الله ..
- في الأمر مبالغة .. أو سوء فهم ..!

- سوء فهم ..؟ ماذا تقول عن نظام يوالي رأس الكفر .. أمريكا، التي تحارب الإسلام في كل مكان ..؟
- هذا تبسيط لمسائل سياسية معقدة .. وأنا لا أفهم كثيراً في السياسة..!
- شَبّعَكَ الطاغوت ، بفكرة فصل الدين عن السياسة ..؟ هذا النظام الذي تدافع عنه .. هو من يحمي دعاة الضلال ، من الحداثيين والعلمانيين، وهو من يدعم الصحافة الكافرة ، التي تحارب شرع الله ، وتروج للفساد .. كخضراء الدمن ، وملأ المقربون منه الفضاء، بالفضائيات الداعرة الفاجرة.
- ما علاقة الدولة، بفعل أشخاص، ليسوا موظفين لديها..؟!
- إما أنك غبي .. أو تتغابى ..! أليس هؤلاء الأشخاص ، منه.. وفيه؟! أليس هو النظام ، الذي .. يضيّق على الدعاة وأولياء الله، ويقرّب الملاحدة، الذي يقول أحدهم : " الله.. والشيطان، وجهان لعملة واحدة " ..؟!!
- لا أعلم .. عن أي شيء تتحدث ..!
- لا تعلم .. ؟!! انظر إلى إعلام حكومتك الخبيث .. كيف أطلق هؤلاء الإعلاميين والكتاب المنحرفين .. المرتدين ، مثل الكلاب المسعورة ، ينهشون في في جسد الإسلام ، وفي كل مظهر من مظاهر الدين ، بحماية النظام نفسه . المناهج المراكز الصيفية .. حتى خطب الجمعة لم تسلم منهم .

وجد نفسه في مأزق حقيقي ، حين انبرى له أكثر من واحد . بعضهم يضرب له أمثلة ، وآخر يتحدث عن جهله ، و سذاجته.. وثالث يشكك في نواياه . أحس أنه أخطأ .. إذ دخل في جدال ، لا

يحسن الخوض فيه .. ولا الخروج منه . هو في قرارة نفسه ، لا يؤمن بالنتائج ، التي توصلوا إليها ، عبر مقدمات ، ومعطيات .. تبدو في ظاهرها صحيحة . كان سهلاً ، بناء حجة ، تقوم على الاستدلال بمواقف أمريكا ، من قضايا المسلمين ، لإدانة كل علاقة معها . لكنه .. كان صعباً، تعميم (براهين) تلك الحجة .. وصعباً في الوقت نفسه دحضها منطقياً . يشعر أن اقتناعه بخطأ النتائج، التي توصلوا إليها ، لا يلغي حقيقة ، أن إيمانهم بها تعزّز .. بصمته ، وعدم قدرته على الرد .

شعر كذلك ، أن عجزه عن الرد.. وما جعل موقفه ضعيفاً، لم يكن مردّه قوة حجتهم ، بل الأمثلة التي ساقوها ، حول مواقف بعض الأشخاص ، من المحسوبين على السلطة، ممن يسمونهم الحداثيين والعلمانيين. هؤلاء الأشخاص ، يُنْظَر إليهم ، على أنهم محاربون للقيم الإسلامية ، بكتاباتهم ومواقفهم ، ويعبرون بصراحة ، عن عدائهم للفكرة الاسلامية .. وفي الوقت نفسه ، بعيدون عن أي نوع من المساءلة، ويتمتعون بحماية السلطة .

نظر إلى أبي طلحة ، الذي كان يتابع بصمت ، الحوار الجاري.. كأنما يستنجد به ، ليخلصه من الحرج الذي هو فيه .. فتدخل أبوطلحة معلقاً :

– لا أعتقد أن رأي أحمد ، يختلف عن آرائكم كثيراً .. إلا أنه قد تكون له بعض التحفظات، التي تفرضها ظروف معينة.

ثم التفت إلى أحمد .. وقال ، وهو ينظر إليه .. وينهض ، ليعطيه فرصة الخروج ، من الحرج ، الذي أوقعه النقاش فيه :

– أمامنا سفر طويل غداً .. وعلينا أن نستعد له من الآن ..

تبعه أحمد إلى الغرفة .. وحين ابتعدا عن المجموعة ، قال .. بلهجة لا تخلو من عتاب ، واعتراض على التبرير الذي قدمه ، لمخالفته إيّاهم :

- اجتــمعوا علي .. ما أسهل التكفير عندهم ، أُقْسِمُ أنه لا يوجد بينهم، من هو مُـلِمّ بعلوم الدين . ما رأيك باستنتاجاتهم، وأحكامهم؟
- أنت ما رأيك ..؟ أنا عوّدت نفسي ألاّ أراهن على حصان خاسر..!
- لم أفهم ..!
- عبد المطلب قال لأبرهة : " أنا رب الإبل .. وللبيت ربّ يحميه".

أنهى عبارته ، ثم أشار إلى فراش في إحدى زوايا الغرفة .. وقال :

- هذا فراشك .. إن أردت الراحة ..!

فهم أحمد ، أن أبا طلحة لا يرغب الاستمرار في النقاش ، وأن رأيه ، لا يختــلف كثيراً ، عن أولئك الذين ناقشوه ، إلا أنه لا يتَبَنّاه علناً .. لأسباب لا يعلمها .

انشغلا بقية النهار ، بالاستماع لأشخاص قدموا من جبهات القتال، وتحاشى هو الدخول في نقاشات ، من نوع تلك التي جرت أول النهار. ناما تلك الليلة ، وفي الصباح .. بعد صلاة الفجر ، سارا باتجاه الطرف الشمالي للمدينة ، حيث منطقة مخيمات اللاجئين الأفغان . حينما وصلا، كانت هناك مدينة أخرى . خيام من كل لون وصنف ، وأعشاش صفيح .. على مد

البصر . لاحظ استغرابه .. فقال :

- هذه مدينة ثانية .. بجانب بيشاور ، هنا يتناثر أكثر من مليوني لاجيء أفغاني .

الشمس لم تشرق بعد . كانت هناك حركة محدودة لرجال .. يبدو أنهم قد فرغوا لتوهم من الصلاة ، وقفلوا عائدين لمساكنهم. في عبارة.. أراد من خلالها أن يوحي إليه ، بصلابة الأفغان ، وقدرتهم على التكيف، مع أوضاع المخيمات البائسة .. قال :

- بعد ساعة ، سيكون الوضع مختلفاً تماماً هنا . كل شيء له روح.. سيتحرك . أي شيء يخطر على بالك .. أو لا يخطر، يباع في هذا المكان..!

انحرفا داخل المخيم ، إلى ساحة كبيرة ، وقف فيها عدد من الشاحنات الصغيرة المـــزركشة ، بألوان ورسومات مختلفة . أشار إلى سيارة في ناحية من الساحة ، وقال :

- هذه ذاهبة إلى جاجي ..!

- كيف عرفت ..؟

- الرجل الذي ينادي عندها .. يقول ذلك .

لاحظ أن (أبو طلحة) ، ليس فقط ، يفهم لغة الأفغان البشتون، بل يجيدها . رآه يتحدث بطلاقة مع سائق الحافلة . بعد حوار قصير بينهما، كان خلاله يُرَبِّتَ على كتفه .. وتخللته ابتسامات متبادلة ، أخذه السائق بدوره .. بالأحضان ، وامتنع أن يأخذ مالاً، مقابل نقلهما لجاجي ، رغم إصرار أبو طلحة .. سأله:

- ما الأمر .. ماذا يدور بينكما ؟

- يرفض أن يأخذ أجرة توصيلنا لجاجي ..

- لماذا ..؟

- عرف أننا عرب ..!
- يحبون العرب ..؟
- ليس كلهم.. كما أن الأمر قد تغير، بعد الغزو الأمريكي.. إثر رفض حكومة طالبان تسليم أسامة بن لادن، وزعماء القاعدة .
- ما علاقة هذا .. بموقفهم من العرب ؟
- أعمال القتل والتدمير ، التي يمارسها الطيران الأمريكي ، ضد القرى والمدن الأفغانية .. فسرت أنها بسبب العرب .

يعتقد أبو طلحة كذلك ، أن هنـــاك دعاية مضادة للمجاهدين العرب ، تقوم بها أمــريكا والعملاء .. على حد قوله ، ويرى أن الحرب كانت ستقوم، وأن الغزو سيقع ، أياً كان رد طالبان ، على المطالب الأمريكية :

- المطلوب رأس الإسلام ، وليس رأس ابن لادن ..!

لم يكن صعباً عليه ، أن يثبت وجهة نظره هذه ، بل كان مستعداً لذلك. راح يستعرض موقف الغرب من الإسلام ، ابتداء من الحروب الصليبية ، مروراً بحملات الاستعمار .. إلى الوقت الحاضر :

- ضاقوا بمنديل تضعه طفلة على رأسها .. يسمى حجاباً، ولم يضيقوا بعمامة سيخي أو هندوسي . سلخوا من أندونيسيا، جزءاً من أراضيها ، وأقاموا عليه كياناً نصرانياً ، وأنكروا على ألبان كوسوفو، حقهم في تقرير المصير .

قسمات وجهه .. كانت تتبدل ، بحسب الحدث الذي يرويه.. كذلك لغة عينية . يتذكر عندما احمرّ وجهه ، واتسعت عيناه، حين كان يتحدث، عن كيف سار الجنرال الفرنسي (غورو) ،

إلى قبر صلاح الدين ، ووطئه بقدمه ، يوم دخل دمشق .. وقال : " الآن انتهت الحروب الصليبية " . بكى بألم ، حينما تحدث عن المذابح الوحشية ، التي جرت للمسلمين في البوسنة والهرسك ، على أيدي الصرب المسيحيين ، تحت سمع وبصر أوروبا .. وأشتد به الغيظ ، وهو يعدد قرارات مجلس الأمن ، التي رفضتها أمريكا ، ضد اعتداءات اسرائيل على الفلسطينين.. رغم رفضه للمجلس وما يمثله ، ووصفه له بـ (مجلس الاحتكام لحكم الطواغيت) ..!

كان حديثاً طويلاً مفصلاً ، استغرق الساعات الأربع ، التي قطعتها السيارة ، في طريق جبلية وعرة ، حتى وصلت إلى جاجي .. ختمه بعبارة، اشتد غضبه فيها ، بعد أن تجادل معه، في مسؤولية أسامة بن لادن ، عن تصاعد الأحداث ، بسبب استعدائه أمريكا:

- رئيس زعيمة دول الكفر .. بوش ، قالها صريحة : إنها حرب صليبية.. بعد ساعات ، من تفجير أبراج مركز التجارة العالمي ، حتى قبل أن يتأكدوا من الفاعل .. وبعض الخونة ، من زعماء المسلمين وكتّابهم ، يلتمس له العذر ، ويقول أنها زلة لسان .. إنه لا يقصد . ساذج من يعتقد أن ما يحصل من غزو وتجييش للجيوش ، مجرد رد فعل على عملية نيويورك.. أو الأحداث التي سبقتها .

- ٦ -

حين وصلا جاجي ، ذكر أبو طلحة ، أنهم سيتوجهون إلى (المأسدة) .

- ما هي .. المأسدة ؟

- أول معسكر للمجاهدين العرب ، يقام في أفغانستان ، وقد أسسه الدكتور عبد الله عزام .. ليصبح فيما بعد ، محضناً للمجاهدين في أفغانستان .

أخبره أبو طلحة ، أن المعسكر تحول بعد ذلك ، حسب رواية كثيرين.. إلى نواة لمعسكر (القاعدة) ، الذي حمل لاحقاً، اسم التنظيم المعروف ، الذي يقوده أسامة بن لادن.

نزلا من السيارة ، واستأجرا بغلين .. حملاهما ، عبر دروب جبلية صعبة وشاقة ، إلى منطقة وعرة وحصينة . في أعالي الجبال .. هبطت بهم البغال في منطقة منبسطة ، تحيط بها الكهوف ، وتطوقها خنادق ومتاريس، شديدة التحصين . كانت أمارات التعجب بادية على وجه أحمد، وهو يقلب ناظريه في هذا المكان الغريب . لاحظ أبو طلحة علامات الدهشة على وجهه .. فأراد أن يشبع فضوله :

- هذه هي المأسدة .. من هنا تخرج الرعيل الأول من المجاهدين.. (أسود) الشيخ الشهيد عبد الله عزام ، الذين صنعوا الأعاجيب في الروس.

الاستقبال الذي لقيه أبو طلحة ، يشير إلى المكانة ، والثقة

التي يتمتع بها ، لدى الأفراد الموجودين في المعسكر . أخبرهم بطبيعة المهمة، التي جاء من أجلها . كان واضحاً أن الجميع ، يعرفون أبا القعقاع ، لذلك جاءت الإجابة سريعة ، من أحدهم:

- كان ضمن مجموعة ، استطاعت التسلل إلى داخل قندوز، لكن التفصيل عند فضل الله شفيق ، وهو موجود في خوست، يتلقى علاجاً.. منذ يومين .

يضيف آخر من الحاضرين :

- أبو البراء اليماني هنا .. وقد وصل البارحة ، سمعت أن لديه معلومات.. كذلك .

أرادا مقابلة أبا البراء ، والسماع منه ، إلا أنهما أُخْبِراَ أنه نائم . حين تشاورا ، حول ما يجب فعله ، اقترح مسؤول المعسكر، أن يمكثا إلى وقت صلاة الظهر .. الذي بات قريباً ، ثم يتناولا طعام الغداء . حينها .. سيكون أبو البراء اليماني ، قد استيقظ للصلاة والغداء ، فيتمكنان من الاستماع إليه .

على الغداء، تحدث أبو البراء، عن آخر مرّة، رأى فيها عبدالله (أبو القعقاع) .. وكيف افترق عنه :

- كنا في الطريق إلى قندوز ، وكان أبو القعقاع ، ضمن قافلة صحية، برفقة اثنين من أصحابه ، كما عرفت منه.. وقد التحقت أنا بالقافلة ، لدى مرورها بجلال أباد . في المرحلة الأخيرة من الطريق ، تعرضت القافلة لغارة ، من طائرات أمريكية ، وقتل ثلاثة أشخاص .. من بينهم أحد رفاق أبي القعقاع . كانت الخسائر المادية كبيرة .. كذلك ، فقرر رئيس القافلة ، العودة إلى جلال أباد .. لأنه لم يعد هناك معنى لمواصلة الرحلة ، بعد تلف أغلب حمولته من المستلزمات الطبية ، وللمحافظة على سلامة الفريق، الذي معه ..

كما يقول .
ابـو القعقاع وأنا ، ومجموعة مجاهدين ، من بينهم عدد من الإخوة الباكستانيين ، قررنا الانفصال عن القافلة الطبية، والتوجه إلى كُنَر ، معقل جماعة الشيخ جميل الرحمن السلفية.
لم تــكن كُنَر بعيدة.. مسيرة يومين على البغال والحمير.. تقريباً . كان معنا أخ أفغاني ، يعرف الطريق جيداً ، وسلك بنا طريقاً مختصراً.. لكنه وعر قليلاً ، مما أرهق الحيوانات، فصرنا نتبادل ركوبها .. عندما نضطر أن نريح بعضها . في الطريق إلى كنر ، التقينا بمجموعة من مجاهدي جماعة الشيخ جميل الرحمن، رحمه الله، وأخــبرونا أن الطائرات الأمريكية تحوم، في المــناطق المكشوفة .. لاقتناص المجاهدين، من الشــباب، وأفراد حركة طالبان ، الذين كانوا ينسحبون.. باتجاه كنر، أوقندوز ، بعد سقوط مدن الشــمال : طالقان ، وسمنجان، وبول خمري ، وباميان .

البقاء في أماكننا ، لم يكن عملياً ، لقلة المؤن التي معنا .. إضافةً إلى خطورة تعرضنا للانكشاف من قبل الأعداء . تداولنا الأمر فيما بيننا، وقررنا الانقــسام إلى مجموعتين، ومحاولة دخول قندوز ، لمساعدة إخواننا المحاصرين. كنت مع المجموعة، التي على رأسها القائد كريم الله، من جماعة الشيخ جميل الرحمن المجموعة الأخرى قادها أبو قتيبة المدني، وهي مجموعة أصغر من مجموعتنا .. كانت خليطاً من العرب، والباكستانيين والأفغان، وكان أبو القعقاع من ضمنهم، وهو الوحيد من بلاد الحرمين ، بالإضافة إلى أبي

قتيبة المدني .. حيث أن صاحبه الآخـــر، الذي جاء معه من بلده ، قتل في انفجار لغم ، ونحن في الطريق .
نجحت مجموعة أبو قتيبة المدني في دخول قندوز ، أما مجموعتنا ، فقد اضطرت للتراجع والانسحاب ، بعد أن تعرضت لكمين من عناصر طاجيكية ، تابعة لزعيم قبلي ، تم تجنيده من قبل المخابرات الأمريكية ، بواسطة الجــنرال محمد فهيم، القائد في حزب شورى نظار ، التابع لأحمد شاه مسعود. انقــطعت الأخبار بيننا وبين باقي الإخوة .. لكنّا سمعنا فيما بعد، أخباراً سيئة، لّما تم تسليم قندوز لقوات دوستم . بعض المجاهدين قتل، وبعضهم وقع في الأسر .

لم تزد هذه الأخبار أحمد ، إلا إحباطاً . أحس باليأس .. يتسلل إلى قلبه. اثنان من رفاق عبد الله ، اللذان سارا معه باتجاه قندوز .. قتلا ، ومصيره هو .. مازال مجهولاً . كان يصغي باهتمام ، وأبو البراء اليماني يتحدث. لم تكن عبارة : " نجحت مجموعة أبو قتيبة المدني في دخول قندوز "، التي وردت في سياق الكلام .. لتمثل له أملاً ، أو (نجاحاً) ، من أي نوع. كانت مرحلة أخرى من رحلة نحو مجهول .. مفجع ربما . السلامة فيها .. ليست مضمونة ، ما دام القتل يمكن أن يكون بغارة طائرة ، أو بلغم .. أو كمين لمجموعة معادية .

كــان مطرقاً .. غــافلاً عن الأحاديث ، التي صــارت تدور حوله ، بعد أن انتهى أبو البراء من حديثه .. حين التفت إليه أبو طلحة ، وقال :

- سنذهب إلى خوست ، لنقابل فضل الله شفيق .

في خوست .. كانت هناك وحدة اسعافية ، تابعة لجمعية الهلال الأحمر السعودي ، أُخبِراَ أنها تتولى تقديم رعاية صحية أولية ، لعدد من المصابين . وأن فضل الله شفيق من بينهم .. حسب قوائم لديهم . اتصل بقائد ميداني أفغاني في خوست، كان يحمل له رسالة ، من الإخوة في جاجي، لِيَسَهّل مهمته ، ويدله على فضل الله . التقى بفضل الله ، داخل خيمة لجمعية الهلال الأحمر ، برفقة القائد الأفغاني ، الذي عَرّفهم عليه، وعرّفه بمهمتهم .

فضل الله شاب أفغاني، من أب بشتوني وأم طاجيكية ، كان في الأساس، عضواً في حزب الجمعية الاسلامية ، التي يتزعمها برهان الدين ربّاني ، ثم انضم فيما بعد ، إلى حركة طلبة المدارس الدينية ، التي عرفت سياسياً، باسم طالبان .

يتحدث فضل الله لغة عربية فصيحة ، حيث تخرج في الجامعة الإسلامية ، في مدينة لاهور . تبدو على وجهه أثار كدمات ، كما أن شعر لحيته ، بعضه أطول من بعض ، وأجزاء منها قد اختفت .. ذكر أنها تعرضت للنتف ، أثناء عملية الأسر. عيناه غائرتان، ليس فقط .. بسبب هزال ، أفقده جزءاً من وزنه، لكن من أثر صدمة نفسية ، تتضح أعراضها أكثر، من ثقل في لسانه، وفي طريقة كلامه ، حينما يحاول أن يتحدث ، أو يستذكر بعض الأحداث التي مرّ بها .

المُلاّ عبد السلام مهيمن، القائد الأفغاني ، أخبره أَنّ أباطلحة، قدم من بيشاور برفقة أحد أقاربه ، للبحث عن مجاهد عربي اسمه أبو القعقاع، وأضاف :

- تردد أنــك تعرف عن مصيره شيئاً، أو أنك قابلته، أو رأيته في قندوز يا فضل الله .

دمعت عينا فضل الله ، وقال .. وهو يمسح دموعه ، بطرف كُمه :

- أعـرفه .. أعرف أبا القعقاع ، كنت في قندوز قبل الحصار، ضمن كتيبة ، ترابط في المدينة . ثم .. بعد سقوط جبهة الشمال ، ولجوء المجاهدين إلى قندوز .. وحصارها، أعيد تنظيمنا . صرنا أنا وإيّاه ، في سرية واحدة للدفاع عن المدينة .. تحت قـيادة أبي سلمان الفارسي.. مجاهد من ارض الجزيرة . لم نفترق إلا بعد أن وقعنا في الأسـر، بعد تسليم قندوز .. ثم فرزنا، من قبل عملاء الاستخبارات الأمريكيين .. وجنـود ميليشيا التحالف الشـمالي.. ونقلنا إلى جهتين مختلفين .

سـأل أبو طلحة عن ملابسات الأسر ، وعملية الفرز ، التي ذكرها.. كيف تمت ، ومتى وقع الافتراق بينهما . كان فضل الله ، يحاول أن يجمع شتات أفكاره ، ويغالب آلام جراحه .. ويدافع حزناً يشعر به.. مثل سكاكين تمزق أحشاءه :

- دعني أبدأ لك القصة .. من الأول ، كما سمعتها من بعض المجاهدين، بعد وصولهم قندوز . حين سقطت طالقان ، حاول الأعداء محاصرة الشباب في منطقة (خوجة غار) ، فجاء الأمر بالانسحاب إلى قندوز ، وكان ذلك، كما يقول المجاهدون ، يوم ٢٥شعبان١٤٢٢هـ . تحرك الشباب ، مغرب ذلك اليوم .. بعضهم في السيارات ، وبعضهم سيراً على الأقدام. بدأت المسيرة.. وأضطر أكثر الشباب خلالها،

للانحياز إلى الجبال.. لاتقاء طائرات العدو وآلياته ، التي تحوم في المكان . بعض الشباب تدحرج، بسبب شدة ارتفاع المنحدرات ، ومنهم من ألقى سـلاحة ، وأكثر ما في جعبته من متاع، ليتخفف ويستطيع مواصلة السير، في منطقة صعبة التضاريس .. وفي ظل أجواء من البرد الشديد. على أصوات الدبابات ، التي كانت تسمع .. قريباً منهم، والطائرات التي كانت تحلق من فوقهم ، ساروا باتجاه قندوز.. فوصل بعضهم بعد يوم ونصف ، وقسم آخر ضَلّ الطريق ، ولم يصلوا إلا بعد ثلاثة أيام ، بسبب وعورة الطريق، وحصول اشتباكات ، بينهم وبين عناصر من ميليشيا التحالف الشمالي .

كانت مسيرة صعبة ، أكل الشباب خلالها العشب والطين، من شدة الجوع واستبد بهم العطش ، حتى أنهم وجدوا في طريقهم، بعض السيارات القديمة المتعطلة ، فقطعوا أنابيب (الرديتر)، ليشربوا ما بقى فيها من ماء .. إلى أن جاءهم الفرج، وأستطاع اخوانهم ، أن يتعرفوا على موقعهم.. ويعيدوهم . حين وصلوا، تسللوا إلى قـندوز ، التي كانت محاصرة من إحدى جهاتها، بميليشيا (جلام جم) ، وهو تحالف بين ميليشيا دوستم والهزارة الشـيعة .. ومن الجهة الأخرى ، كانت تحاصرها ميليشيا مسعود (شورى نظار). كان الأمريكان أثناء ذلك ، يقصفون بالطائرات ، البيوت والأسواق ، وأماكن تجمع الناس في المدينة ، لكي يجبروهم على إخراج المجاهدين .. العرب منهم على وجه الخصوص. الطائرات كانت كذلك ، تلقي أوراقاً ومنشورات، تحمل

صوراً لأسامة بن لادن ، وبعض العرب، مكتوب فيها بلغة البـــشتون : " نحن الأمـــريكان، لا نريدكم أيها الأفـــغان، نحن فقــط .. نريد العرب ، فإذا أخرجتم العرب ، فأنتم أصدقاؤنا " .

في اليوم السادس، من القصف الشديد للمدينة ، احتار الطلبة والمجاهدون ، ماذا يفعلون .. لأن الحصار يطبق على المدينة من جهتين. بعد مداولات مضنية ، اضطروا لعقد اتفاق مع دوستم، بواسطة قائد بشتوني ، قد كان مع طالبان، ثم تركهم ، وذهب عند دوستم .. وكان يظهر تعاطفه للطلبة. تعاقدوا مع دوستم، على أن يمر الطلبة من قندوز إلى مزار الشريف ، التي كان دوستم ، قد سيطر عليها .. ومن هـناك يتوجهون إلى مدينة هرات ، التي كانت ما تزال مع الطلبة ، ولم تسقط . وافق دوستم بشروط منها : أن يترك عناصر طالبان مدينة قندوز لدوستم، ولا يسلموها لأفراد مسعود، وأيضاً أن يمر فقط ، الأفغان والباكستانيين والأوزبك ، أما العرب فلا .. فقال الطلبة: ليس عندنا أي عربي . فأظهر دوستم موافقته .

- ٧ -

تدارس المجاهدون شروط دوستم ، فاتفقوا على وضـع خطة يخفون فيها عن ميليشيا دوستم، أمر المجاهدين العرب ، الذين معهم . كانت الخطة تقتضي أن يمر العرب مع أول دفعة ، لإبعاد الشبهة ، وأن يغيروا من أشكالهم وملابسهم ، ويتشبهوا بالأفغان، قدر ما يستطيعون .. لزيادة التمويه . لبس المجاهدون العرب ملابس وعمائم .. الأفغان ، وحلقوا رؤوسهم ، واندسوا بينهم .

أبو طلحة شعر ، كأنما كان هناك تعجلاً ، فقاطع فضل الله.. متسائلاً :

- يبدو أن التفاوض تم بسرعة .. لكن هل نجحت الخطة..؟
- لا .. الأمر ليس كذلك ، فبعد القصف الأمريكي الشديد، وازدياد عدد الضحايا بين المدنيين ، إضافة إلى الحصار المحكم لقندوز ، أجبر مقاتلو حـركة طالبان على التفاوض، لتسليم المدينة لميليشيا دوستم . لم يكن أمامهم خيار آخر، رغم أنه كانت هناك معارضة من المجاهدين العرب، ومجاهدين آخرين ، حيث شَكّوا .. بأن الأمر ينطوي على غدر وخيانة . لكن .. تم التوصل في النهاية إلى اتفاق ، بعد ثلاثة أيام من المفاوضات الطويلة والمضنية .. بإشراف أمريكي .
- ماذا كانت طبيعة الاتفاق ..؟
- يقضي الاتفاق.. كما قيل ، بعودة المقاتلين الأفغان إلى

بيوتهم وقراهم، وعودة الباكستانيين إلى بلدهم ، بعد فرزهم من قبل الأمريكيين، واعتقال المشـتبه به منهم ، بانتمائه إلى منظمة القاعدة .. وتسليم المقاتلين العرب والأجانب، إلى الأمم المتحدة .. لكنهم لم يلتزموا بالاتفاق، ووقع الذي خافه، وحذر منه المجاهدون العرب .

- ماذا تقصد ؟

- عدد كبير من المقاتلين ، العرب ، والباكستانيين ، والأوزبك.. المتهمين بالانتماء إلى القاعدة ، ويقدرون بـ ٨٠٠ مقاتل ، اجبروا على التخلي عن أسلحتهم ، ثم اقتيدوا .. اسـتعداداً لنقلهم إلى سجن ، في مزار شريف. قرابة ٣٠٠٠ أسيراً آخر ، كنت من ضمنهم ، أغلبهم أفغان ، ومن بينهم عرب، وباكستانيون، وشيشان ، وأوزبك ، وطاجيك ، قيّدت سواعدهم إلى الخلف ، وعصبت أعينهم ، ووضعوا في حاويات ضخمة، لسيارات شحن .. تمهيداً لنقلهم ، حسبما ذكـر ، إلى سجن شبرقان . كان هناك من قاوم من بيننا ، واحتجوا على الغدر ، ونقض العهد والاتفاق . الذين قاوموا حُملوُا من أيديهم وأرجلهم ، ورموا على وجوههم داخل الحاويات . كل حاوية وضع فيها ما بين ٢٠٠-٣٠٠ شخص تقريباً . وقتها فقط ، عرفنا أنه قد غدر بنا ، وأننا لن نذهب إلى بيوتنا وأهلنا ، كما كان اتفاقنا معهم، قبل إلقاء السلاح ، وتسليم المدينة .. وربما أدرك بعضنا ، أنه سيموت بطريقة مبتكرة ، طريقة رخيصة ، للقتل الجماعي البطيء .. الموت خنقاً في الحاويات .

في هذه اللحظة ، اختنق صوت فضل الله بالبكاء ، وامتلأ

صدره بحشرجة ، لها فحيح ، لم يسكته إلا انفجاره ، بنوبة نحيب، صار ينتفض لها كل جسمه . خيم صمت له مرارة الغدر على الحاضرين .. وكان ثمة دمع سخين ، واقف على أطراف المحاجر . قطع الصمت ، صوت القائد الملا عبد السلام .. يقول، وهو يربت على كتف فضل الله :

- أكمل بارك الله فيك ..

- بعد ساعات من حشر الأسرى في الحاويات ، بدأوا يصيحون، ويضربون بعنف ، جوانب الحاويات ، المغلقة والمكتظة. كانوا يصرخون : " نحن نموت ، أعطونا ماء ، نحن بشر ولسنا حيوانات " .

كان فضل الله يغالب ألماً عميقاً .. ويتحدث بصوت يخنقه النشيج ، ويقطّعه البكاء المر ، ويهتز جسده ، مثل غصن شجرة غض ، تعصف به ريح :

- بعد مضي ١٢ساعة من بقاء الأسرى بلا ماء ، استبد بهم العطش، فبدأ كل واحد منهم ، يلعق عرق جسد الآخر . من الأسرى من فقد رشده، وبدأ يعض ، ويمضغ جلد من حوله . في حاوية أخرى .. يذكر لي أخ كتب الله له النجاة ، أنه بعد ثمان ساعات تقريباً ، بدأ الأسرى يستغيثون طلباً للماء والهواء ، ولما لم يجب أحد ، بدأ بعضهم في استخدام عمامته لاعتصار العرق وشربه .. وبعد مرور بضع ساعات أخرى ، بدت مظاهر الجنون على كثير من الأسرى ، وشرع كل منهم ، يعض أصابع الآخر، الذي حوله .. وذراعيه وساقيه . اقتربت رحلة الموت ، التي استغرقت ٢٤ساعة، من سجن شبرقان .. حينها ، كان الهدوء المخيف ، وصمت الجنائز.. يخيم على القافلة برمتها . إحدى الحاويات التي

كانت تضم نحو ٢٠٠ أسير ، لم ينج منها أحـد ، كما أخـبرني سائقها : (لقد فتحوا الأبواب ، فاندلقت الجثث مثل السمك ، ملابسهم كلها .. كانت ممزقة ومبللة) .

شعر أحمد بغثـيان ، واشمئزاز غير عادي .. مصحوباً بوجع ، يحس به يجثم على صدره . لم يستطع أن يتخيل أن يكون شقيقه عبد الله ، ضمن هؤلاء المساكين .. فقاطع فضل الله :

– أرجـوك هذا يكفي ..

تدخل الملا عبد السلام مقاطعاً :

– دعه يكمل .. هذا مهم للجميع .

استأنف فضل الله :

– في حـاوية أخرى ، يقول أحد الناجين ، أن الأسرى كانوا يتوسلون ، طلباً للرحمة ، فأطلق أحد الجنود النار على الحاوية، من أجل التهوية .. كما زعم ، فتدفق الدم من خلال الثقوب ، التي أحدثها الرصاص، وقتل عدداً من الرجال داخلها . إنسانية هذا الجندي .. التي تظاهر بها، كانت تخفي وراءها وحشية هائلة . أكثر الرصاصات ، كانت في وسط الحاوية وأسفلها، لا في أعلاها ، ما يعني أن الهدف لم يكن التهوية .. بل القتل.

لقـد تُركَ الأسرى ، في بعض الحاويات .. كما علمنا من بعض الشهود، ليوم آخر ، بعد وصول القافلة ، ليموتوا من الاختـناق، والجوع ، والعطش. عندما فتحت الحاويات في النهاية ، لم يكن هناك ، سـوى خليط من البول، والدم ، والغائط ، والقيء، واللحم المتعفن . حدثني بعض رجال شبرقان ، أن الجنود الأمريكيين .. الذين حضروا المشهد،

وأشرفوا على العملية ، طلبوا من أهل شبرقان ، محو الآثـار، ونقل الجثث خارج المدينة، إلى دشت ليل .. ودفنها، قبل أن ينتشر خبرها .

بالرغم مـــن صعوبة الإفلات ، من طريقة القتل بالحاوية، فقد نجا عدد من الأسرى، يقدرون بالعشرات ، كنت أحدهم.. وكـــان لابد من طريقة أجدى وأســرع ، للقضاء على الباقين. تــم نقلنا ، بإشــراف القــوات الأمــريكية الخـــاصة، إلى منـطقة (دشــت ليل) ، قريباً من شبرقان، وكنا مثقلين بالجراح، وأغلبنا فَاقِدٌ للـوعي .. وهناك أطلق الجنود علينا وابلاً من الرصاص .

ضمت دشت ليل ، جثــث ما يقرب من ٣٠٠٠ من الأسرى، هم مجموعٍ قتلى الحاويات ، ومن نجا منها .. ثم أجهز عليه لاحقاً . الذي قدر له أن يعيش مثلي .. وهم قلة ، أخذت الشفقة عليهم، بعض أهالي شبرقان ، ممن طلبت منهم القوات الأمريكية دفن الجثث ، لإزالة أثار الجريمة.. فأخفــوا عن الأمريكان ، وحلفائهم من جنود التحالف ، حقيقة أن بعضنا لم يمت ، وأن إصاباتنا لم تكن قاتلة ، وتم تهريبنا إلى مكان أكثر أمناً ، أثناء الليل .

سـائق إحدى الشاحنات .. تعرفت عليه ، أثناء نقل الأهـالي لنا، من مكان المذبحة ، وهو من نفس البلدة ، التي أنا منها ، يقول أن ٣٠ إلى ٤٠ من أفراد القــوات الخاصة الأمريكية، شهدوا عملية النقل، والإعدام الجماعي للأسرى.. وشاركوا فيها . كما نقل السائق نفسه ، عن جندي أفغاني .. من أقاربه، قوله .. أنه رأى جندياً أمريكياً ، يكـسـر رقبة أحد

الأسرى ، ووقف على أمريكي آخر ، يقذف الأسيد في وجوه آخرين. أحد جنرالات التحالف .. يقول الجندي ، أنه سمعه ، يتحدث لزميله بصدمة، عن معاملة الأمريكيين للأسرى :(لقد كنت شاهداً .. رأيتهم يطعنون سيقانهم، ويقطعون ألسنتهم ، وينزعون شعورهم ولحاهم. كان يبدو أحياناً ، أنهم يفعلون ذلك بغرض التسلية . أحياناً يعزلون الأسير عن زملائه .. فيضربونه ، ثم يعيدونه ، وأحياناً يضرب حتى الموت .. فلا يعود ، ويختفي إلى الأبد).

الرجل الذي أخذ مني المال ، ليقوم بتهريبي من (دشت ليل)، إلى (هرات) ، التي منها وصلت إلى هنا .. وهو من ضمن من كلفوا بنقل الأسرى ، من موقع الحاويات ، إلى المقبرة الجماعية، شاهد هو الآخر ما حصل ، قال لي .. حين رأى حجم تأثري بوحشية الجريمة :

" احمد الله .. أن الكلاب لم تأت من أمريكا ".

لم أفهم قصده ، وحين استفسرت منه .. ماذا يعني ، وكنت أظن أنه يتحدث عن جنود أمريكيين ، بتدريب خاص على القتل ، قال .. إن رفيقاً له، كان من أتباع أحمد شاه مسعود ، تم تجنيده مبكراً ، ضد حكومة طالبان، تلقى مع مجموعة من الأشخاص، تدريباً استخباراتياً وقتالياً .. على أيدي الأمريكيين . يذكر .. رفيقه هذا ، أن لدى الأمريكان كلاباً مدربة، على تعذيب الأسرى وقتلهم ، بطريقة تجعل الذي رأيته في الحاويات، ودشت ليل .. رحيماً . حينما سألته .. كيف ؟ قال لي :

" يقيدون الرجال ، ثم يُجَرّدونهم من ملابسهم ، ويجعلون

الكلاب تنهشهم ، وتقضم أعضاءهم التناسلية " .

عند هذه اللحظة ، كان فضل الله ، قد امتلأ شجناً، وفاض حزناً ، وبلغ من الشحن العاطفي حداً، طغى فيه الوجع، على ما سواه .. مما جعله غير قادر .. إلا على النحيب الصامت. كان جسده يرتعش ، وعيناه تسيلان .. وثمة صوت يخرج من صدره، أشبه بعويل ، ينبعث من قرار سحيق .

سيطر على الحضور وجوم ، وخيم عليهم صمت وهدوء ، بعد توقف فضل الله عن الكلام .. له حرارة الجحيم ، لم يكدره إلا بكاؤه المتقطع المخنوق ، وأزيز في صدره يتصاعد، يهدر مثل بركان يمور من الداخل .. تصطرع فيه الحمم والصهير ، غَيرُ قادر على النفاذ والتعبير. الملاّ عبدالسلام ، شرع يدق بعصبية، باطن كفه اليسرى ، بقبضة يده اليمنى.. وهو مطرق . عيناه لم تبرحا موضع سجوده . أبو طلحة غرز في الأرض .. بعنف ، سكيناً كان يقلبها في يده ، أثناء الحديث.

- ٨ -

نهض أحمد إلى خارج الخيمة ، يجاهد .. ليكبت دمعاً حاراً .. يشعر به، يكاد يحرق مآقيه ، ويغالب غثياناً ، يؤججه لهيب يشتعل في جوفه . سؤال بقي معلقاً : هل قتل عبد الله ، مع من نقلوا في الشاحنات ، أم قتل أثناء نقله إلى مزار شريف .. أم مازال مسجوناً هناك ..؟

أحس أبو طلحة ، بالذي انتاب أحمد .. فاضطره للخروج. شعر كأنما حبس عنه الهواء .. فاختنق . حديث فضل الله ، أبقى الباب مفتوحاً ، على كافة الاحتمالات . تحامل على نفسه، وانتزع نفساً ، وتوجه إليه بالسؤال :

- أين تتوقع يا فضل الله .. يكون أبو القعقاع ..؟
- هو بالتأكيد مع الذين نقلوا إلى مزار شريف ..
- في بيشاور .. سمعنا أن تمرداً وقع بين الأسرى في القلعة، وأن بعضهم قتل ، وأن آخرين تم نقلهم إلى سجن آخر..!
- سمعت مثل هذا الكلام ، لكني لا أستطيع أن أؤكده ، فلم أقابل أحداً.. عايش الأحداث بنفسه ، أو نقلها مباشرة ، عن أحد عاشها.

الشعور باليأس ، الذي دفع أحمد ليغادر المكان ، هو نفسه الذي جعل أبو طلحة يلتفت إلى الملا عبد السلام ، ويقول بمرارة :

- رواية فضل الله .. ملأتنا ألماً وإحباطاً ، وأعادتنا إلى

البداية. ربما كان أفضل ، لو لم نستمع إليها .

لم يعلق الملا عبد السلام .. أكتفى بالصمت . ظل يعبث بمسبحة في يده.. ينقلها من كف لأخرى ، ورأسه مازالت مطأطئة للأرض ، ينظر إلى مكان سجوده . في بلد يموت الناس فيه كل يوم .. بالعشرات ، منذ أكثر من عشرين سنة ، لا يمثل موت (شخص) أهمية تذكر ، بالنسبة إليه. لدى شعب عاش الحروب بأشكالها .. مع العدو الخارجي ، والخصم الداخلي .. وبين (الإخوة) المتنافسين ، يغدو الموت ممارسة عادية ، ويصبح فقد الأعزّاء .. قدراً لا مفر منه . ربما .. ليس الذي في الملا عبد السلام .. بلادة ، أو عدم إحساس ، لكنه الإلف .. لحدث ذي إيقاع يومي . لذلك.. قد تكون دهشتة ، للاهتمام بـ (حياة) شخص ، أكثر من مسألة الموت ذاتها .

استأذن أبو طلحة .. وخرج . عند باب الخيمة ، كان أحمد واقفاً .. سارح الفكر ، يتأمل في الأفق البعيد .. وقد شَبَّك ما بين أصابع كفيه . الأمل الذي راود أمه ، وتمنت أن تراه حقيقة.. واستعد هو أن يأتي به لها ، قد يكون اختنق في حاوية ، أو صهرته قذيفة .. فتبخر ، أو صار رماداً. هو في كل حال .. غدا سراباً . سخرية مريرة ، هذا الذي يحدث .. حينما التفت، ووقعت عيناه على منشور ، من تلك التي تسقطها الطائرات الأمريكية :

صورة لجندي أمريكي أشقر .. مدجج بالسلاح ، يحمل العلم الأمريكي، وتحته عبارة .. " جئنا لتحريركم .. ومنحكم حياة أفضل " .

لاحظ أحمد ، وجه أبي طلحة ، لحظة خروجه من الخيمة..

كان يحمل إجابة واحدة ، على تساؤلاته : الموت أو الأسر .. نهـــاية المطاف. لمّا اقترب .. ووقف أمامه .. قال :

- ليس أمامنا إلا أن ننتظر .. ربما نجد أحداً يعرف عنه شيئاً .

بدت العبارة لأحمد ، تطميناً فارغاً من أيّ مآل . مَضَغَ الكلمات في سرّه: " نجد أحداً يعرف عنه شيئاً " ..! هل بقي ثمّة أحد ..؟

كانا قد ابتعدا عن الخيمة منصرفين ، حين سمعا صوتاً ، كأنه الملا عبد السلام .. ينـادي . التـفتا .. كان هو ، على باب الخيمة ، يلوح بيده.. يطلب منهما العودة . حين رجعا ، قال لهما ، أنه قد سأل فضل الله ، إن كان يعرف أحداً له علاقة بأبي القعقاع ، من الأشخاص ، الذين وقعوا في الأسر، ثم نقلوا إلى مزار شريف .. ربما يكون قد نجا ، ولديه أخبار عن مصير الأسرى. ذكر أن هناك شخصاً اسمه عبد الهادي العراقي .. بالإضافة إلى قائد السرية أبو سلمان الفارسي . يقول فضل الله ، أنه رأى الاثنين مع بعض.. في حديث خاص ، أكثر من مرة، أثناء حصار قندوز ، وهما على ما يظهر، على معرفة تامة بالمجاهدين العرب ، الذين انحازوا إلى قندوز ، بعد سقوط جبهة الشمال . كما أنه فهم ، من حديث عارض لعبد الهادي، أن له معارف في كويتّا . يضيف الملا عبد السلام معلقاً .. ومقترحاً ، فيما يبدو:

- أنتما الآن لديكما اسمان .. ومدينة كويتّا ، قد تقودكما إلى أحدهما.. على الأقل ، إن كانا من الأحياء .

أطرق أبو طلحة قليلاً ، ثم رفع رأسه وشكر الملا عبد السلام،

الذي دعا لهما بالتوفيق ، قبل أن يدخل الخيمة مجدداً .
سارا صامتين .. أحمد لم يجرؤ أن يسأل أبا طـلحة ، عن الخـطوة التالية ، وهو يرى الأبواب تغلق في وجهه ، واحداً إثر الآخر. أسئلة صارت تتردد في ذهنه : أين هي كويتّا هذه ؟ هل يمكن أن يكون هذان الشخصان ، اللذان ذكرهما القائد الأفغاني .. مازالا على قيد الحياة .. وكيف يمكن الوصول إليهما ..؟ قطع أبو طلحة حبل أفكاره ، وكَأَنّ نفس التساؤلات ، تجول في خاطره:

- كويتّا بعيدة .. مدينة باكستانية في أقصى الجنوب ، على الحدود الباكستانية الأفغانية .. في منطقة قبلية ، تسودها الفوضى ، رغم الوجود الأمني الباكستاني الكثيف فيها .
- ....
- عبد الهادي .. العراقي ، اسم ليس بغريب ..

لمعت عينا أبي طلحة ، والتفت إلى أحمد . بشائر أمل ، كانت تلوح على وجهه .. وقال :

- أظنني عرفته .. لدي شك كبير ، انه هو نفسه هادي السامرائي. كنت سمعت الإخوة في بيشاور ، يتحدثون .. أنه موجود في جلال أباد .
- ماذا عن كويتّا ..؟
- ربما سوء فهم من فضل الله .

انحدرا إلى أسفل التل، باتجاه سيارة نقل صغيرة واقفة ، كانت تُقلّ عائلة، وعدداً من المسلحين. بعد مداولات قصيرة مع سائقها ، أخرج أبو طلحة نقوداً من حزام يلفه على وسطه، وناولها السائق، ثم قفزا في حوض السيارة الخلفي . انحشرا

في زاوية ، وَلَوّحا للسائق .. ايذاناً بالتحرك . انطلقت السيارة، وبعد ساعة كانا في جلال أباد. الطريق أفضل من السابق، نظراً لكثرة ما سارت عليه الآليات العسكرية، التي سوّت تضاريسه الصعبة .

في جلال أباد توجها إلى معسكر ، كانت قد أقامته جماعة عبد رب الرسول سياف ، ثم تعاقبت السيطرة عليه فصائل الجهاد ، وآل أخيراً لحركة طالبان ، بعد سيطرتها على الأوضاع. حينما وصلا، كان هناك عددٌ من المجاهدين العرب. سأل أبوطلحة عن أبي عاصم التميمي ، وهو أحد أفراد المجموعة، الذين كان معهم ، قبل أن ينقسموا في بيشاور . أبو عاصم معروف في أوساط المجاهدين بعلمه الشرعي ، وحفظه للقرآن. كثيراً ما يرجع إليه الأفغان يستفتونه ، فيما ينشأ بينهم من خلافات فقهية.. خاصة وأن لديه إلماماً بفقه المذهب الحنفي ، الذي يتبعه كثير من الأفغان، إلى جانب إحاطته بآراء المذاهب الأخرى . كانت مفاجأة لأبي عاصم، أن يرى أبا طلحة ، الذي كان قد عارض بشدة .. في البداية ، الدخول إلى أفغانستان .

لم يكن أبو عاصم ، يعرف أحمد ، شقيق (أبو القعقاع) ، حتى تحدث مع أبي طلحة ، حول سبب مجيئه . كما عرف منه ، قصة لقائهم بفضل الله ، والملا عبد السلام ، وورود اسم هادي في حديث الأول . أكد أبو عاصم ، أن هادي السامرائي ، المعروف لدى بعض المجاهدين ، باسم عبد الهادي العراقي .. موجود فعلاً .. منذ ثلاثة أيام ، وقد قدم من هرات .. لكنه لم يقابله .

هادي .. شاب ينحدر من أب ، من أصل عراقي وأم أوزبكية،

ولد ونشأ في جمهورية كازاخستان . أبوه عالم فيزياء عراقي، ابتعثته الحكومة العراقية ، إلى الاتحاد السوفيتي سابقاً ، وتحديداً إلى أكاديمية علمية في الجمهورية الكازاخية ، حينما كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي .. واستقر هناك ، وتزوج امرأة أوزبكية . انضم هادي إلى الجهاد الأفغاني مبكراً ، من خلال مكتب كان يديره الشيخ عبد الله عزام . إجادته للغات العربية ، والفارسية ، والروسية ، إضافة إلى لغة والدته الأوزبكية، جعلته يقدم خدمات استخباراتية جلىّ ، للجهاد الأفغاني .

سعادة أحمد لا توصف .. لمّا تأكد أن عبد الهادي العراقي موجود .. إلا أنه ظل متوجساً من مفاجأة ليست في الحسبان. أبوطلحة لم يبرحه القلق كذلك . لديه إحساس .. يتمنى أن يكون غير صحيح ، هو .. أن عبد الهادي العراقي ، ربما يكون شخصاً غير هادي السامرائي . لا يدري لماذا ربط بين الشخصيتين بسرعة . قد يكون الاحساس بالشفقة تجاه أحمد، جعله يسارع لإختلاق بارقة أمل ، يضيء بها خبايا نفسه ، التي أطفأت الخيبات المتتالية ، نور الأمل ، ووهج الحياة فيها .

في المساء اتجهوا إلى خيمة كبيرة ، في وسط المعسكر ، الذي يكاد يكون فارغاً . يتسع المعسكر لـ (١٨٠٠) رجل ، إلا أن عدد الموجودين فيه الآن ، لا يزيد عن (١٠٠) شخص ، أكثرهم من العرب ، وبعض الباكستانيين . يتذكر أنه قد أتى إلى هنا قبل سنوات، وكان يعج بالرجال المسلحين . وصل الخيمة ، التي أُطلِقَ عليها اسم، مضافة الشيخ تميم ، نسبة لأحد قادة الجهاد العرب .. الشيخ تميم العدناني .

في الخيمة كان هناك مجموعة من الرجال ، متحلقين حول

نار ، يلتمسون الدفء . أبو طلحة لا يعرف هادي .. ولم يسبق له أن رآه . حين اقتربوا من الرجال ، ألقوا عليهم السلام ، وعرّفوا بأنفسهم ، ثم شرعوا بالحديث ، عن المهمة التي جاءوا من أجلها:

– نود أن نقابل الأخ هادي السامرائي .. المعروف بعبد الهادي العراقي..

– ماذا تريدون منه ؟

رد أحد الرجال ، المتحلقين على النار .

– أحد الإخوة .. من بلاد الحرمين ، جاء يبحث عن شقيق له .. يعتقد أنه من ضمن المجاهدين ، الذين أسروا في قندوز، وتم اقتيادهم إلى مزار شريف..

لم يرد أحد على أبي طلحة .. فواصل كلامه :

– أخ مجاهد .. من الباكستان ، ذكر أن الأخ هادي لديه أخبار عنه ..!

اشْرَأَبَّ أحد الرجال الجالسين بعنقه ، وقال :

– وصلت إلى خير .. تفضل ..

كان الرجل يميل إلى الشقرة . عيناه المائلتان للاستدارة، تَشِيَانِ بملامح آسيوية ، رغم الملامح العربية ، الغالبة على قسمات وجهه .. والشعر الخشن ، الذي يكاد يكون سمة تميز العرب ، عن بقية الأعراق الآسيوية.

- ٩ -

أفسحوا لهما مكاناً للجلوس ، ونهض أحد الأشخاص ، وقدم لهما كأسين من الشاي ، ثم تكلم الرجل الذي دعاهما .. وقال:

- أنا هادي .. عن أي شيء تسأل ..؟

تحدث أبو طلحة ، وروى لهادي .. مجيء أحمد للبحث عن شقيقه، أبي القعقاع . ذكر قصة مقابلتهم فضل الله شفيق ، وكيف نجا من مذبحة الحاويات ، وأشار إلى حديثه عن معرفته به ، وعن معرفته بعلاقة، يقول أنها .. تربط بينه وبين أبي القعقاع ، الذي كان هو وإياه ، في كتيبة واحدة ، أثناء حصار قندوز .. على حسب ما قال . أكد هادي معرفته بفضل الله، وبأبي القعقاع ، لكنه نفى أن يكون بينه ، وبين أبا القعقاع، معرفة شخصية.. أو أنه التقى به ، قبل اللجوء إلى قندوز ، مع المجاهدين المنسحبين. استبعد كذلك ، أن يكون أبا القعقاع ، قد دخل المدينة ، ضمن المجاهدين الذين انسحبوا ، بعد سقوط مدن الشمال .. وذكر أنه قابله بعد دخول المدينة ، وإعادة توزيع القوات المنسحبة ، للدفاع عنها :

- تعرفت على أبي القعقاع في قندوز ، حينما جاء تصنيفي أنا وإيّاه ، في كتيبة واحدة ، تم تشكيلها للدفاع عن المدينة .. قبل قرار تسليمها ، الذي جاء مفاجئاً لنا . عرفت منه ، أنه وصل أفغانستان بعد حدوث الغزو الأمريكي ، وأنه قد نجح مع آخرين، بالتسلل إلى قندوز .

- هل تعتقد أن أحداً من المجاهدين ، يعرف عنه شيئاً .. ويمكن

أن يفيدنا؟

- من الذين كانوا معنا .. لا ، لا أظـن . أعرف معظم الشباب الذين كانوا في الجبهة الشمالية .. لطول مكثي هناك . مواقع لواء المجاهدين العرب ، وهم يزيدون عن ١٢٠٠مجاهد ، تمتد من ضفاف نهر جيحون ، إلى مركز مديرية خوجة غار ، وبينهم تواصل .. وعلاقتهم ببعض جيدة.

- كيف تمت عملية الانسحاب ؟

- حسب اجتهاد القائد العـسكري لشمال أفغانستان .. الملاّ فضل، صدر أمر الانسحاب ، من جبهة تخـار ، والعـودة إلى قنـدوز ، التي تبعد حوالي ٧٠ كلم عن مدينة طالقان ، مركز ولاية تخار ، لتنظيم الصفوف، وتقليل الخسائر ، التي تسبب بها القصف الأمريكي المكثف . الشمال كان قد انفصل عن القيادة المركزية ، لحكومة طالبان، في جنوب أفغانستان، بعد سقوط مدن مزار شريف ، وسمنجان ، وبول خمري، وبعدها باميان.. بأيدي قوات ميليشيا التحالف الشمالي، الموالي للأمريكان . أدى ذلك ، إلى حدوث فوضى واضطراب شديدين ، في صـفوف قوات الطلبة ، على الرغم من نداءات أمير المؤمنين ، الملا عمر.. المتكررة ، بالصمود والدفـاع، وكانت كلمته المشـهورة ، التي ظـل يـرددها إلى آخر لحظة : إما الحياة بعزة وغـيرة ، على دين الله ومحارمه ، أو الـموت والشهادة .. (زندي به غيرت يا مرك به شهادت) .

في بداية الأمر ، رفض الإخوة العرب في اللواء الانسحاب ، في ضوء المعنويات المرتفعة . إذ أنهم على مدى يومين سابقين، صدوا عدة هجمات للعدو ، آخرها استمر ١٢ساعة متواصلة،

لم يستطع العدو خلالها ، التقدم شبراً واحداً ، على الرغم من القصف المدفعي الثقيل الشديد ، والدعم الجوي الكبير ، للطيران الأمريكي الصليبي . إلى حين أقنع قادة الطلبة ، الإخوة العرب بالانسحاب ، كان قد مر على انسحاب بقية الطلبة ، أكثر من نهار كامل . مجموعة يتراوح عددها ، حوالي ٢٥ أخ عربي، تأخرت في الانسحاب ، إلى ما بعد يومين ، لتغطية انسحاب الجميع . لقد كان خط الانسحاب ، من خوجة غار إلى دشت آرجي ، وإلى قندوز .. مكشوفاً ، يمر بمنطقة تلال وعرة قاحلة، خالية من أي أشجار ، أو غطاء طبيعي .. من أي نوع . طوال الطريق ، كان قصف الطيران الأمريكي مستمراً ، ولكن لم تحدث خسائر على الإطلاق ، بتوفيق الله وحفظه .

لما أكملت القوات المنسحبة كلها، تجمعها في مدينة قندوز، كانت قوات التحالف الشمالي ، قد أطبقت الحصار على المدينة. فمن ناحية الشمال.. سيطرت قوات جـــــلا جم (دوستم والهزارة)، بقيادة الجنرال عبد الرشيد دوستم ، التي وصلت من مزار شريف . أما قوات شورى نظار ، الــــتي كان زعيمها أحـــمد شاه مسعود ، قد أغتيل قبل أسابيع .. فطوقت المدينة من الناحية الأخرى ، بقيادة الجنرال محمد فهيم . المـنـافسة كـانت شديدة بينهم ، على من يدخل المدينة أولاً .. لينال الحظوة ، والأموال ، والمكافأة . قوات دوستم محسوبة على الأمريكان ، وقوات شورى نظار ، تتلقى دعمها الكامل من روسيا وإيران ، إلا أن الطرفين ، يتمتعان بالدعم الجوي الأمريكي المباشر . رمى الجنرال دوستم ثقله كاملاً ، لإجراء مفاوضات الدخول

إلى قندوز سلماً ، وعرض على الطلبة الاستسلام ، مقابل العفو، وإيصال المقاتلين إلى أماكن آمنة . كان الطلبة قد وقعوا في حالة صعبة جداً. بعض القادة آثروا الاستسلام، وفعلاً اختفى قسم منهم ، ليظهروا بعد أيام مع جزء من قواتهم ، في مواقع أخرى ، بعد أن تمكنوا من الهرب ، والتخفي.. ثم الوصول إلى أماكن أكثر أمناً ، مثل المُلّا عبد الرؤوف خادم وغيره .

ساعات رهيبة مضت ، والقصف الجوي العنيف ، مستمر على قوات الطلبة ، مع استمرار الهجمات الأرضية . النفوس أخذت تضعف ، أمام ضغوط أهالي المنطقة ، التي تزداد على الطلبة، مطالبة بالانسحاب أو الاستسلام ، لتجنيب مناطقهم الدمار ، خاصة .. ذلك الذي يتسبب به القصف الجوي الأمريكي ، الذي لم يكن يميز ، بين قطعة عسكرية و مقاتلين .. وبين قرية وتجمع سكاني مدني . مع استمرار صمود الطلبة، كان إلحاح دوستم يزداد .. بالاستسلام، وتسليم المدينة ، مقابل تقديم ضمانات كثيرة ، ليسبق خصمه محمد فهيم ، قائد شورى نظار.. الذي بدأ هو الآخر ، مفاوضاته لدخول المدينة ، ليضيفها إلى مناطق نفوذه ، ويقوي بها موقعه ومكانته .

- لماذا كان الاتفاق مع دوستم ، وليس محمد فهيم ..؟
- حصل الاتفاق فجأة ، لكننا لا ندري حقيقة ما جرى في المفاوضات. الذي عرفناه فقط ، أن الاتفاق نص على خروج المجاهدين غير الأفغان من قندوز ، والتوجه بهم إلى مزار شريف، للحفاظ عليهم .. كما قيل ، وعند وصولهم

إلى هناك ، يستكمل استسلام بقية قوات الطلبة لقوات دوستم ، وتنفيذ بقية شروط الاتفاق .. واستقدموا لهذا الغرض ، عدداً من الشاحنات .
انطلقت الشاحنات ، تقل كل المجاهدين العرب ، مع حوالي ١٠٠ من الأوزبك والطاجيك ، وعدداً من المجاهدين الباكستانيين .. إضافة إلى أفراد قليلين ، من الأفغان ، من عناصر طالبان ، ممن انضم لهؤلاء ، لأسباب لا أعلمها . كانت ترافقهم ٤ سيارات صغيرة من قوات دوستم ، ومن أفراد القومندان ناصر خسروي البشتوني ، كأمان لهم .. ودليل . خلال الطريق، لم يعترض سبيلهم أحد ، وحين اقتربت السيارات ، من مدينة مزار شريف ، كان الليل قد أوشك على نهايته ، وبدأ الدليل يخفض من سرعة السيارة، إلى أن توقف .. قائلاً ، أن وجهتنا إلى بلخ ، الواقعة خلف مدينة مزار شريف .

التغيير في وجهة القافلة، كان أول علامات الخيانة ، كما قال بعض الشباب . لمّا بدأ الشباب في مجادلة الدليل، حول الطريق الذي سيسلكه، قال أن هناك طريقان ، أحدهما طويل ، يمر ببلخ أولاً ، ثم يعود لمدينة مزار شريف ، والآخر قصير ، يقصد المدينة مباشرةً ، ولكنه خطر ، لكونه يمر في منطقة تسيطر عليها قوات من الشيعة الهزارة، وهم لا يطيعوننا ، ونخـاف أن يتعرضوا للقافلة ، وتحدث مشاكل. الطريق الطويل لا يخلو من خطورة أيضاً ، لأننا نريد أن نوصلكم إلى بلخ دون علم كبار جنرالات استخبارات دوستم، الذين لم يكونوا راضين عن الاتفاق . هناك مشكلة

أخرى ، وهي أنه إذا طلع النهار ، يمكن أن يكتشف عناصر الاستخبارات الموضوع ، ويعرقلـوا الأمر . لذا سنرسل سيارات، لتأمين الطريق ثم تعود لتسير بالقافلة .

لم تتحرك القافلة من مكانها ، وحين بزغت الشمس ، وطلع النهار، بدأ الشك يزداد عند الإخوة . نظروا حولهم فإذا هم في منطقة سهلة منبسطة، ليس فيها أي تضاريس ، أو مرتفعات، وفجأة سمعوا أصوات آليات عسكرية تقترب منهم . أمعنوا النظر ، فإذا هي مدرعات ، ولكنها لا تسير باتجاههم مباشرة ، بل قسم ينحرف إلى اليمين ، والآخر إلى اليسار .

أدرك الشباب أنهم في كمين ، وأنه تم اقتيادهم لمنطقة مكشوفة، ليتم تطويقهم ، واصطيادهم بسهولة . تشاوروا بسرعة ، وقرروا تشكيل خط دفاعي دائري ، يكون العرب في المقدمة ، والأوزبك على الجناحين، والباكستانيون يحمون المؤخرة. بسرعة تنم عن خبرة قتالية، توزعت الأعداد، وأخذ المجاهدون مواقعهم . كانت الأسلحة الشخصية، وبعض الرشاشات الثقيلة والذخيرة، لم تسـحب منهم لحد الآن . قوات العدو، استكملت حـصار المنطقة .. فتخندق الإخوة ، وتترسوا بالأسلحة ، استعداداً لأي طاريء .

إحدى السيارات ، التي كانت قد غادرت ، لترتيب أمر عـبور المدينة، كما ذكر ، ظهرت فجأة ، و بدأت تتجه بسرعة إلى مركز تجمع الاخوة. تركها الاخوة تقترب ، نزل سائقها، وهرول إلى قـادة المجموعات ، والخوف يملؤه. توقف قريباً منهم ، وهو يصـيح .. أن الأمور بخير ، ولا يوجد ما يدعو

للقلق ، وهو تعبير أفغاني مشهور ، بقينا نسمعه دائماً.. حتى في أحلك الساعات، أيام الجهاد السابقة .

بدا الأفغاني مهتماً بتهدئة الإخوة ، قائلاً ان الأمور بخير، ولكن هناك مشكلة بسيطة ، وهي أن استخبارات الجنرال دوستم، قد عرفوا بالأمر، وأبدوا قلقهم لدوستم ، من وضع الأسرى .. وأن هذا قد يحرجه مع الجيش الأمريكي . لذلك .. هو يصر على أن يذهب الجميع ، إلى حيث مركز سيطرته، ليكونوا تحت اشرافه فقط .. وأن على الجميع الآن ، تسليم أسلحتهم . انتفض الإخـوة، وأدركوا أن ما جرى ليلة البارحة ، من اختفاء السيارات، التي زعموا أنها ذهبت لتأمين الطريق ، إنما كانت خطة جديدة من دوستم، للغدر بهم . لحد هذه اللحظة ، لم يستطع المنافقون الاقتراب مـنهم ، وأظهر الشباب، استعداداً للمقاومة الشرسة .. والمميتة . عندما رأى الدليل الأفغاني ، إصرار الإخوة على عدم تسليم الأسلحة ، اقترح عليهم أن يتصلوا بالملا فضل في قندوز، ليأخذوا منه التعليمات . قام الاخوة بنصب جهاز التخابر، وحاولوا أولاً ، الاتصال بكابل، ربما الاتصال الأخير.. لتلقي التوجيهات من القيادة المركزية .. دون فائدة.

تم الاتصال بملا فضل في قندوز ، وطلب منهم الرضوخ ، وتسليم الأسلحة ، للحفاظ على بقيـة الطلبة الموجودين في قندوز .. قائلاً: " أننا إلى الآن ، لم نصل معهم إلى اتفاق نهائي، إذا أحدثتم مشاكل، فربما يبدأون بقصفنا ، والتعرض لنا.. خصوصاً أن قواتهم بدأت تدخل المدينة، من

كل جهاتها، والطيران الأمريكي، يكثف من تحليقه فوقها ". أكد عليهم بوجوب السمع والطاعة، وقال : " أن عملي هذا .. الغرض منه، إنقاذ حياة أكبر عدد ممكن ، من الطلبة والمجاهدين ، بأمر أمير المؤمنين "!!

تـــردد الإخوة في التخلي عن الأسلحة ، وأظهروا للملا فضل، عدم ارتياحهم لهذه الخطوة، فاتصل بالملا ذاكر عبدالقيوم، ليكلمهم على جهاز التخابر. كان مــلا ذاكر، هو أمير قطاع عمليات الشمال ، في خـوجة غار ، ودشت أرجي، حيث كان الإخوة العرب تحت إمرته . رضخ الإخوة للطلب ، بعد إلحاح من ملا ذاكر ، وتشاوروا على تسليم الأسلحة الثقيلة الظاهرة، وإخفاء القنابل اليدوية والمسدسات ، والسكاكين .. للطوارئ، حسب اقتراح أمير المجاهدين العرب ، الأخ غريب . بدأوا بوضع السلاح على الأرض ، رغم أن الأغلبية غير مقتنعة تماماً ، ومندهشة لما يحصل .

بعد استكمال تسليم الأسلحة ، طلب الدليل من قوات العدو الاقتراب، واستلام الأسلحة ، وعاد ليكرر على الإخوة، تسليم كل ما لديهم من سلاح، فأجابوه بإصرار ، بأنه لم يبق شيء آخر، فطلب إليهم التوجه إلى السيارات ، للتحرك إلى مزار شريف .

-١٠-

بعد وصول القافلة إلى مزار شريف ، أقتيد الأسرى إلى قلعة جهانجي، وهي قلعة كبيرة ، مستطيلة الشكل ، تقع على ربوة، على أطراف مدينة مـزار شريف ، تبعد عنها بحدود عشرة أميال .. إلى الشمال . تمتد على مرتفع من الأرض ، يطوقها سور عريض ، يمكن لسيارة أن تسير عليه، ويحيط بها خندق عريض مملوء ماءاً . القلعة كبيرة جداً من الداخل، وتتكون من عدة طبقات . في أسفلها أقبية وسراديب وغرف .. وهي في الأساس بنيت ، لتكون قلعة عسكرية ، مجهزة للقتال ، والصمود فترة طويلة، أمام الحصار ، وتحتوي على مخازن للأسلحة والذخيرة .. والمؤن.

أدخلت السيارات ، التي تحمل الشباب ، إلى داخل القلعة، وكان قد سبقهم إليها أكابر قومندنات الهزارة ، من حزب وحدت الشيعي ، وكبار قومندنات دوستم ، ورئيس استخباراته . إلى جانب قوات كبيرة ، تقدر بعدة مئات ، من أفراد الميليشيا ، انتشروا في المكان . لاحظ الشباب وجود ضباط وعناصر من المخابرات الأمريكية CIA. كانوا يعطون التعليمات لأفراد الميليشيا، فأصدروا أوامرهم بإنزال المجاهدين من السيارات ، وتقسيمهم إلى مجـموعات صغيرة ، ثم شرعوا في تفتيشهم ، وتسجيل أسمائهم، وأخذ معلوماتهم ، ومن

ثَمّ تصويرهم . كانوا يشرفون على تسجيل الأسماء ، وأخذ المعلومات ، ويعاونهم كبار ضباط دوستم ، وحلفائهم من الهزارة . أثناء عملية التسجيل، صاروا يتعمدون استفزاز المجاهدين ، بإساءة معاملتهم ، والاستهزاء بهم، والتلفظ بالكلمات النابية، على الجهاد، والدين .

حين رأى الإخوة طريقة التعامل ، وهي خلاف التطمينات التي قيلت لهم، أدركوا أن هناك أمراً يبيت لهم .. فتبادل عدد منهم الإشارات . لما جاء الدور لأحدهم ، تقدم للتفتيش، واضعاً يده في جيبه . انتبه الضابط لذلك ، فصاح عليه ، أن أخرج يدك يا ابن (الفاعلة) ، فأخرج الأخ يده من جيبه ، وهو يقبض على قنبلة يدوية ، كان قد سحب تأمينها .. فدوى انفجار كبير . قتل الأخ بعده مباشرة ، وقتل على إثر الانفجار، بعض أفراد الميليشيا و ضابط ، أظنه رئيس استخبارات مزار شريف، وأصيب رجل الاستخبارات الأمريكي ، وأحد قومندنات حزب وحدت ، وعدداً من قادة دوستم .

أحدث الانفجار هلعاً ، بين أفراد العدو ، وبدأوا من الذعر.. يتناثرون، مثل ذرات غبار اشتدت بها الريح ، في يوم عاصف، فسارع عدد من الإخوة إلى انتزاع الأسلحة، من أيدي عناصر الميليشيا ، الذين فاجأهم الحدث .. وانطلقوا في مختلف الاتجاهات . مرت فترة قصيرة من الصمت، انفتح بعدها، باب من جهنم على الأعداء ، عندما بدأ إطلاق نار كثيف ، من أكثر من جهة. انقسم الإخوة إلى مجموعات ، ووزعوا المهام بسرعة وبدقة ، وساعدهم في ذلك ، كونهم أصحاب

خبرة قتالية .
دارت معركة سريعة ورهيبة ، كان أفراد العدو فيها ، يهربون لا يلوون على شيء ، كالجرذان المرعوبة ، لا تدري أين الفرار. قسم منهم ، بدأ يقفز من فوق الجدران العالية هرباً، ليسقط فتندق عنقه . لم يجرؤ أحد منهم على المواجهة ، فهم لم يأتوا للموت ، بل لجمع الغنائم ، والتمتع بشهوة التسلط . مر وقت غير طويل ، بعد بدء التمرد .. توقف بعدها القتال . كانت النتيجة ، تصفية الإخوة ، لبعض من كانوا في باحة القلعة، وأجبروا أغلب الذين كانوا هناك ، من أفراد العدو على الفرار. كما قتل عدد منهم ، رحمهم الله .

لم أَدْرِ ما الذي حدث بالضبط ، بعد الفوضى التي سادت، عقب انفجار القنبلة . أتذكر أني كنت أجري ، على أصوات إطلاق نار كثيفة ، أحسستها قريبة من رأسي .. وكنت أسمع دعوات للهدوء ، ووقف القتال، تصدر من أشخاص، أظنهم جنرالات دوستم . توقف القتال ، الذي استمر لدقائق. وجدت نفسي بعدها مصاباً ، وفي منطقة معزولة . صرت غير قادر على الالتحاق برفاقي ، دون أن أكشف نفسي للقناصة، من أفراد الميليشيا ، الرابضين على جدران القلعة.
إصابتي لم تكن شديدة ، لكنها كانت تعيقني عن الحركة السريعة. كان يجب أن أتصرف بسرعة ، إذْ إنهم بعد قليل .. حين يبدأون بتفقد القتلى والجرحى من أفرادهم، سيجدونني ، وسيجهزون علي . أخذت أقلب الأمور، حول

ما يمكن أن أفعله. الجثث المتناثرة حولي ، لبعض المجاهدين، ولأفراد الميليشيات ، أوحت إلي بفكرة .. كانت آخر طوق نجاة ، يمكن أن أتعلق به. نزعت ملابس أحد أفراد الميليشيا الأوزبكية ، التابعة لدوستم ولبستها ، بعد أن خلعت ملابسي البشتونية . بحثت بين جثث القتلى ، عما يمكن أن يساعدني في التموية ، فوجدت على ملابس أحد قتلى ميليشيا دوستم .. شارة ، ربما تكون منحت له، مكافأة على خدماته .. فعلقتها على الملابس التي ارتديتها . بقي أمامي الآن ، أن أقوم بالخطوة الأخطر .. أن التحق بالميليشيا . الملامح الأوزبكية في وجهي ، التي ورثتها عن أمي ، اضافة إلى إجادتي للغتين الأوزبكية والروسية ، ستكونان وسيلتي لخداعهم .

زحفت إلى الخارج ، وأخذت أصيح ، مرة بلغة أوزبكية ، وأحياناً بالروسية .. وألوح لبعض أفراد الميليشيا ، المتمترسين خلف جدار لم يكن بعيداً . جاءوا وحملوني .. وأنا أسب طالبان، و (المرتزقة العرب . كنت قد عرفت أن هذه هي (كلمة السر)، لدى أفراد الميليشيا ، من كلام سمعته من بعضهم ، بحكم معرفتي باللغة الأوزبكية . قدمت لي اسعافات أولية، ووضعت في غرفة ، يتم الوصول إليها ، عن طريق سرداب أرضي ، مع بعض الجرحى، ممن أصيبوا في الاشتباكات . لم يكن لدى الجرحى، الذين معي، معلومات ذات قيمة . حاولت أن أكون ضمن المقاتلين، ليكون لدي هامش أوسع للتحرك ، ولأستطيع الحصول على معلومات عسكرية، أساعد بها إخواني المحاصرين .. إلا أن الإصابة، تحول

دون ذلك . لم أرد أيضاً ، أن أبدو ، على خلاف الآخرين ، متلهفاً للقتال ، حتى لا أثير الشكوك .

مكثت يومين ، تظاهرت بعدها أني بدأت أتماثل للشفاء . كان محيراً، ومثيراً لتساؤلي، أن القتال ما يزال دائراً . أثناء النهار.. كنت أسمع دوي قصف عنيف ، وهدير طائرات.. وفي كل يوم يأتي للغرفة جرحى آخرون ، عرفت منهم ، تصوراً عمّا يجري . الشباب بعد تفجير القنبلة، الذي قام به الأخ ، وقتِل فيه هو وأحد الضباط .. ثم ماحدث بعده من ثورتهم، أُقْنِعُوا بالتهدئة ، من قبل جنرالات دوستم ، مقابل إطلاق سراحهم .. فامتثلوا ، وتم حجزهم في غرف ، في قبو القلعة إلى الصباح .. ليتم بعدها استكمال إجراءات تسجيلهم، ثم إطلاق سراحهم .. حسب الاتفاق.

من الغد تم إخراجهم، والبدء بتفتيشهم، والتحقيق معهم .. من جديد، لكن قَتلَ أحد رفاقهم، أثناء التحقيق، على يد ضابط أمريكي ، دفعهم للتمرد مرّة أخرى ، ونجحوا في السيطرة، على جزء كبير من القلعة ، بعد الاستيلاء على مخازن الأسلحة، كما قتل عدد من أفراد الميليشيا . إزاء هذا التطور، تدخل الطيران الأمريكي ، فصار يقصف القلعة ، مما أجبر الشباب، على اللجوء إلى القبو ، وحصارهم هناك . كما أن قصف الطيران الأمريكي للقلعة ، بقنابل تزن أكثر من ٢٠٠٠ رطل .. أودى بحياة كثير منهم، وهو ما جعلهم يستميتون في القتال .

كان أفراد الميليشيات ، إذا توقف القصف الأمريكي ، أثناء الليل، يقومون بجولات، ويفتشون جثث القتلى ، وينهبون

ممتلكاتهم ، بما في ذلك أحذيتهم ، وتركيبات الذهب في أسنانهم. أحياناً إذا وجدوا جريحاً، نهبوا ما معه ، ثم أجهزوا عليه ، أو تركوه يموت من البرد .. أو النزف. حينما يعودون في آخر الليل، يبدأون بإحصاء سرقاتهم ، والحديث لزملائهم، عن قصص بطولة مزيفة ، أو مواقف شجاعة .. عن أنفسهم ، من تلك التي يزعمون أنهم مرّوا بها .. أكثرها مختلق .

حين جاء اليوم الثالث ، رغبت في الخروج ، لكن حالت بعض الظروف، دون خروجي ، بسبب رفض المجموعة التي خرجت، أن أرافقهم . في اليوم الرابع، أصررت على مرافقة إحدى مجموعات السطو هذه ، لأقف عن قرب ، على ما يحدث في الساحة .. وحدثت نفسي كذلك ، أن أكون سبباً في انقاذ بعض إخواني الجرحى . كان اللصوص ، من أفراد الميليشيا، يبدأون بالتحرك، بعد أن يهبط الظلام ، ويتوقف قصف الطيران الأمريكي . انطلقنا مجموعة .. ثلاثة أشخاص ، كنت رابعهم ، باتجاه الأماكن التي قصفها الأمـريكان ، ويتوقع أن تكون وقعت فيها إصابات. كان هناك عدد محدود من الجثث ، حين كانوا يقلبونها تعرفت على بعـض أصحابها .. من الشباب رحمهم الله . لم يكن بينهم من مات حديثاً . قدرت أنه مضى على وفاتهم أكثر من يوم .

من الغد ، خرجت مع مجموعة أخرى ، لكننا رجعنا بسرعة، بعد تعرضهم لكمين .. من مجاهدين ما زالوا خارج القبو، قتل فيه أحد أفراد المجموعة . لم نخرج في الليلة التي بعدها،

لأوامر جاءت من القيادة ، كما قيل . لكن .. في ليل اليوم السابع من القتال داخل القلعة ، كان هناك قصف أمريكي عنيف . بعد توقف القصف ، خرجت مع نفس المجموعة الأولى . بعد جولة ليست قصيرة .. لم تكلل بنجاح من أي نوع، بدأوا في العودة، وسلكوا طريقاً مختلفاً. ثم فجأة توقفوا، حين قال أحدهم ، أنه يسمع أنيناً خافتاً. سكتوا وأنصتنا . بعد لحظات .. نفى أصحابه، سماع أي شيء ، لكنه أصر، فاقترحوا عليه ، أن يتتبع بنفسه مصدر الصوت، لكـنه خاف أن يـكون هناك كمين .. وطلب مساعدة . الشخصان الآخران رفضا ، وقررا العودة وحدهما . سألني إن كنت أود أن أرافقه .. وافقت ، لأني فعلاً سمعت شيئاً، يشبه تأوهات جريح . كنت أريد أن أنقذ الرجل، حتى لا يجهز عليه . بعد بحث .. استمر دقائق ، وصلنا إلى مصدر الصوت، كان هناك رجلان ، قد سقط عليهما جانب من حائط .

بدأنا بإزالة الأنقاض ، فاستخرجنا الأول .. كان ميتاً ، وانشغل هو بتفتيشه .. ورأيته ينتزع خاتماً من أحد أصابعه . بدأت أنا برفع الأنقاض عن الثاني ، الذي كان يئن . كانت مفاجأة لي .. عرفته ، صاحبي أبو سلمان الفارسي . تظاهرت بأني أفتشه ، وكنت أعلم أنه سيجهز عليه ، حالما ينتهي من تفتيش، وسرقة جثة الآخر . فكرت كيف أتصرف، دون أن أثير شكوكه ، وكيف أتخلص منه ، ولا ألفت نظر الآخرين .

فتح أبا سلمان عينيه ورآني .. فبدت الدهشة على وجهه .

غمزت له بطرف عيني .. فسكت . التفتّ إلى الرجل المسلح، وقلت له ، ما رأيك لو نسأل هذا الجريح ، إن كان يملك مالاً ، يستطيع أن يقايض به حياته . سـأل .. ما الذي يجعلني أظن ذلك . قلت يبدو من ملامحه ، أنه عربي من الجزيرة العربية ، ومعظم العرب يحملون دولارات أمريكية، وقد يكون أخفاها قبل أن يقع في الأسر . ثم أضفت ، بأني أتكلم الروسية ، وسأسأله إن كان يعرف الحديث بها . كان في البداية متردداً ، ثم بعد لحظات تأمل قصيرة .. وافق . كان لدي يقين كبير ، أن رجل الميليشيا المسلح .. الأوزبكي، لا يجيد غير لغته الأم ، لذلك خاطبت أبو سلمان بالعربية، وقلت له .. سندبر خطة ، نخدع بها هذا الأوزبكي ، لنخرج من هنا .. وطلبت منه أن يهز رأسه موافقاً . أخبرت المسلح، أن الرجل يقول أن لديه ١٠٠٠ دولار ، قد اخفاها في مكان ما ، في الطريق بين مزار شريف وقندوز ، وأنه يوافق أن يعطينا إياها ، شرط أن نخرجه سالماً من هنا . طمع الأوزبكي بالدولارات .. وهو ما توقعته ، ووافق أن يدلنا على مخرج آمن ، نهرب عبره من القلعة.

سـرنا في ممرات ومسالك ، داخـل القلعة .. بدى واضحاً أن الرجل يعرفها جيداً ، إلى أن صرنا على أطرافها . كانت المسافة طويلة ، وكنت خلالها أحمل أبا سلمان على ظهري. عند طرف القلعة ، كانت هناك ثلمة قديمة في الجدار، تتسع لشخص واحد .. وتؤدي إلى منحدر يتسلل منه الأفراد ، إلى خارج القلعة . لم يـكن أبا سلمان قادراً على السير ، وكان صعباً علي أن أحمله، في طريق منحدر ، دون أن أقع أنا وإيّاه ، وأتسبب له بمزيد من الأذى. أقترحت على الرجل

أن نضعه على محفة .. وأقوم بسحبه إلى الأسفل . ذهب الرجل يبحث عمّا يمكن أن نضع عليه أبو سلمان . غاب لبعض الوقت ثم عاد .

كنت أُضمّد جراح أبي سلمان ، وأتجاذب معه أحاديث خاصة، حين فوجئت بالرجل يقف فوقنا ، ومعه اللحاف الأفغاني ، الـ (بتو) ، وسجادة صوف خشنة .. وعمائم ربطها ببعضها . أحسست أنه شك بوجود علاقة تربطنا.. وإن تظاهر بخلاف ذلك ، لكن نظراته كانت تفضحه . اقــترح أن يستلقي أبو سلمان على السجادة ، بعد أن نفرش اللحاف فوقها ، وأن أربط السجادة واللحاف بالعمائم ، واقوم بسحبه . فكرته كانت جيدة ، بدأنا بتنفيذها ، وطلبت منه أن يسير أمامنا ، ليؤمن لنا الطريق . تردد في البداية.. ثم وافق . تعمدت أن أجعله يسير أمامي ، لأني لم آمن غدره، خاصة بعد أن شك بعلاقتنا . بدأت أصدّق حدسي، بأنه يبيّت لنا أمراً.. حينما توقف وقال ، أنه يحس بتعب، ويريد أن يجلس ليرتاح . كنّا في منتصف المسافة ، وما زال المنحدر عالياً . كان في وضع لا يستطيع أن يستعمل سلاحه، دون أن يواجه مقاومة مني .. يفقد فيها حياته .

حين جلسنا للراحة ، شرع بحديث ، أراد أن يكسب به ثقتي . سألني إن كنت متأكداً ، من أن هذا الأسير العربي، لديه فعلاً ، ما يفدي به نفسه. أخبرته أني تحدثت معه ، وأنه صادق .. فيما يبدو لي . انتقل بعد ذلك، للحديث عن الوسيلة ، التي سنسير بها إلى قندوز .. وذكر أن الحمير،

تكثر في مرج ليس ببعيد من هنا .. وأشار إلى جهته . فجأة.. رأيته يضع سلاحه جانباً ، ويأتي نحوي ، وهو يسأل عن إصابة الأسير .. بحجة اختيار الوضع الأفضل لنقله على الدابة . توجست منه شراً .. وتحفزت، لكني لم أشهر سلاحي ، حتى لا أفقد ثقته .. فيما لو كان ظني في غير محلّه . حين اقترب ، صار يتحدث عن الطريقة الأنسب ، لوضع (الجريح) على الحمار . فجأة .. غافلني ، ودفعني باتجاه هاوية المنحدر.. لكني لم أقع ، بل اختل توازني ، وسقط سلاحي . انقض علي ، لكني عاجلته بركلة، وملت بجسمي عنه ، فهوى من فوق المنحدر .. الذي كان يريد أن يدفعني من حافته .. فسقط وتهشم رأسه .

-١١-

سحبت أبا سلمان إلى نهاية المنحدر ، حيث كانت هناك أشجار عالية، بعضها متشابك . وضعته في مكان آمن ، وذهبت أبحث عن الحمير التي ذكرها الرجـــل . وجدت اثنين منها ، غير بعيد عن المكان الذي تركته فيه، وعدت بها.. أقودها . أعددت مكاناً لأبي سلمان على أحدها ، وسرنا من ليلتنا إلى هـــرات، التي لنا فيها معارف كثر.

أمضينا ثلاث ليال ، قبل أن نصل إلى هرات ، وساعدنا في الطريق بعض القرويين . المنطقة التي مررنا بها ، يتعاطف سكانها مع حكومة طالبان .. وكانت من آخر المناطق التي خرجت من سيطرتها . في هرات ، تم الترتيب مع بعض الإخوة، لنقل أبي سلمان إلى مكان أكثر أمناً .. في مدينة كويتّا الباكستانية ، ليتلقي العلاج ، من الإصابة البليغة ، التي لحقت بجانبه الأيمن ، نتيجة شظية من القذيفة ، التي انفجرت قربه .

- هل تيسر لك أن تسأل أبا سلمان ، عن تفاصيل ما جرى داخل القلعة، بعد انتفاضة الأسرى .. ومن أصيب من الشباب .. ومن الذي أعتقل..؟

- نعم .. لقد تحدثت مع أبي سلمان .. طوال الطريق إلى هرات ، وحكى لي ما حدث .. كان يحدثني ويبكي ، وكنت أبكي معه ، من هول ما جرى .. التفاصيل كثيرة ..!

- الأخ أحمد متلهف لسماع القصة .. ليعرف مصير شقيقه.
- لا تختلف رواية أبي سلمان ، عمّا ذكرت لكم ، منذ الخروج من قندوز، إلا أنه يذكر، أنه بعد ما طلب الأخ غريب الصنعاني، أمير المجاهدين، من الشباب أن يسلموا أسلحتهم، إثر المفاوضات التي تمت، مع قائد قطاع عمليات الشمال، ملا ذاكر عبد القيوم .. في الطريق إلى مزار شريف، وإشارته على البعض ، بأن يحتفظوا بالقنابل اليدوية فقط، وأسلحة شخصية، لما كنا نرى من الخيانة .. في عيون العسكر. يقول أبو سلمان ، أنه بعد المفاوضات ، التي سلم الشباب على إثرها الأسلحة الثقيلة، التي بحوزتهم، لاحظ أن طائرة أمريكية ، مرت من فوقهم ، وهو ما لم أنتبه له .. ورسمت علامة دائرة ، بسحب الدخان ، التي تصدر منها .. كأنها ترسل رسالة مؤداها : انتهى كل شيء، أو أنتم محاصرون. أدركنا فعلاً أننا محاصرين في ذلك المكان. فبعد أن تحركوا أمامنا بسياراتهم، والسيارات التي تقل الشباب خلفهم، كنا نرى الدبابات والجنود ، ينتشرون حولنا بكثافة ، على رؤوس التلال .

حسب ما روى لي أبو سلمان ، وهو ما لاحظته أنا شخصياً، أنه حين تحرك الشباب ، لم يكن أحد وقتها ، متأكداً من الخيانة المبيّته . ساروا بنا ، حتى وصلنا إلى مزار شريف، ثم نقلنا من بعدها إلى القلعة .. التي لم تكن بعيدة . بعد أن أدخلوا الشباب إلى القلعة قبيل المغرب ، أوقفوا الشاحنات، ثم أقفلوا الأبواب، وانتشر المسلحون. ساعتها .. عرف الشباب أن في الأمر غدراً وخيانة ، خاصة بعد أن رأوا

بعض الأمريكان، من عناصر المخابرات ، بلباس مدني ، وهم يصدرون الأوامر ، بإنزال الشباب ، وتقييد أيديهم إلى الخلف . كانوا يَغُضّون النظر ، عن تعمّد أفراد الميليشيا ، إهانة المجاهدين ، وإساءة معاملتهم .

يقول أبو سلمان ، أن فكرة أخينا غريب الصنعاني ، عندما طلب من بعض الشباب ، أن يبقوا قنابل يدوية معهم ، وأسلحة شخصية ، تحسباً لموقف مفاجيء ، ظهرت حاجتها ، حين تأكد أن هناك خطة غدر ، قد حيكت خيوطها بليل . إذ إزاء استمرار إيذاء الشباب، من قبل الضباط وأفراد الميليشيا، الذين يحققون معهم ، بإشراف أمريكي .. تشاور بعضهم فيما بينهم، ماذا يفعلون. كانوا قد اصطفوا في طابور طويل، ويخضعون لتفتيش، عندما دوى صوت صاعق لقنبلة يدوية . مما يعني أنه بعد أربع ثوان ، ستنفجر القنبلة . لكن أين هي ؟ لا أحد يعلم . يقول أبو سلمان ، أن الأخ أبا أحمد السوداني ، كان هو الذي سحب الصاعق، بعد أن رمى، أحد قادة دوستم الكبار، أمه بالزنا، وبصق في وجهه وصفعه.. وهدده بالقتل . انفجرت القنبلة ، فذهب هو والقائد. سادت بعدها فترة من الفوضى، وإطلاق النار، بين أفراد الميليشيات، والشباب الذين انتزع بعضهم الأسلحة ، من أيدي الجنود . ثم كانت هناك دعوات للتهدئة من طرفهم ، والتزام الهدوء .

القائد الذي قتل ، كان مطلوباً لدى الطالبان منذ زمن بعيد، لأنه قتل غدراً ، كثيراً من الطلبة، وكان يغتصب النساء ، ممن يشك بولاء محارمهن لطالبان .. فجاء حظ أبي أحمد

السوداني (رحمه الله) ، في الانتقام منه.. فرأيناهم يبكون عليه ويصيحون، وهــو يرفس مثل البغل حتى مات ، لا رحمه الله . إثر ذلك ، أصدر أحد الضباط الأمريكيين ، الموجودين مع عناصر الميليشيا، أثناء التفتيش ، أمراً لكبار قادة دوستم ، بتهدئة الوضع، وطمأنة الشباب ، بأنه سيطلق سراحهم، حال الانتهاء من استكمال التحقيق معهم، وطلب لأجل ذلك ، إدخالهم في غرفة كبيرة تحت الأرض، قرب القبو .. والتوقف عن تفتيشهم .. إلى الصباح.

تكلموا مع الشباب ، وقالوا لهم : لماذا تقتلون أنفسكم ؟ نحن بيننا وبينكم عهد .. ستخرجون غداً إلى هرات ، أنتم هنا فقط للتدقيق في هوياتكم ، ثم توجيهكم إلى المناطق، التي جئتم منها، فقط.. عليكم أن تلتزموا الهدوء ، ولا تستفزوا الأمريكيين . يذكر أبو سلمان، أن الشباب كانوا بين مصدق ومكذب . لكن.. لم يكن لدينا مناص ، من قبول عرض التهدئة ، لأننا محاصرون، ولا نملك السلاح لنقاتل.

- ألا ترى أن الشباب استعجلوا ، واستجابوا للاستفزاز ، الذي قد يكون مقصوداً ، من أجل إيجاد المبرر لقتلهم ..؟.
- لا أظن .. ! الأحداث التالية أثبتت غير ذلك . هناك نية مبيته لدى الأمريكان للقضاء على الشباب ، بعد انتزاع معلومات منهم . قد يكون رَأيي غير مقنع لك الآن ، لكن المستقبل سيكشف لنا جميعاً، إن قُدّر لنا أن نعيش، أنه لم يكن أمام الشباب خيار آخر .. لكن دعني أكمل لك جزء القصة المتبقي .. كما رواه لي أبو سلمان . ربما هذا يساعدنا على إصدار حكم أكثر دقة .

يقول أبو سلمان ، أنه في الصباح الباكر، من يوم السبت، الموافق ١٠ من رمضان ١٤٢٢ هـ ، بدأوا بإخراج الشباب اثنين اثنين. كانوا يفتشون الأخ، أمام أصحابه ، تفتيشاً بسيطاً ، ثم يأخذونه بكل احترام ، ويخرجونه إلى الخارج . الشباب في الداخل ، لا يعرفون عن الذي يحدث لصاحبهم في الخارج . هم فقط ، يرون أخاهم يخرج من عندهم ، ويعامل بكل أدب واحترام . الذي يحدث، أن الأخ عندما يخرج من الباب، ويغيب عن أنظار الشباب ، يهجم عليه قرود، من جنود دوستم، ويضربونه، ويخلعون عنه كل شيء ، إلا ملابسه الساترة فقط ، ثم يقيدون يديه إلى الخلف. بعض العسكر كان يأخذ حذاء الأخ، ويلبسها أمامه .. يعني حرامي عيني عينك . استمروا على هذه الحال ، إلى أن أخرجوا معظم الشباب من القبو ، إلى الساحة الخارجية . بعض المجاهدين ، خاصة الأوزبكيين ، ربما بحكم انتمائهم، هم وعناصر ميليشيا دوستم ، لثقافة وفئة عرقية واحدة ، ويتحدثون نفس اللغة .. كانوا يشمون رائحة الخيانة، من أول لحظة وصولنا إلى القلعة .. أو لعلهم سمعوا شيئاً ، مما يدور بين أفراد الميليشيا ، لكنهم لم يتكلموا، ويخالفوا بقية المجاهدين..العرب منهم ، على وجه الخصوص .. لتوحيد الكلمة ، ونبذ الفرقة .

حين صارت الساعة التاسعة ، من صباح نفس اليوم ، تجمع المجاهدون الأوزبكيون عند أميرهم ، وتبايعوا على الموت .. والتحرك ، عند أول إشارة منه . كان هناك تقريباً، ما يقارب ثمان مئة مجاهد مقيدين ، ما بين عرب،

وباكستانيين، وأوزبك، وآخرين من جنسيات أخرى . كان هناك، بالاضافة إلى المجاهدين ،عناصر من الميليشيا، وعناصر من المخابرات الأمريكية CIA، يقومون باستجواب الشباب ، والإشراف على تفتيشهم .

عند الظهر، كان قد اكتمل إخراج المجاهدين ، إلى ساحة القلعة، في المنطقة الواقــعة بين اسطبلات الخيل ، ومخازن الأسلحة والذخيرة. من بين المجاهدين ، يوجد شاب أمريكي أبيض، عرفت منه ، أن اسمه جون ووكر ، أخذه ضابط الاستخبارات الأمريكي ، وعزله بعيداً عن بقية الشباب ، وصار يستجوبه . ضابط الاستخبارات هذا ، الذي يدعى جوني أسبان ، ترك بعد وقت ، الشاب الأمريكي ، وعاد للتحقيق مع المجاهدين. كان صلفاً وفظاً في تعامله .. مع الجمــيع ، حتى مع مواطنه جون ووكر، ويسعى لانتزاع معلومات استخباراتية ، لا علاقة لها بشخصية المجاهد.. وهو ما أكد كذب الزعم ، الذي ادعاه قادة دوستم البارحة، حول ترك الأسرى لحال سبيلهم ، بمــجرد التأكد من هوياتهم . هذا التعامل .. هو أيضاً ، ما أثار حفيظة الشباب، وجعلهم مهيئين للتمرد .

استمر ضـــابط المخابرات الأمريكي ، في التحقيق مع الشباب ، وايقاع الأذى بهم .. حين يجد رفضاً في الاستجابة له. كان يحقق مع مجاهد عربي، وبالغ في إيذائه وإهانته ، فهجم عليه المجاهد .. ليدافع عن نفسه ، وهو مقيد ، فأطلق الضابط الأمريكي النار ، من مسدسه على رأس المجاهد .. فأرداه قتيلاً. المشهد كان مثيراً ، ومحزناً ، ومحرضاً .. إلى

الحد الذي جعل عدداً من المجاهدين العرب والباكستانيين، الذين شاهدوا مقتل أخيهم الأسير ، يهجمون على ضابط الاستخبارات الأمريكي ، ويضربونه، ثم يسحقونه بأقدامهم حتى الموت .. رغم أنهم كانوا مقيدين ، وبعضهم تعرض لإطلاق نار ، من الميليشيا ، ومن قبل الضابط نفسه ، قبل أن تتم السيطرة عليه وقتله .

حادث قتل المجاهد العربي الأسير ، بيد ضابط الاستخبارات جوني أسبان ، كان الفتيل الذي أشعل نار التمرد . منذ وصولهم إلى القلعة ، كان الشباب يتلقون الإهانات ، تلو الإهانات . لم يقتصر الأمر على سوء المعاملة، والأذى الجسدي المتعمد. سب الدين، والسخرية بمظاهرة، كان سلوكاً متبعاً، منذ البداية. الساعة .. كانت الواحدة بعد الظهر تقريباً، حين انطلقت أصوات الأسلحة الرشاشة ، ودوت القنابل ، وسمعت التكبيرات في ساحة القلعة، عقب ثورة الإخوة ، وقتل ضابط الاستخبارات الأمريكي . إخواننا الأوزبك ، هجموا ، و قتلوا بعض عساكر دوستم ، وأخذوا سلاحهم، وبتوفيق الله استطاع بعض المجاهدين أن يقتلوا عدداً آخر منهم ، ويغنموا أسلحتهم . بقية الشباب المقيدين في الساحة، بعد أن رأوا إخوانهم قد هجموا ، بدأ كل أخ يفك قيد أخيه ، لأن القيود كانت من الحبال والعمائم. لقد قمنا قومة رجل واحد .. وكبرنا ، علماً أنه لم يكن لدينا وقتها، طلقة واحدة .. فضلاً عن قطعة سلاح. النفوس كانت قد امتلأت من الغيظ ، ووصل الرجال إلى حال ، استوى فيه الموت والحياة .

يوضح أبو سلمان .. قائلاً : كان في القلعة مخازن للأسلحة، من عهد طالبان ، فتوجه لها عدد من المجـاهدين ، وكسروا أقفال المخازن ، وقاموا بتوزيع الأسلحة ، فهجم الشـباب، على العسكر الذين في الساحة. كما انطلق آخرون إلى بوابات القلعة وأغلـقوها ، لمنع جـنود العدو وأسـيادهم الأمـريكان من الفرار، أو من دخول إمدادات لهم . مجموعة ثالثة ، توجهت لفتح أبواب الغرف ، لإخراج من يكون قد بقى محتجزاً من الإخوة . كنا نرى بطولات مشرفة والله.. رجال يقدمون على الموت ، غير هَيّابين، فأخونا المثنى الحربي ، شاب صغير السن ، هجم على جندي، والجندي شاهر السلاح ، فقتلوه قتلهم الله . أخونا طلحة المكي أيضاً، هجم على عسكري ، وهـو مقيد ، ومع العسكري سلاحه ، فقتله قتله الله . أما أبو العطاء اليـمني ، وهو طالب علم ، يجيد ركوب الخيل ، وكانت هناك خيل موجودة في القلعة، ركب أحدها ، وهجم به على الجنود فقتلوه .

تجمع العسكر بعدها، على جدار القلعة ، وهم يحملون الرشاشات ، وقاذفات الـ (آر بي جي) ، وبدأوا بالرماية على الشباب ، المكشوفين في باحة القلعة ، فوقعت مجزرة، قتل فيها عدد من الاخوان . انحاز الشباب إلى داخل القلعة، واستطاعوا أن يسيطروا على القبو ، وما حوله من الغرف. ساعدهم .. بعد الله سبحانه وتعالى ، الأشجار الطويلة والكثيفة، التي استخدموها غطاءً لتراجعهم . في مخزن الأسلحة، وجدوا مدفع هاون وسبطانة .. وذخيرة ، تكفي لمدة شهر . نصب الشباب المدفع، باتجاه بوابة القلعة ، وأي

آلية عسكرية ، أو عسكري يقترب من البوابة، يصبح هدفاً سهلاً . استمر القتال عنيفاً عدة ساعات ، وكلما سمع الشباب أصوات دبابات قادمة نحو البوابة ، بدأوا الرماية، لكي يمنعوا الدبابات ، من الدخول . بفضل الله، ثم بفضل المدفع الذي غنموه ، نجحوا في صد الدبابات ، من دخول القلعة، وتم إحراق سيارة جيب، تابعة للصليب الأحمر .
في العصر حدث تطور مفاجيء ، حين بدأ القصف الأمريكي الجوي علينا . كانت الطائرات تلقي قنابل كبيرة ، يسمع لها دوي هائل . نتيجة ذلك .. قتل عدد من الإخوة ، الذين في الخارج ، وجرح كثيراً منهم .. كما أصيب من جراء أعمال الرماية والقنص، التي يقوم بها أفراد ميليشيا العدو .. عدد آخر. استمر الوضع على هذه الحال حتى المغرب . بعد هبوط الظلام ، نقل الشباب بعض من استطاعوا ، من إخوانهم الجرحى ، ورجعوا إلى القبو، لأن المكان مكشوف ، ولا يستطيعون المواجهة ، وهم على ذلك الوضع .. من نقص الأسلحة الثقيلة ، وزيادة الإصابات ، خاصة بعد أن ازداد عدد الجرحى، بسبب القصف الجوي الأمريكي للقلعة ، بقنابل ضخمة ، تزن مئات الأرطال .

في خضم هذه المأساة ، حيث المواجهة مع طيران العدو الأمريكي ، والجيش الدوستمي .. وحلفائه من الشيعة الهزارة ، ظهرت آيات الله ، وظهرت معادن الرجال ، وتلقى العدو دروساً في الاستبسال والصمود ، لن ينساها، من فتية آمنوا بربهم .. صغار في الأعمار ، كبار في الأعمال. نعم والله ، لقد رأينا الشجاعة والبسالة ، من أناس لم

نحسب لهم حساباً.. قياساً على أعمارهم ، وقلة خبرتهم . أخذ الأسود يواجهون هذه القوى الغاشمة ، بقوة الله ، ثم ببعض الأسلحة الخفيفة .. وتـكبد العدو بسببها خسائر فادحة . استمر المجاهدون في محاولة فك الحصار ، ولكن المشكلة الكبرى التي واجهتنا ، أننا نقاتل في منطقة محصورة ومسورة ، ولو كنا في غير هذا المكان ، لاستطاع المجاهدون هزيمة العدو ، وفك الحصار . عندما حل الظلام، كان العدو قد فشل في السيطرة على الوضع . في الليل رتب الشباب أوضاعهم ، وانقسموا إلى مجموعات . البـاكستانيون والأوزبك ، كل منهم تجمعوا على أمير لهم، اختـاروه من بينهم. العرب كانوا تحت إمرة أخينا عبد العزيز النعمان اليمني ، لأن أخانا غريب الصنعاني ، كان قد قتل ، في أول الاشتباكات ، حيث أصابته قذيفة آر بي جي وقتلته ، رحمه الله .

-١٢-

في اليوم الثاني في القلعة ، الذي كان يوم الأحد ١١رمضان ١٤٢٢هـ ، يقول أبو سلمان .. أن الأعداء حاولوا ، أن يقتحموا القبو، ولكن الشباب بفضل الله ردوهم . كان وهو يروي الأحداث، يتكلم بحماس ، وكنت منصتاً، ومتفاعلاً مع حديثه، فلاحظ اهتمامي وتأثري .. فقال ، كأنما يواسيني: لعلك يا أخي تظن ، وأنت تسمع وصفاً لهذه الحال ، أن الشباب كانوا في نصب وتعب .. أو سخط ..! لا والله.. لقد رأيتهم أمامي وهم كالملوك ، إذا خرجوا لنزهة أو رحلة. كانوا يتضاحكون ، وكل يفدي أخاه بنفسه . السكينة تغشاهم ، وتتنزل عليهم ، وهم يتنقلون بين سراديب القلعة للحراسة، أو قتال العدو ، حتى أن الجنود ، من شدة ما أوقع بهم الشباب ، كانوا إذا أظلم الليل، وبدأو بالتمشيط .. وسرقة الجثث ، يشتبكون مع بعضهم أحياناً، من الخوف والرعب.. عند سماعهم لأدنى حركة.

يواصل أبو سلمان قائلاً، أن اليوم الثالث من الحصار ، وهو يوم الاثنين ١٢ رمضان ١٤٢٢هـ ، لم يختلف عن اليوم الذي سبقه . القصف الأمريكي، كان لا يزال مستمراً وشديداً.. للقلعة ، وعناصر الميليشيا يحكمون عليها الطوق من كل جانب .. فلزم الشباب أماكنهم ، وظلت حركتهم محدودة . في هذا اليوم ، كان الجوع قد تمكن من الشباب، فوجدوا خيلاً مقتولة ، فأخذوا منها وطبخوه ، بعد أن أوقدوا النار ،

من بعض أغصان الشجر .. ثم وزعوه على سائر الشباب . كان أغلب الاخوان ، خارج القبو مصابين. منهم المكسور، والمبطون ، والمضروب في رأسه، فطلب الأمير عبد العزيز النعمان ، أن يتم إدخال الإخوان الجرحى، الذين أصيبوا من جرّاء القصف ، إلى داخل القبو ، لشدة البرد عليهم في الخارج. أما الذي لم يصب من الشباب ، فكان يخرج مع إخوانه يقاتل ، أو يبقى مع الجرحى ، داخل القبو، لكي يخدمهم ويحرسهم .

سكت أبوسلمان .. وأطرق قليلاً ، قبل أن يبدأ الحديث ، عن وقائع اليوم الرابع . لاحظت أنه حين شرع بالحديث ، خنقته عبرة . صوته بدأ يتهدج ، حينما قال :

لما كان اليوم الرابع ، الذي وافق يوم الثلاثاء ١٣ رمضان ١٤٢٢هـ ، استمر العدو في مشاغلة الشباب ، بقصف متقطع، طيلة النهار . في أول الليل .. قال هذه الجملة ، ثم أجهش في البكاء .. ولزمت أنا الصمت لدقائق . صوت بكائه ، كان يأتي متقطعاً .. مخنوقاً ، مثل غريق يغرغر، احتبس عنه الهواء . استأنف الكلام .. فقال : في أول الليل.. جاء أمر الله المحتوم ، فاصطفى كثيراً من الشباب ، عندما حلقت على علو منخفض، قريباً من القبو، والمنطقة التي حوله .. وعلى غير العادة في الأيام السابقة ، إذ يتوقف قصف الطائرات ، مع قدوم الليل. حلقت طائرات أمريكية، تطلق صواريخاً ، يبدو أنها موجهة بالليزر، وتحمل رؤوساً متفجرة ضخمة . بدأت بضرب القبو ، والمنطقة المحيطة به ، فقتل كثيراً من الشباب ، خاصة الذين كانوا يقاتلون

في الخارج . كان هناك كذلك ، بعض الإخوان الجرحى ، الذين بقوا في الساحة ، بعد الانتفاضة .. منذ اليوم الأول، ولم يكن الشباب قادرين على الوصول إليهم ، لأن الساحة مكشوفة للقناصة .. قتلوا هم أيضاً ، بسبب القصف . كانت القنابل التي قصفهم بها الأمريكان عجيبة ، تمحو كل شيء ، حتى الأشجار الكبيرة . كل شيء خارج القبو مسح تماماً ، ولم يبق إلا الطبقة السفلى من القبو ، الذي تحصن فيه ، من بقي حياً من الشباب ، أو الجرحى الذين نقلوا إليه، في بداية التمرد.

أجبر القصف المستمر والمتواصل ، طوال الليل .. الشباب أن يلزموا أماكنهم ، إلى قبل الفجر بقليل ، حينما توقف القصف. حاولوا بعدها ، أن يجدوا لهم حلاً ، كأن يبحثوا عن مكان آخر، ليتحصنوا فيه، قبل أن يطلع النهار ، ويهجم العسكر عليهم ، ويجهزوا على من بقي حياً .. خاصة وأن القصف أحدث ثغرات في القبو . فكروا ولم يجدوا حلاً.. عندها تذكرنا قول الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً). حين وصل بنا الأمر ، إلى هذه الحالة ، قام أحد الأسود الفلسطينيين ، وألقى كلمة رفع بها همم الشباب ، وحرضهم على القتال .. والصبر، وشوقهم إلى الجنان والحور، وما أعد الله للمجاهدين الصابرين. كان هو جريحاً ، ويخاطب شباباً أغلبهم جرحى. بعد مداولات، كان الحل الذي وصل إليه الشباب ، هو أن

يخرجوا ويختبئوا في السراديب القريبة ، وفي مجاري المياه ، وبعض الغرف المهدمة، لا أن ينتظروا العسكر، حتى يهجموا عليهم داخل القبو . رغم أن هذا هو الخيار الوحيد ، إلا أنه لم يُرَقْ لأغلب الشباب .. خصوصاً، مع وجود عدد كبير من الجرحى بينهم .

في الســـاعة الثامنة صباحاً ، من يوم الأربعاء ، وهو اليوم الخامس داخل القلعة ، الذي يوافق ١٤رمضان ١٤٢٢هـ، وكما توقع الاخوة ، دخل بعض العسكر، وتقاتل معهم الأخوان .. حتى الجرحى ، بالسلاح الأبيض، لأنه مع الأسف الشديد، لم يكن مع الشباب ، سوى رشاشين كلاشين ، واحد كان قد وضعه أحد الإخوة ، في مكان بعيد، فلم يستطع الشباب أن يحضروه ، والثاني بقي مع بعض الإخوان ، وعددهم أربعة ، وكانوا قد خرجوا من القبو ، إلى سراديب مجاورة . حين علموا باقتحام العسكر القبو على إخوانهم ، فكروا وقالوا : ما لنا إلا أن نـدخل القبو مرّه ثانية ، ونبقي هذا السلاح معنا ، لكي نحرس الشباب الجرحى فيه .. فدخلوا، وبدخولهم صار عسكر دوستم، يحكمون الخناق على الجميع ، ويسيطرون على كامل القلعة، إلا أجزاء القبو ، التي سلمت من التدمير ، وبقي الشباب متحصنين فيها .

حينما حوصر الشباب في القبو، وتأكد للعسكر، من أفراد الميليشيا، أنهم قد أصبحوا كلهم داخله ، صاروا يحضرون من الصباح ، ويتجمعون حول القبو ، ويبدأون بقذف القنابل وسكب البنزين، لإشعال النار .. ويستمرون في ذلك، إلى حين

وقت المغرب. تأثر الشباب من القنابل ، فقتل عدد منهم ، وجرح آخرون. أما البنزين فكنا لا ندري أنهم سكبوه، إلا إذا سمعنا صوت شيء يسيل ، أو شممنا رائحة .. فعندها نعلم أن هناك بنزين .. وأنهم ينوون إشعاله ، فيبدأ الشباب بالخروج من الغرفة، بعضهم يحمل أخاه الجريح ، الذي لا يستطيع أن يمشي ، ولكن الحمد لله ، فلم يحترق أي أخ بسبب إشعال البنزين .

في هذا اليوم، وصلت الأحوال إلى وضع سيء جداً ، وظهر الألم والإعياء واضحاً ، على وجوه الشباب . لكني .. أعيد وأقول، لاتظن يا أخي أن الشباب في تلك الظروف والأوضاع، كانوا مهمومين ومغمومين . كلا .. لقد امتلأوا بفضل الله، سكينة وطمأنينة .. وإيماناً بقدر الله ، واصطفائه لهم. يسلي بعضهم بعضاً ويتضاحكون ، حتى أنهم ، إذا رمى العسكر لهباً، لإشعال البنزين ، يقول بعضهم : يا شباب .. تعالوا .. يوجد هنا نار، نريد ماءً لإطفائها .. وهو يضحك. طبعاً .. لا يوجد مع الشباب قطرة ماء ، ولكنهم يقصدون ماء البول أكرمكم الله . ظلوا على هذه الحالة بقية يومهم ذاك ، وليلتهم ، حتى اسودت وجوه الشباب من الدخان، الذي خلفه البنزين المحترق . كانت الحال عسيرة جداً ، حتى أن الشباب ، في بعض لحظات الضيق .. لشدة ما لَاقَوه من عنت ونصب، يقول أحدهم : متى يأتيني الملك، صاحب الوجه الأبيض ، والثوب الأبيض، ويأخذ روحي، ويذهب بها إلى ربي .

في يوم الخـميس ، ١٥رمضان ١٤٢٢هـ ، وهو اليوم السادس لانتفاضة الأسرى ، داخل القلعة ، أُحْكِمَ الحصار على من بقي من الشباب في القبو، ولم يبقٍ معهم سوى سلاح رشاش واحد ، أما الآخر فأصبح معطلاً ، ولم يعد يعمل . ثلة صغيرة، محاصرة وجريحة ، يواجهون أمـــريكا وأذنابها . في ظل القصف الشديد، وحصار الدبابات والجنود المسلحين. واجه هؤلاء الأبطال ، بالشيء اليسير من الأسلحة ، عبّاد الصليب وأذنـــابهم ، بكل ما معهم من قوّة وعتاد . لقد بلغت القلوب الحناجر ، لكننا لم نظن بالله الظنونا . كنا موقنين أن قوة الله جل وعز معنا ، وأن موازين الأرض غير مـوازين السماء ، وأن لله سبحانه ، في كُلّ ما يجري .. حكمة . كان العسكر ، عندما يسكبون البنزين ويشعلونه، يخنق الدخـان الشباب ، فيأخذون لحافاً أفغانياً اسمه (بتو)، ويضعونه على الفتحة . كان اللحاف يمتص البنزين المشتعل ، فيخرج الدخان إلى الخارج .. فانظر إلى تأييد الله ، حتى البتو، اللحاف الأفغاني ، يدافع عن المجاهدين .

حينـما استيقن أفراد الميليشيا ، أن الحصار أحكم على الشباب ، داخل القبو ، تسلل أحدهم ، من خلال ثغرة في جدار القبو ، وأراد أن يضع شريحة .. لاقطة للإشارات ، لكي يساعد الطائرات الأمريكية ، على تحديد أهدافها، وقـصف الموقع بدقة. قبض الشباب عليه ، ونكّلوا به ، فأعترف أنه جاسوس ، فنفذوا فيه حكم الله .

ثم كانت محاولة أخرى ، لكسر مقاومة الشباب ، والقضاء عليهم . إذْ قبل غياب الشمس بقليل ، سكبوا الماء علينا،

من إحدى جهات القبو ، فظل الماء يرتفع ، حتى سقط إخوة جرحى، لم يستطيعوا أن يقفوا في الماء على أقدامهم .. وغـرقوا . أخذ الماء بعدها ، ينزل قليلاً قليلاً ، علماً أنه لا يوجد أي فتحات جانبية ، أو مسارب في أرضية القبو ، ولكنها حكمة الله، ورحمته بنا . حين غاض الماء ، انشغلنا بقية ليلتنا ، بتفقد بعضنا ، ودفن الإخوة الذين ماتوا .. رحمهم الله ، ونقل من لم نستطع دفنه، إلى خارج القبو، من خلال الفتحات ، التي أحدثها القصف ، حيث الطقس البارد .. حتى لا تتعفن جثثهم ، ثم نقوم بمواراتهم ببعض الأحجار .

في صـباح يوم الجمعة ، اليوم السابع من الحصار ، ويوافق ١٦رمضان ١٤٢٢هـ ، قص علينا أحد الشباب ، وهو ياسر الرميح، وكنيته أبو حبيب القصيمي ، رؤيا رآها في المنام . قال أنه رأى في المنام ، صديقه نجم الدين، الـذي كان قد قتل في أول الأيام.. وأنه سأله : كيف حالك يا نجم الدين ؟ فرد عليه نجم : أنا بخير وعافية .. ستزورنا اليوم يا أبا حبيب ، إن شـاء الله . كانت الرؤيا واضحة ، واستبشر أبو حبيب ، أنه سيلحق بصاحبه ، ورفيق دربه . لقد حدث ذلك فعلاً .. ففي الساعة الثالثة عصراً، عاود العسكر ، بعد أن تأكدوا من وجود أحياء ، صب الماء ، من عدة فتحات ، في أعلى جدار القبو . ظن الشباب في البداية ، أنهم هذه المرة، سيسـكبون الماء ، ثم يضعون الكهرباء ، لصعق من تبقى من الشباب ، فقاموا يودعون بعضهم ويقولون : دقـائق يا شباب ثم نجـتمع في جنة الخلد ، إن شاء الله . فمنهم من

قام وشرب ، وتوضأ من الماء المسكوب ، وبدأ يصلي .. وهو يقول : أموت وأنا أصلي . ومنهم .. خاصة الجرحى ، من استلقى على ظهره ، وقال : لسعة الكهرباء شديدة ، لذلك سأستلقى على ظهري.. أريدها أن تقتلني بسرعة .

لم يتوقف صب الماء ، مثلما حدث البارحة ، كما كان يتوقع الشباب، بل بدأ يرتفع ، حتى وصل إلى الساق ، ثم إلى الركبة، ثم إلى أعلى الصدر، لكن .. لم يكن هناك كهرباء. كانت خطتهم ، أن يستمروا في سكب الماء ، حتى يصل إلى حد، لا يستطيع معه الشباب ، البقاء في الماء لبرودته، لأنهم جائعون وجرحى . كما أنهم في الماء، لن يستطيعوا الوقوف والمقاومة، ولن يكونوا قادرين ، على السيطرة على أنفسهم، فيموتون غرقاً، أو يستسلمون . ظل الماء يعلو ويرتفع ، حتى وصل إلى حد الترقوة .
لا أستطيع أن أصف كيف كان الموقف . كنت أسمع أصوات مقاومة ضعيفة ، وفحيح حشرجات الصدور .. والغرغرة، من أجساد منهكة جريحة ، تحاول المقاومة ، لتطفو فوق الماء . أكثر الشباب جرحى ، لم يستطيعوا الوقوف .. فغرقوا . كانت هذه هي الرؤيا .. البشرى ، التي بشر بها أخونا نجم الدين ، أخانا أباحبيب القصيمي ، الذي كان مصاباً، لا يستطيع الوقوف . عندما بدأ الماء يرتفع، حمله أحد الشباب .. فبدأ يكلم الشباب. كان الظلام دامساً ، إلا أني رأيت وجهه يشع و يتهلل .. حينما أشعل أحد الشباب زنداً كان معه. صار يردد ويقول : غداً نلقى الأحبة.. غداً نلقى الأحبة.. يا شباب هل تعرفون سكرات الموت؟ ثم

صـمت برهة .. وَكَأنّ لسان حاله يقول : أين هي سكرات الموت ، التي نسمع عنها ؟ ثم سقط في الماء .. غريقاً شهيداً، في آخر ساعة من يوم الجمعة ، الذي يوافق ١٦ رمضان ١٤٢٢هـ .. ليلحق برفيقه نجم الدين ، وبقية الركب المبارك رحمهم الله جميعاً .

خنقت العبرة صوت هادي ، وهو يسرد رواية أبي سلمان ، عن أحوال الشباب في القبو .. في ساعاتهم الأخيرة ، وبدا أنه غير قادر على إكمال القصة ، لشدة تأثره .. فتوقف ، وصار يمسح عينيه . أبو طلحة وأحمد، كان التأثر بادياً على وجوههم ، لكن.. هناك بقية للقصة ، يودون سماعها . قال أبو طلحة :

- ماذا كان موقف الإخوة .. إزاء هذا الوضع ؟ .
- يقول أبو سلمان أن بعض الشباب ، كان يريد الاستمرار في القتال، ولكن الإخـوة تعـبوا كثيراً ، وليس معهم سلاح ، فقرروا الاستسلام .. بعد أن صار يقيناً لديهم ، أن العدو سيقتحم القبو، بمجرد تسرب الماء. بعضهم الآخـر ، ومنهم أبو سلمان نفسه ، كما ذكر لي ، اختاروا .. مع قدوم الليل، التسلل إلى خارج القبو .. والاختباء في بعض السراديب المتهدمة ، على أمل أن تواتيهم فرصة الافلات ، من الوقوع في الأسر .
- من الذي بقي حياً .. هل تعرف أحداً بعينه ؟
- لا أعلم عدد من بقي من الإخوة حياً، على وجه التحديد. لم يذكر أبو سلمان شيئاً عن ذلك، لكن الذين بقوا على قيد الحياة .. ولجأوا إلى القبو، بمن فيهم الجرحى، لا يقـلون عن ١٠٠ مجاهد، كما قال. جاءتنا أخبار ، أن الذين بقوا ، وتم أسرهم، أخذوهم من القلعة ، إلى سجن في مدينة مزار

شريف، ثم سمعت أنهم نقلوا إلى سجن في مدينة ثانية .. استعداداً لنقلهم إلى سجون أمريكية .

- من هم الذين تم اعتقالهم ؟

- لا أدري بالضبط . أبو سلمان ذكر أنهم في أغلبهم عرب ، وقليل من الباكستانيين .. لكنه لم يتحدث عن أسماء .

- كيف سنعرف مصير أبي القعقاع : برأيك ..؟

- ليس غير أبي سلمان ، يمكن أن يفيدكم .. لأنه هو الوحيد، الذي أعلمُ أنه بقي حياً ، ونجح في الافلات من الاسر.. من المجاهدين الذين تم حصارهم في القلعة ..! كما أن عليكم أن تستعجلوا ، حيث عرفت أنه سيغادر قريباً .. بمجرد أن يتعافى من إصابته ، لأن المخابرات الأمريكية ، والباكستانية العميلة .. جادة في طلبه .

-١٣-

فرحة أحمد بلقاء هادي .. اختنقت . كان سعيداً في البداية، أن استطاعوا الوصول إليه، وتضاعفت فرحته ، حين علم أنه كان مرافقاً لأبي سلمان .. الذي نجا من حصار القلعة ، ومذبحة الأسرى .. وأفلت من الأسر . رواية هادي لأحداث القلعة ، نقلاً عن أبي سلمان ، انتهت بكل تفاصيلها ، وأحداثها المأساوية ، دون أن توصله إلى نتيجة ، يعرف فيها مصير أخيه ، أبي القعقاع.

الشعور بالإحباط والخيبة ، أورده حالاً من اليأس .. فلزم الصمت ، وغشيته كآبة ، فلم يسمع كلام أبي طلحة ، وهو يناقش (هادي)، حول الوسيلة الأنسب للوصول إلى أبي سلمان، في مدينة كويتّا ، لسؤاله عن أبي القعقاع .. قبل أن يرحل .

كان هادي قد اقترح في البداية ، أن يذهبا إلى كويتا ، لمقابلة أبي سلمان، ولكنه استدرك في الأخير ، ورأى أنهما لن يتمكنا .. لأسباب أمنية:

- سيكون من الصعب عليكما .. أن تقابلاه . هو لا يعرفكما، ولن تجدا من يدلكما عليه ، وربما يثير سؤالكما عنه ، الشك .. فتتعرضان للأذى..!

- إذن .. ما هو الحل بنظرك ..؟

- لابد أن يذهب أحد يعرفه ، ويثق به .. أستطيع أنا أن أذهب، بمجرد أن أنهي بعض الأعمال ، خلال يومين .. أو ربما أقل . سيحتاج الأمر مني أسبوعاً .. على الأقل ، لأذهب

إلى كويتا .. وأعود .

– ونحن .. ماذا نصنع ؟

– تنتظران هنا .. أو إن شئتما تأتيان معي ..!

كان أحمد سارحاً ، حين التفت نحوه أبو طلحة ، ليستشيره في الانتظار، أو مرافقة هادي إلى كويتّا ، للالتقاء بأبي سلمان. الوضع النفسي ، الذي آل إليه ، بسبب الإحباطات المتتالية ، جعله غير قادر على التفاعل ، أو إبداء رأي . اقترح أبوطلحة أن يرافقا هادي ، لأن أخذ المعلومات مباشرة من أبي سلمان.. سيكون أفضل.

أبو طلحة كان في قرارة نفسه ، يميل إلى أن يذهبا إلى كويتا، لأنها ليست بعيدة عن كراتشي، فيما لو قرر أحمد العودة إلى الوطن، بعد أن يعرف مصير أبي القعقاع.. الذي بات أبوطلحة، شبه متيقن ، أنه غير موجود في أفغانستان أو باكستان. فهو أمّا أن يكون قد قتل في القلعة، أو اعتقله الأمريكيون ، مع الذين استسلموا ، وتم نقلهم إلى سجون أمريكية. هذا الخاطر.. لم يصرِّح به ، حتى لا يضاعف من معاناة أحمد ويزيد من إحباطه . أحمد بدوره ، لم يناقش أو يبدي اعتراضًا . أومأ برأسه موافقًا.

من الغد ، كانا ضمن قافلة ، متجهة إلى كويتّا. الطريق في معظمه ضيق ووعر . كان يتبع السهول ، وانبساط الأرض ، بين سلاسل جبلية ، مما جعله كثير الالتواءات . القافلة كانت مدججة بالسلاح ، لحمايتها من قطاع الطرق والمسلحين ، الذين كثر ظهورهم ، بعد انفلات الأمن ، إثر خروج معظم البلاد ، من سيطرة الحكومة المركزية ، لحركة طالبان .

سلكت القافلة، في معظم خط سيرها ، طريقًا يمر بمحاذاة الشريط الحدودي، بين أفـــغانستان وباكستان . في بعض المرات، كانت القافلة تعبر إلى داخل الحدود الباكستانية، لاستخدام طريق معبد ، بدلاً من الطريق الترابي في الأرض الأفغانية . لم يكن الطريق الباكستاني أحسن بكثير ، من ذلك الذي داخل أفغانستان، ســوى أنه أقل مفـاجآت ، نظرًا لقيام بعض العصابات، على الجـانب الأفغاني ، بقطع الطريق ، بوضع أحجار فيه ، أو حفر حفرة في وسطه ، لإجبار السيارات على الوقوف ، للسطو على ممتلكات أصحابها .

في صباح اليوم الثالث ، وصلت القافلة إلى نقطة حدودية ، يتم العبور منها ، إلى مدينة كويتّا ، التي تعتبر حاضرة الجنوب الغربي لباكستان . كويتّا تشبه مدينة بيشاور في الشمال .. بوابة هجرة اللاجئين الأفغان إلى باكستان . التجانس العرقي والقبلي في بيشاور أكثر ، حيث تنتشر القبائل البشتونية ، في مناطق الحدود المشتركة ، بين البلدين هناك . بينما هنا ... يمثل البلوش أكبر التجمعات العرقية .

عند نقطة العبور، كان هناك وجود أمني باكستاني كثيف . لاحظوا كذلك ، أن هناك تدقيقاً شديدًا على الهوّيات ، ووثائق السـفر . تهامس هادي وأبو طلحة .. التفت بعدها أبو طلحة إلى أحمد .. وقال :

– يفضل أن ننزل هنا ..

– هل هذه كويتّا ..؟

– لا .. ولكن هناك عناصر استخباراتية باكستانية ، تدقق في الهويات ، وقد يكون بينهم ، بعض عملاء الاستخبارات

الأمريكية.. وهذا قد يعرضنا للاعتقال ؛ لأن هناك استهدافًا للعرب ..

– وبعد ذلك ..؟

– ننتظر إلى الليل .. في القرية التي تجاوزناها، قبل قليل، ثم نحاول التسلل إلى كويتّا ، بمساعدة القرويين .

نزلوا .. وذابوا وسط حشد كثيف من الناس .. تم حجزهم في المكان ، بانتظار التدقيق في هوياتهم ، والتأكد من شخصياتهم . الزحام الشديد جعل الوصول إليهم ، أو التعرف على شخصياتهم صعبًا . كان ثمة خيام متناثرة في المنطقة . يوحي وجودها بأن فترة الانتظار هنا .. تطول ، قبل أن تسمح السلطات الباكستانية ، بدخول العابرين من هذه النقطة. ليس التدقيق الأمني وحده ، هو الذي يؤخر مرور هؤلاء الناس، بل كذلك بطء الإجراءات. تقوم الأجهزة الأمنية الباكستانية ، بإصدار وثائق شخصية، لكل فرد يعبر إلى الأراضي الباكستانية . العدد المحدود من الموظفين ، الذين يتولون إصدار الوثائق ، لا يفي بالحاجة ، أمام هذه الأعداد الكبيرة من الناس .

حين لجأوا إلى إحدى الخيام ، طلبًا للراحة والضيافة ، اكتشفوا أن الشخص قد ينتظر أيامًا ، قبل أن يأتي دوره . عليه أن يسجل اسمه أولاً، عند موظف مختص ، ثم ينتظر حتى يحين دوره ، ويحصل على الوثيقة، التي تخوله الدخول إلى باكستان.. والتنقل هناك . أثناء النقاش مع الأفغان .. أصحاب الخيمة، علموا أن هناك طرقًا أخرى للدخول غير الطريقة النظامية، وأن أصحاب الخيام ، ليسوا كلهم ينتظرون دخول باكستان ، وإنما يقدمون خدمات أخرى .. من بينها تسهيلات ، للراغبين في

الدخول بطريقة أسرع .. وأكثر أمناً ، على حد قولهم . تبادل هادي وأبو طلحة نظرات فضولية.. ثم سأل هادي :

- وما هي..؟

أجاب الأفغاني، وهو يرفع حاجبيه ، حتى انكمشت جبهته ، فاختفى معظمها تحت عمامته:

- رشوة الموظف الباكستاني.. أو طريقة أخرى ..

- مثل ماذا..؟

سأل أبو طلحة مستعجلاً ، ومتلهفًا. فرد الأفغاني ، وهو يمد ناظريه، باتجاه الحدود.. ويطيل النظر:

- الدخول من مكان آخر ، برفقة أشخاص ثقات ، يعرفون الطرق.

كان هذا هو ما يسعى إليه أبو طلحة وهادي . كانا مقتنعين ، أن رشوة موظف الأمن الباكستاني ، ليست مضمونة النتائج . الدخول من هنا، قد يكون أسهل وأسرع ، في الأوقات الاعتيادية ، لكن في ظروف مثل هذه، لا يستبعد أن تزرع المخابرات الباكستانية ، عملاء لها بين موظفي الهجرة، أو بين الوسطاء الأفغان ، الذين يتولون توصيل الرشوة . اتفقوا مع الأفغاني، على تهريبهم إلى باكستان ، وإلى مدينة كويتّا تحديداً .. وقدموا أنفسهم بوصفهم إيرانيين ، خاصة وأن لديهما إلماماً باللغة الفارسية .

حين حل الظلام ، تسللوا مع الأفغاني على دواب .. باتجاه القرية . بعد أن ساروا قرابة ساعة ، انعطفوا باتجاه الحدود ، ليجدوا في سفح أحد التلال شخصين ، ينتظرانهم على بغال، ومعهم ثلاث بغال أخرى.. أحدهم كان أحد الحاضرين في الخيمة ، ساعة الاتفاق .

ساروا في ممرات جبلية ضيقة ، ما يزيد على ساعتين ، وقبل أن يبزغ الفجر ، كانوا على أطراف المدينة . قادهم الأفغاني إلى قرب مسجد ، مبني من الطين والقش ، حفرت السيول أخاديد على جدرانه . أوقف بغلته ، ثم التفت إليهم .. وقال :

- هذا أقصى حد أستطيع أن أصل إليه . وراء هذا المسجد بمئتي متر ، يوجد سوق عامة ، يجلب الناس لها بضائع من كل مكان ، مع شروق الشمس تستطيعون أن تتدبروا أمركم . في السوق .. هناك كل شيء متوفر .

سأله هادي ، إن كان هذا ، هو سوق المدينة المشهور :

- هل هو سوق السبت الكبير ..؟

- نعم إنه هو .. ولحسن حظكم ، اليوم هو يوم السبت ..

نزلوا وحملوا أمتعتهم على ظهورهم ، وساروا باتجاه المسجد، الذي أشار إليه الأفغاني . ربط الدليل الأفغاني البغال ببعضها .. واقتادها ، بعد أن استلم أجرته . مقابل باب المسجد ، كانت هناك بئر ، وقربها بركة ماء. البرد قارس جداً ، وحين غمسوا أيديهم .. ليتوضأوا ، كان الماء يقترب من درجة التجمد . شعروا بأطرافهم تكاد تتجمد ، من شدة الصقيع .. فأوقدوا ناراً ، من بعض أعواد الخشب ، وكسراً من الحطب ، الذي تتركه القوافل، التي عادةً ما تنزل قريباً من المسجد ، لترد البئر ، وتسقي من الماء ، فيشربون ، وتشرب دوابهم .

كبرت النار ، بعد أن تجمع حولها عَدَدٌ من الرعاة ، وعابري السبيل، ممن يقصدون السوق .. فيما يبدو . كلما جاء شخص يطلب الدفء ، يأتي وقد حمل معه حطباً ، جمعه في طريقه .. ويلقيه فيها . أحاديث الرجال حول النار ، كانت ذات شجون . بعضها عن الحرب ، وبعضها عن السوق .. وما يجلب فيه . بعض

آخر ، يدور حول شؤون خاصة . هذه الأحاديث العفوية ، كفتهم مؤونة السؤال عن تفاصيل كثيرة ، كانوا يحتاجون معرفتها ، لمعرفة المدينة والتنقل فيها .. وأخبار عن السوق ، وما يباع فيه.

عند أذان الفجر ، انفض عن النار ، أكثُر من حولها . بعضهم ذهب باتجاه المسجد للصلاة ، وآخرون انصرفوا لشؤون أخرى. يسود جهل بتعاليم الدين، وتساهل في أداء الشعائر والعبادات، في أوساط أبناء القبائل والرعاة، من الأفغان والباكستانيين . تَرْكُ الصلاة أحدها ، والاتجار بالمخدرات أمر آخر .

حين خرجوا من المسجد ، كان نور النهار قد انبلج . ساروا باتجاه السوق .. حيث امتلأ المكان بالباعة والمتسوقين . بعضهم قد جلب بهائم ، وآخرون سجاداً وملابس صوفية ، ومنسوجات.. وهناك من يبيع أطعمة وآنية . الأسلحة أيضاً ، كانت موجودة، وتستأثر باهتمام الزوار . سمعوا أنه في إحدى زوايا السوق، يتخذ بعض الأشخاص مكاناً لهم ، يعرضون فيه مختلف الأسلحة . هناك وجدوا أسلحة شخصية ، تباع مباشرة ، وأسلحة ثقيلة، ليست معروضة هنا ، يتم التفاوض عليها . اقتناء السلاح تقليد قديم، في مناطق القبائل، بين باكستان وأفغانستان . ظروف الحرب حوّلته إلى تجارة ، وضعف سلطة الدولة ، في هذه المناطق جعل منه أمراً اعتيادياً.

ليس غير سوق السلاح ، يفيدهم في تحقيق هدفهم .. والوصول إلى أبي سلمان . حين كانوا حول النار ، سمعوا كلاماً عن أصناف الأسلحة التي تباع في السوق ، والأنواع التي عليها طلب .. أكثر من غيرها . تردد أيضاً ، في كلام الأفغان والباكستانيين ، الذين كانوا عند النار ، حديث عن العرب ، وشغفهم بالسلاح .. وأنهم أكثر من يدفع من أجل اقتنائها . عندما دخلوا السوق .. توجهوا

مباشرةً ، إلى حيث يتم بيع السلاح . كانت هناك أسلحة مختلفة معروضة . انتشر الباعة بعشــوائية ، على مساحة غير صغيرة.. استغرق منهم وقتاً غير قصير ، ليحيطوا بها. عندما قارب النهار أن ينتصف ، كانوا قد تجولوا في معظم السوق . قابلوا أشخاصاً كثيرين، لم يكن من بينهم عرب ، وافتعلوا عدة حوارات مع أفراد ، من الأفغان والباكستانيين ، حاولوا من خلالها ، تجميع معلومات، أو التقاط طرف خيط ، يقودهم إلى الغرض الذي جاءوا من أجله. حينما زالت الشمس عن وسط السماء ، انتحوا ناحية ، ورفعوا الأذان لصلاة الظهر.. ثم أقاموا الصلاة.

اصطفوا لأداء الصلاة ، ولم يكن هناك، لحظة شرعوا في الصلاة.. سوى ثلاثتهم ، أبو طلحة يؤمهم، وأحمد وهادي ، وقفوا مأمومين خلفه . أحمد.. إلى هذه اللحظة، لم يكن يدري ما هي خطة صاحبيه .. للوصول إلى أبي سلمان . ظل يسير معهما ، ويراقبهما .. وهما يتفحصان وجوه العابرين ، وباعة السلاح .. أو يدخلان في نقاشات ، بلغة لم يفهم منها شيئاً .. مع باعة ، أو متسوقين.

أبو طلحة وهادي ، كانا يأملان أن يجدا أحداً يعرفانه ، أو أن تفضي النقاشات ، مع من في السوق ، إلى معلومة تفيدهما . مع مرور الوقت.. وتجولهم الطويل والمضني في السوق ، أخذ اليأس يتسرب إلى نفس أبي طلحة . الحرب ، واستهداف المجاهدين العرب ، من قبل الاستخبارات الأمريكية والباكستانية، والباحثين عن الجوائز، من المخبرين وأفراد الميليشيات .. هو التفسير الوحيد ، لغياب العرب عن مناسبات مثل هذه. الحذر والتردد.. وربما الشك، كان سمة أحاديث، وحوارات الأفغان والباكستانيين معهم ، مما حال دون حصولهما على معلومات تذكر .

-١٤-

كان عدداً كبيراً ، ذلك الذي اصطف للصلاة معهم . حين التفت أبو طلحة إلى المصلين ، بعد الفراغ من الصلاة ، لاحظ وجود أكثر من صف، انتظم للصلاة خلفه . كانت مفاجأة له ، أن يرى وراءه ، كل هذا العدد من المصلين . شيء من الحزن والخيبة، الذي اعتراه من انصراف بعض من كان حول النار ، عن صلاة الفجر .. تلاشى ، وانقلب إلى سعادة، وهو يرى هذه الأعداد . عبر عن ذلك بآهة ارتياح .. أطلقها ، وهو ينقّل بصره من طرف الصف .. إلى طرفه الآخر .

أخذ يتـفرس في الوجوه .. ليكتشف المفاجأة الثانية . في أقصى طرف الصف الثاني .. رآه . كـان واقفاً ، يتم ما فاته من الصلاة . أحَدَّ نظره ، وأعاد الكرّة . أحمد وهادي كانا يتأملانه. تحديقه المتواصل ، يوحي بأن ليس ثمة شك ، أن عينيه قد وقعتا على شخص يعرفه . همس في سره : إنه هو . لم يستطع أن يواري بهجته عنهما ، ولا عن الجمع ، الذي اصطف للصلاة خلفه ، وجاهد ليبدو أمامهم جاداً ، مهموماً .. ففرّت من بين شفتيه ابتسامة رضا .

وجه أبي طلحة ، صار مثل مرآة تعكس المشهد ، فأضحت الانفعالات، تتناوب على قسماته . الابتسامة التي تسللت ، من بين شفتيه اليابستين ، فأشاعت غمامة فرح ، بللت محياه ، ووميض عينيه ، وهو يطيل النظر.. دفع هادي لأن يلتفت ، إلى

حيث تتسمر عيناه .. فرآه . رأى الشخص الواقف يتم صلاته، الذي كان أبو طلحة يحدق به . أعاد النظر إلى أبي طلحة ، وتبادلا نظرتين ، أعقبتهما ايماءتان خفيفتان ، من أحدهما للآخر . فهم هادي من ذلك ، أن أبا طلحة قد عرف الرجل . مما يعني أنه قد يكون الخيط ، الذي سيقود إلى أبي سلمان ، بحكم العلاقة الوثيقة ، التي تربط بين المجاهدين العرب .

ظل أبو طلحة جالساً ، رغم تفرق أكثر المصلين ، وقيام البقية لأداء نافلة الظهر . لم يشأ أن يبرح مكانه ، ولا أن يصليّ النافلة، خوف أن يغيب الرجل الذي رآه ، عن ناظره .. فيفقده . السوق مزدحم ، ولو غفل للحظة، فسوف يبتلعه الزحام ، وتضيع فرصة، ظل ينتظرها من فجر اليوم . كان مع حلول الظهر ، قد بلغ حافة اليأس ، من أن يقابل أحداً يعرفه . يشعر أن الله قد استجاب لدعائه ، فحينما وقف للصلاة ، والتفت لرفيقيه ، ليتأكد من انتظام صفهما خلفه ، وقع بصره على وجه أحمد . كان ثمة حديث طويل ومحزن ، تختزنه نظراته ، وينطق بها وجهه ، المثقل بالعناء . توجه بقلبه كله إلى الله .. لحظة شرع في الصلاة ، وسأله ألا يُخيّب مسعاهم .

كان الرجل قد أتم صلاته ، وَأَدّى النافلة ، ورفع يديه بالدعاء.. عندما قام أبو طلحه ، وسار نحوه . لم يكد الرجل ينتهي من الدعاء ، ويستعد للنهوض ، حتى ناداه أبو طلحة .. الذي صار على بعد خطوتين منه :

– حمد .. أبو الفداء ؟

رفع الرجل بصره ، وحدّق بذلك الذي يدعوه باسمه الأول ، الذي ليس معروفاً بين المجاهدين . للوهلة الأولى ، بدا الوجه له

مألوفاً ، لكن الذاكرة لم تسعفه في تذكّر الاسم . أدرك أبو طلحة، أن الرجل ، رغم إطالته النظر إليه ، عاجز عن تذكّر اسمه .. فبادره :

- هل نسـيت فايز.. أبو طلحه، رفيـق الحراسة في معسكر (صدى)، قبل ١٠ سنوات ..؟

كأنما انزاحت عن وجه الرجل غشاوة ، فبرقت عيناه ، وانشق فمه عن ابتسامة عريضة .. فهب واقفاً واحتضن أبا طلحة لدقائق .. وهو يردد :

- أبو طلحة .. أبو طلحة ، أهلاً بالحبيب .

- أي قدر جميل ساقك إلى هنا .. كأنك تدري ، أني كنت أبحث عنك..؟

رد مازحاً :

- من ١٠ سنوات ..؟

قالها وهو يضحك ، ويجرّه مرّة أخرى إلى صدره .

هادي وأحمد وقفا قريباً منهما .. يراقبان . أمارات السعادة والارتياح، بدت على وجهيهما . بالنسبة لهادي يبدو الموقف بداية انفراج ، لرحلة كادت تنتهي بالفشل .. كان هو من اقترحها، ويشعر بالتزام أدبي ومعنوي تجاه إنجاحها . أحمد ليس لديه كثير من التفاصيل ، حول الوسيلة ، التي يريد الرجلان اتباعها، للوصول إلى أبي سلمان ، صاحبهم .. الذي يجزمون أن لديه خبر شقيقه عبد الله . البهجة الطـافحة على وجه أبي طلحة، بلقاء الرجل الغريب ، الذي صلى معهم ، أوحى له ، أن تطوراً جيداً قد حصل ، في رحلة البحث عن أبي سلمان .

دار بين الرجلين حديث ، لعدة دقائق . كان أبو طلحة خلالها

يتحدث، والرجل ينصت ، ويهز رأسه باهتمام . التفت أبو طلحة إلى حيث يقف هادي وأحمد ، ورمقهما بعينين ، عادت إليهما السكينة .. وصار يلوح بيده، ويناديهما :

- تعالا .. تعالا .. جاء الفرج ..

وصلا إلى حيث يقفان ، فبادرهما مُعَرّفاً بالشخص الذي التقاه :

- أبو الفداء .. صديق عُمُر ورفيق جهاد . له من اسمه نصيب.. لا تخف على ظهرك من عدو ، إذا كان معك .

اكتسى وجه الرجل حمرة ، وهو يسمع كلمات الإطراء ، فقال على استحياء .. معاتباً أبا طلحة :

- لا تبالغ يا أبا طلحة .. فينخدع الأخوان بي ..!

- ألم تُغَطِّ انسحاب إخوانك في بغمان ، وتصد كتيبة مدرعة، وأنت وحدك .. في خندقك ..؟

استمر الرجل يغالب الحياء ، وظل مطرقاً .. ولم يعقب . هادي خشي أن يأخذ الحديث منحى شخصياً ، وأراد أن يتأكد ، من أن الرجل ، يملك معلومات عن المجاهدين ، يمكن أن تفيدهم في الوصول إلى أبي سلمان .. فقال :

- أبو طلحة استبشر برؤيتك ..

رد أبو طلحة :

- أبو الفداء سيأخذنا إلى مكان أبي سلمان .

تنهد أحمد ، وندّت منه آهة ، ثم اجْتَرّ نفساً عميقاً ، حينما سمع الرد. الآهة التي أطلقها ، وسمعها من حوله ، كانت مثل صافرة سفينة ، أعياها طول الإبحار ، وسط الأمواج العاتية.. فَلَاحَ لربّانها الشاطيء من بعيد ، فأطلق صافرته .. إيذاناً

بالوصول. انتبه أبو طلحة ، للشعور الذي انتاب أحمد، لدى سماعه قرب اللقاء بأبي سلمان، وهو ما عبر عنه ، بتلك الآهة العميقة، وبزخم كبير من المشاعر والتعابير.. تزاحمت على وجهه، وامتلأت بها عيناه . أراد أن يعزز الأمل في نفسه .. فقال :

- أبو الفداء يذكر أن أبا سلمان، لديه اهتمام بتوثيق كل ما له علاقة بالشباب العرب ، الذين اعتقلوا في قندوز ، ونقلوا إلى قلعة جهانجي .

ساروا مع أبي الفداء ، قاصدين البيت ، الذي يقيم فيه أبو سلمان. تعمدوا أن يسيروا عكس الاتجاه الذي يقع فيه المنزل . يمتلئ السوق بالجواسيس ، وعناصر الاستخبارات ، كما أخبرهم أبو الفداء .. الذين يبحثون عن مطلوبين ، رصدت جوائز لمن يدل عليهم . أحد هؤلاء أبو سلمان ، الذي صار مطلوباً بعد أن وقع في أسر الاستخبارات الأمريكية، عدد من الشباب ، الذين انتزعت منهم ، تحت التعذيب ، اعترافات عن قيادات الجهاد .

كان الهدف ، من سلوك طريق معاكس ، تضليل من قد يتبعهم من المخبرين . زواريب المدينة القديمة ، وأزقتها المتعرجة ، تجعل المهمة صعبة ، على أي شخص يتبعهم .. حيث سينكشف أمره بسرعة ، وسيكون بمقدورهم الاختفاء . بعد ما يقرب من ساعتين من المسير ، كانوا أمام باب، تربض بقربه بعض البهائم. من الخارج ، لا يبدو المكان مريباً ، ولا يوحي بأنه مأوى لشخص مطلوب .

بعد عدة طَرَقَات .. بإيقاع مختلف ، أطل شخص من كوّة في الجدار المقابل ، وقال جملاً متقطعة ، فرد عليه أبو الفداء بكلمة واحدة . كانت تلك كلمة السر . مرّت لحظات ، فُتِحَ بعدها باب ،

غير الذي كانوا يقفون أمامه .. وخرج شخص وناداهم ، بعربية تشوبها لكنة أعجمية . حين دخلوا البيت ، عبروا الفناء الأمامي، باتجاه غرف منفصلة ، تقع في عمق الدار، ويفصلها عنه حائط فيه باب . استقبلتهم .. لحظة اجتازوا الباب، رائحة مُطهرات طبية ، تنبعث من أول غرفة على يمين الداخل . عند بابها كان هناك أربطة مستخدمة، وقناني أدوية ، وَمطهّرات فارغة .. ملقاة بغير نظام ، في صندوق بجانب البـاب . قادهم الرجل إلى الغرفة الأخرى المجاورة لها ، التي هيئت لتكون للاستقبال . حين أخذوا أماكنهم .. قال الرجل :

- استريحوا .. سيعد لكم الأخوان شيئاً تأكلونه ، وإن احتجتم الخلاء، أو مكان الوضوء ، فهو هناك ..

انصرف .. بعد أن أشار إلى غرفة صغيرة منعزلة ، لا تبعد كثيراً ، يبدو أنها دورة مياه . في غرفة أخرى على يسار الداخل، صارت تسمع حركة متواصلة ، وتعلو أصوات قرقعة لأوانـي مطبخ . بعد فترة ، أخذت تتسلل إليهم رائحة طبيخ . كان ذلك هو المطبخ ، أما الغرفة التي على اليمين .. فتدل الرائحة المنبعثة منها ، والآثار التي حولها ، على أنها العيادة ، أو مكان علاج المصابين .

حين دخل وقت صلاة العصر، رفع شخص الآذان ، وبعد فراغه ، مد بساطاً طويلاً ، بدا لهم ، وهم يتجهون إلى دورة المياه للوضوء ، أو مكان الخلاء كما سماه الرجل ، أنه أكثر من حاجة أربعة أشخاص للصلاة . عندما أقيمت الصلاة ، اصطف معهم خمسة آخرون ، خرجوا من الغرفة، التي خصصت للعلاج . إصاباتهم كانت متفاوته . تأكد لهم الآن ، أن تلك الغرفة

للمصابين . لم يكن أبو سلمان بينهم ، وملامحهم تدل على أنهم باكستانيون أو أفغان . باب الغرفة المفتوح ، كان يمكن من خلاله، مشاهدة من في الداخل . ثمة ثلاثة أشخاص ، بقوا في الغرفة ، ولم يغادروا فُرُشَهمْ.

بعد الصلاة ، التفت أبو الفداء ، وقال لأبي طلحة.. محاولاً تبديد علامات الاستفهام في نظراته :

- الإخوة الذين لم يصَلّوا معنا .. منعتهم إصاباتهم . أبو سلمان ليس معهم ، فصحته جيدة الآن ولله الحمد .

علامات الاستفهام ظلت عالقة في عيني أبي طلحة وصاحبيه. أدرك أبو الفداء ، أن ما يريدون إجابة عليه ، ليس هذا ، بل .. أين أبو سلمان؟.. فأضاف :

- يقيم أبو سلمان هنا ، وتوقعت أن نراه في الصلاة .. ربما يشاركنا الطعام .

عادوا إلى غرفة الجلوس ، وانهمكوا في أحاديث مختلفة . صار ينضم إليهم ، بين وقت وآخر ، بعضٍ من في الدار ، بما في ذلك الرجال المصابون، الذين يتلقون علاجاً ، في الغرفة الأخرى. دارت أحاديث عامة ، إلا أن الأَحاديث الجانبية ، ظلت هي الغالبة. كان يبدو أن التوافد على الغرفة، ليس لغرض الحديث ، وإنما انتظاراً للطعام . إذ ما أن يدلف شخص مع الباب ، حتى تشرئب الأعناق . ثم حين يُتَبيّن أنه ليس من العاملين في المطبخ ، تطأطأ الرؤوس ، وتعود إلى سابق عهدها ، لتستكمل حديثاً انقطع .

مضى ما يقرب من ساعة ، قبل أن يدخل شخصان ، يحملان قدراً كبيرة ، ويضعاها قرب الباب .. أحد الرجلين شرع في مد سماط ، كان يضعه تحت إبطه ، أثناء حمله للقدر . الرجل الآخر انصرف ، وعاد بعد برهة ، يحمل معه مجموعة صحون ، يسع الواحد منها طعاماً، يكفي رجلين أو ثلاثة. صار يغرف من القدر،

ويناول الرجل الآخر ، الذي يضعها بدوره على السفرة. توقفت الأحاديث ، وتوجهت الأنظار للرجل الذي يغرف من القدر أرزاً أبيض ، قد انعجن من شدة الطبخ ، وكثرة ما تم تحريكه بعصا غليظة ، كانت ما تزال تطل من حافة القدر . حين انتهى الرجل من ملء الصحون ، التي كانت معه ، وتوزيعها على السماط ، أخذ مكانه على طرف السفرة ، بمقابل صاحبه الذي كان يحمل معه القدر .

كانوا منهمكين في التهام الرز ، الذي امتلأت به الصحون التي أمامهم، حينما دخل رجل وألقى السلام ، ثم قال عبارة ، ضحك منها الرجلان ، اللذان وضعا الطعام على السفرة .. ثم جلس قريبهما . ما أن استقر به المقام ، حتى أخذ يتفرس في وجوه الحاضرين ، وأطال النظر إلى أحمد .. ثم قال ، بعد أن وقعت عيناه على هادي ، وابتسامة عريضة تملأ وجهه :

- لا أصدق عيني .. أي ريح طيبة حملتك ؟

نظر هادي إليه ، و قال وهو يبادله الابتسامة :

- أبو الفداء طالع سعد .. لو لم يُيسّر الله لنا رؤيته ، ما كان لنا أن نهتدي إليكم .

- هؤلاءِ ضيوفك ..؟

- جئنا معاً .. نبحث عنك ..!

ابتسم ، ورد بدعابة :

- عني .. ؟ ما عندنا هنا ، إلا هذا العصيد الأبيض .. رز وماء . قلت لنظيم وشوكت ، قبل قليل : متى تلطخان هذا العصيد الأبيض ، بقطع سوداء .. أقصد لحم ..؟

- الإخوة لديهم موضوع ..

- نتحدث به بعد الطعام .

-١٥-

أبو طـلحة وأحمد عرفا ، من حوار هادي القصير مع الرجل، أن هذا هو أبو سلمان . كـان أبو سلمان يجول بنظره على الحاضرين ، ثم يطيل التحديق بأحمد . بعد أن فـرغوا من تناول الطعام ، أخذ أبو سلمان هادي بالأحضان ، وحيّا أبا طلحة وأحمد ، ثم انتحى ناحية من الغرفة ، وشرع في حديث خافت مع هادي .

استرجع في حديثه مع هادي ، جزءاً من ذكرياتهما ، بما في ذلك الفرار من قلعة جهانجي ، أخبره هادي بخبر رفيقيه ، أبو طلحة وأحمد ، وقصة بحـثهما عن شقيق الأخير . اقترح عليهم أن ينتقلوا إلى غرفته ، ليستمع إلى تفصل أكثر ، بعيدا عن أحاديث الإخوة الآخرين ، الموجودين في غرفة الاستقبال . توجهوا إلى غرفة كانت في الجانب الآخر من الدار. في الطريق إليها ، شرع أبو طلحة يتحدث بإسهاب ، عن رحلة بحثهما عن شقيق أحمد ، وأبو سلمان خلالها ، يصغي باهتمام . عند باب الغرفة قال أبو سلمان :

– أعددت قائمة بأسماء بعض الإخـوة العرب، ممن استشهدوا، وتيسر لي الحصول على معلومات أساسية عنهم.خاصة أسماءهم، وَكُنَاهُمْ ، وأماكن إقامتهم في بلدانهم .

دخلوا الغرفة ، فاتجه إلى صندوق معدني ، كان إلى جانب الفراش ، الممدود في زاوية الغرفة ، وأخرج منه أوراقاً ، بأحجام

مختلفة . قلب الأوراق ، وانتزع منها كومة أوراق ، كتب عليها بأحبار من كل لون . في هذه الأثناء طُرق باب الغرفة ، ثم أطل رجل أخبره أن هناك شخصاً ، يلح على رؤيته ، ويقول أنه من طرف شمس الرحمن في كراتشي . مد الأوراق لأبي طلحة ، وقال :

- هذا رسول الرجل الذي سيرتب أمر سفري إلى خارج باكستان .. أنا مضطر أن أخرج لمقابلته . تأملوا هذه الأوراق، وقائمة الأسماء التي فيها .. لعلها تفيدكم في شيء ..!

ناولهم الأوراق .. ثم نهض وخرج .

بسطوا الأوراق أمامهم . في أعلى الورقة الأولى ، تصدرت هذه العبارة: أسماء شهداء قلعة جهانجي بمزار شريف . أخذوا يستعرضون الأسماء ، ويتفحصونها بعناية :

١) عمر الجمهور : كنيته أبو دجانة النجدي ، يسكن في الرياض ، حي السلي .

٢) ناصر اليماني : كنيته قعقاع الحارثي ، يسكن في الرياض.

٣) عبد الكريم الشهري : كنيته أيوب النجدي ، يسكن في الرياض ، حي النسيم .

٤) فيحان العتيبي : كنيته أبو تراب النجدي ، يسكن في الرياض .

٥) الشيخ أبو عبد الرحمن النجدي : قاضي ، طويل القامة، أسمر اللون ، إمام مسجد ، يسكن في الرياض .

٦) خالد سعد العتيبي : كنيته أبو سعد النجدي ، يسكن في الرياض.

٧) ياسر الرميح : كنيته أبو حبيب القصيمي ، يسكن في الرياض ، حي الربوة .

٨) نايف المعجل : كنيته أسامة البحريني ، يسكن في الرياض، حي الشفاء .

٩) صالح المسند : كنيته النبراس الشمالي ، يسكن في القصيم في بريدة ، حي البصيرية .

١٠) عبد الملك الربيش : كنيته بشر القصيمي ، يسكن في بريدة ، حي الصناعية.

١١) عبد الرحمن السليماني : كنيته مصعب العربي ، يسكن في الطائف ، حي الشطبة .

١٢) أحمد الوظاف : كنيته عاشق الحور ، يمني يسكن في الطائف ، حي الشطبة .

١٣) محمد الحربي : كنيته مثنى المكي، يسكن في مكة، حي العتيبية.

١٤(ياسر المطرفي : كنيته عمار المكي ، يسكن في مكة، حي العتيبية.

١٥) موسى الجيزاني : كنيته خباب المكي ، يسكن في مكة .

١٦) إبراهيم الزهراني : كنيته عمير الجداوي ، يسكن في جدة .

١٧) بركات علي القرني : كنيته أبو زياد الجداوي ، يسكن في جدة ، حي المنتزهات .

١٨) عبد العزيز العمري : كنيته عطية الزهراني ، طويل القامة والشعر .

١٩) وعيد الحربي : كنيته مسلم الحربي ، يسكن في جدة ، حي الجامعة .

٢٠) أحمد هاشم الحربي : كنيته أبو هاشم الحربي ، يسكن في جدة، حي النزهة .

٢١) خالد محمد الحربي : كنيته عاصم المدني ، يسكن في المدينة ، بالدويمة .

٢٢) عبد الله مطيران الحربي : كنيته أبو بكر المدني ، يسكن في المدينة ، بالدويمة .

٢٣) بندر اللقماني : كنيته خلاد المدني ، يسكن في المدينة ، حي الجبور .

٢٤) حسن الحديدي : كنيته أبو عمر الحديدي ، أصله يمني، يسكن في مكة .

٢٥) ناصر المطيري : كنيته عزام الجلاوي ، يسكن في جدة .

٢٦) ماجد الحربي : كنيته طارق الحربي ، يسكن في جدة .

٢٧) خالد البطي : كنيته أبو ذر النجدي ، يسكن في حفر الباطن .

٢٨) خالد : كنيته أبو حفص النجدي ، من أقرباء خالد البطي، يسكن في حفر الباطن .

٢٩) فواز جزاء الذيباني : كنيته أبو حذيفة التبوكي، يسكن في تبوك.

٣٠) أحمد الجوفي : كنيته أبو القعقاع التبوكي ، أصله من اليمن ، يسكن في تبوك .

٣١) خالد العجمي: كنيته أبو حيدرة الكويتي، من أهل الكويت.

٣٢) زيدان الشهري : كنيته أبو زيد الشهري ، قتل في القصف الأمريكي على القلعة ، قتل وهو يصلي العصر .

٣٣) عادل الشهراني : كنيته أبو شداد ، يسكن في بلجرشي.

٣٤) أبو معاذ المكي : من أهل مكة ، طويل ثخين الصوت .

٣٥) ماجد: كنيتة سارية المكي، من أهل مكة ، طويل القامة.

٣٦) أبو حيدره المكي: المشهور بقصيدة (طاح كرت البعير).

٣٧) عبد الله : كنيته صفوان ، يمني يسكن في جدة .

٣٨) أبو عبادة الحجازي الشهري : حنطي اللون، نحيف الجسم ، متوسط القامة .

٣٩) وليد الحضرمي : أسمر اللون ، أبوه عنده محلات مكيفات ، يسكن الرياض .

٤٠) سلمان : كنيتة فاروق الحارثي ، طويل القامة ، فيه لتغه في اللسان، يسكن بالرياض .

٤١) أبو حذيفة الشرقي : أبيض اللون ، أمرد نحيف ، يسكن بالشرقية.

٤٢) أبو البتار الشرقي : صاحب أبو حذيفة الشرقي ، أسمر اللون .

٤٣) ماجد ثواب الثبيتي : من أهل الطائف ، شاب صغير جداً .

٤٤) أبو النصر النجدي : نحيف ، هاديء الطبع ، يسكن الرياض .

٤٥) محمد عبد الله الشنقيطي : يسكن في المدينة ، بحي السيح .

٤٦) أبو زيد البدري : حنطي اللون ، يلبس نظارات ، يسكن بالمدينة .

٤٧) صالح : كنيته مصعب العوذلي ، يمني ، يسكن في جده.

٤٨) أبو المعتصم الزهراني : قصير القامة ، فيه صلع في الرأس ، طويل اللحية ، أبيض اللون ، يسكن في الشرقية .

٤٩) أبو عبد العزيز العسيري : طويل القامة ، أبيض اللون ، يدرس في كلية المعلمين بعسير ، بأبها.

٥٠) محمد الحضرمي : كنيته عبد السلام الحضرمي ، قائد العرب في الشمال ، يسكن عدن .

٥١) عبود الحضرمي : كنيته عثمان الحضرمي ، ابن عم عبد السلام الحضرمي ، يسكن في حضرموت .

٥٢) أبو يعقوب الأردني : طويل القامة ، أبيض اللون ، له لحيه طويلة وشقراء ، كان في جماعة التبليغ في الأردن ، قدم من أوروبا .

٥٣) مراد : كنيته أبو عبد الله التونسي ، أبيض اللون طويل القامة ، يسكن في ألمانيا .

٥٤) أبو العطاء التعزي : طويل القامة ، خفيف اللحية جداً ، أبيض اللون ، يمني درس في جامعة الإيمان ، بصنعاء .

٥٥) أبو هاجر القصيمي : يسكن بالرياض ، في حي السلي.

٥٦) أبو عبد المعطي الجداوي الحربي : كان يعمل سائق نقل جماعي، متزوج من باكستانية .

٥٧) أبو جنيد : من أسرة ثرية ، أصله هندي ، أمرد يلبس نظارة ، حافظ للقرآن الكريم ، يسكن في مكة .

٥٨) أبو حكيم التعزي : كنيته مقاتل ، خفيف اللحية ، أبيض اللون أبوه أحد مشايخ القبائل ، يسكن اليمن .

٥٩) أبو عبد العزيز النعماني : متوسط القامة ، يلبس نظارات، من اليمن .

٦٠) أبو صابر : كبير في السن، أصلع الرأس، مغربي من سكان ألمانيا.

٦١) أبو عبد الرحمن الكردي : طويل القامة ، أبيض اللون ،

من مدينة السليمانية ، من العراق .

٦٢) أبو ياسر العدني : أبيض اللون ، عريض الوجه ، جعد الشعر ، متوسط اللحية ، من اليمن .

٦٣) عبد الله : كنيته أبو الحسن الأبيني ، أحد القادة ، حنطي اللون، سجن في عهد النظام الاشتراكي ٨ سنوات ، من اليمن .

٦٤) سامي : كنيته أبو عمر العدني ، نحيف الجسم ، خفيف اللحية ، حنطي اللون .

٦٥) بسام : كنيته أبو حمزة العدني ، أبيض اللون ، خفيف اللحية .

٦٦) أبو مغوار التعزي : حنطي اللون ، جعد الشعر ، هادىء الطبع ، من اليمن .

٦٧) أبو مهند التعزي : أسمر اللون ، صغير القامة ، كان مسئوولاً عن الإعلام في جبهة الشمال ، من اليمن .

٦٨) أبو اسماعيل الحضرمي : أسمر اللون ، يسكن في حضرموت ، في المكلا ، من اليمن .

٦٩) أبو عكرمة الحضرمي : أسمر اللون ، جعد الشعر ، من اليمن .

٧٠) أبو هاجر الحضرمي : أسمر اللون مبحوح الصوت ، من اليمن .

٧١) أبو ثابت القطري : طويل القامة أسمر اللون ، من قطر.

٧٢) بابا : عبد الله البسنوي ، من أفريقيا ، أسمر اللون ، قتل في الانحياز إلى قندوز ، يسكن مكة .

٧٣) طلال : كنيته أبو غريب الصنعاني ، صار قائد العرب بعد مقتل عبد السلام، جعد الشعر، عيونه عسلية ،

حنطي اللون، من اليمن .

٧٤) نجم الدين ابن الصامت : صاحب أبو العطاء التعزي ، متوسط القامة أبيض اللون ، خفيف اللحية من اليمن .

٧٥) أبو جهاد الصنعاني : حنطي اللون ، متوسط القامة واللحية ، جعد الشعر ، من اليمن .

٧٦) أبو زهير الليبي : متوسط اللحية والجسم والطول ، حنطي اللون، مبحوح الصوت ، من ليبيا .

٧٧) سمرقند : أبيض اللون ، خفيف اللحية، متين قليلاً ، كان قد سجن في سجن الرويس ، يسكن في جدة .

٧٨) أبو حمزة المطيري : كنيته سيف الكويتي ، حنطي اللون، بدوي اللهجة ، متوسط الجسم واللحية ، من أهل الكويت .

٧٩) أبو عبد السميع الليبي : كبير في السن طويل اللحية ، أبيض اللون، من ليبيا .

٨٠) أبو عمر الحبيب : أسود البشرة ، نحيف الجسم ، خفيف اللحية.

٨١) طلحة المكي : حنطي اللون ، متوسط اللحية والجسم والطول ، من مكة .

٨٢) عبد الله : كنيته أبو أيمن اليمني ، قصير القامة جداً ، ومتين الجسم ، متوسط اللحية ، من اليمن .

٨٣) أبو فاروق المغربي : طويل جداً ، أبيض اللون ، متوسط اللحية ، رجل رياضي ، من المغرب أو الجزائر .

٨٤) أبو عبد الملك النجدي : أشقر الشعر ، أبيض اللون ، كأنه شامي، من القصيم .

٨٥) فارس : كنيته أبو عيسى الجداوي ، طويل اللحية والشعر، من جده .

٨٦) أبو بصير : وهو أخو فارس ، طويل الشعر ، متوسط اللحية ، أبيض اللون .

٨٧) أبو حبيب النجدي : أبيض اللون ، جعد الرأس ، هادئ الطبع ، من أهل اليمن .

٨٨) أبو صلاح الدين الحساوي : حنطي اللون ، أنفه أفطس ، من الشرقية .

٨٩) ماهر العلوي : كنيته جعفر المدني ، يسكن في المدينة ، بالدويمة .

٩٠) محمد اللهيبي : كنيته مثنى الخولاني ، يسكن في جدة، بحي قويزة .

استعـرضوا الأسماء أكثر من مرّة ، ولم يجدوا من بينها اسم أبي القعقاع . مرّ وقت ، عاد بعدها أبو سلمان ، فأخبروه أنهم لم يجدوا شقيق أحمد .. عبد الله الشاهد ، بين الأسماء . أخذ الأوراق منهم .. وبدأ يعيد قراءتها ، ويتأكد من أرقام الصفحات، وتسلسل أرقام الأشخاص ، ثم فجأة توقف .. وقال :

- هل عرف بكنية، أو اسم غير هذا، في أوساط المجاهدين..؟

رد أبو طلحة :

- نعـــم .. هو لا يعرف بين المجاهدين ، إلا بأبي القعقاع النجدي .. أو آر . بي . جي .. !

وضع أبو سلمان الأوراق على الأرض، ورفع بصره إليهم.. وقال:

- أبو القعقاع .. آر . بي . جي ..؟

ثم التفت إلى أحمد ، وقال وهو يطيل النظر إلى وجهه :

- أبو القعقاع .. شقيقك ..؟ من أول مرّة وقع فيها نظري عليك ،

ونحن على السفرة ، وأنا ألحظ شبهك الشديد به .. وكدت أسألك ، ماذا تكون له .

فرح أحمد بمعرفة أبي سلمان بشقيقه عبد الله .. فقال بلهفة :

- هل تعرف عنه شيئاً ..؟

- صاحبي .. كان معنا في القلعة ، وكان آخر عهدي به ، حينما خرجنا، أنا وإياه من القبو ، نستقصي أحوال العدو .. في محاولة منا ، للفرار من القلعة ، فانفجرت بجانبنا قذيفة ، أسقطتها طائرة كانت تحوم فوقنا . دخلت بعدها في غيبوبة، ولم أفق إلا حينما يسر الله لي هادي ، وحملني إلى خارج القلعة .

تدخل هادي .. وقال :

- كان بجانبك رجل متوفى ، مزقته القذيفة ، ووقع عليه معظم الأنقاض، التي كان قد وقع عليك بعضها .

- هل تتذكر ملامحه ..؟

- الظلام لم يجعل ممكنا .. التعرف على ملامحه ، كما أن الأنقاض التى حدثت بفعل انهيار الجدار، قد غطت معظم جسمه ، وجزءاً من وجهه .

- هل تتذكر نوع الملابس التي كانت عليه ..؟

- لا .. لكني تذكرت شيئاً مهماً . حينما كان اللص الأفغاني، من ميليشيا دوستم ، يحاول أن ينزع خاتماً ، كان في خنصر يده اليمنى ، لاحظت .. أن الطرف الأعلى لأصبع سبابته ، كان مقطوعاً ..

أجهش أحمد بالبكاء ، أما أبو سلمان فقد ضم كفيه لبعضهما، وطأطأ رأسه ، فسقطت دمعة على الأوراق ، التي وضعها على

الأرض بين يديه . مرّت لحظات صمت ، سحب بعدها الورقة الأخيرة ، من بين الأوراق التي معه ، ثم دس يده في الجيب الداخلي لثوبه ، وأخرج قلماً .. وكتب :

٩١- عبد الله الشاهد ، كنيته أبو القعقاع النجدي .. الشهير بـ (آر . بي . جي). استشهد في القلعة ، بقذيفة أمريكية ، وهو من سكان الرياض، حي الشهداء .

-١٦-

توجه أحمد إلى كراتشي ، عائداً إلى الرياض .. في قافلة كان فيها أبو سلمان ، دون أن يترافقا . كان رأي أبي سلمان ألّا يجتمعا في القافلة :

- ليس من المصلحة أن يراك أحد معي . لو حدث هذا ، فستتعرض لمشاكل كثيرة مستقبلاً .. الأيام القادمة حبلى بالمشاكل ، ولا أريد أن تتحمل تبعة أعمال لم تقم بها .

مطار كراتشي كان مكتظاً بالمغادرين والقادمين ، مثلما شاهده حين قدومه ، قبل عشرة أيام .. وربما أكثر . كانت هناك حركة غير اعتيادية، لعناصر أمنية ، باكستانيين وأجانب . يتحدث الشباب عن إجراءات جديدة، مثل تصوير جواز السفر ، وعن مكتب منزو في الطرف الأقصى من الصالة، يقال أنه لضباط مكتب التحقيق الفدرالي الأمريكي . هناك حراسة مشددة على المكتب ، يخرج منه ويدخل ، أفراد باكستانيون ، وآخرون بملامح غربية .. يرتدون ملابس مدنية . معظم المغادرين من الشباب العرب ، اتخذوا لهم مكاناً ، في جانب من جوانب صالة المغادرة. افترشوا الأرض ، وتوزعوا على مجموعات . شعر بالوحدة ، ورغب في أن ينضم إلى إحدى هذه المجموعات إلى حين وقت السفر .

صار يمشي ، وينقّل بصره بين الأفراد المتناثرين . لا يعرف أحداً ، وفي ظروف كهذه ، يكون توجس الناس من بعضهم ، في

أعلى مستوياته ، ولا يكون سائغاً ومقبولاً ، أن يقتحم على أحد خصوصيته . هو أيضاً ، قلق ومتوتر. وصية أبي سلمان له ، قبل أن يفترقا .. ما زالت حاضرة :

" احفظ عليك لسانك ، عند من لا تعرف .. وتجنب الخوض في ما لا ينبني عليه عمل ، لأنك إن وقعت ، ستحاسب على الذي فعلت ، والذي لم تفعل " .

اعتاد أن يحكم على الناس ، الذين يلتقي بهم لأول مرّة ، من ملامح وجوههم ، ونظرات أعينهم .. بحكم قراءاته الكثيرة في علم النفس . يتذكر أنه قرأ في إحدى المرّات أن الارتياح النفسي ، سلوك فطري ، غير مرئي، يحدث بشكل عفوي ، عند التقاء بعض الناس ببعض .. للمرة الأولى . في إحدى المناسبات ، قال له شخص، التقى به للمرّة الأولى.. بعد حديث طويل بينهما: "أحببتك من أول وهلة" . رد عليه : بأن هذا له أصل في النفس البشرية ، وقد أثبت عدد من الدراسات ، أجريت على مجموعات كثيرة من الناس ، صدق هذا الشعور : الحدس البشري ، دقيق في هذه المسألة .. غالباً .

كان هذا التفكير يجول في خاطره ، وهو يتفحص الوجوه ، بحثاً عن وجه يهوي إليه فؤاده . حانت منه التفاتةً إلى اليمين، فوقعت عيناه على وجه .. بين جمع من الأشخاص ، يحدق صاحبه به . التقت نظراتهما ، فبادره الشاب بابتسامة ، ورفع يده .. وَحيّاه . وجد أنه تلقائياً ، قد انجذب إليه .. فابتسمَ ولَوّح له بيده . خيلِ إليه أنه دعاه. هل فعل..؟ لا يدري .. لكنه وجد نفسه مشدوداً نحوه ، ويسير باتجاهه :

- السلام عليكم .. مسافرون إلى الرياض ..؟

- نعم تفضل ..

كانوا يفترشون الأرض ، على شكل دائرة ، وحولهم تكومت أمتعتهم الشخصية . أفسحوا له ، فأخذ مكانه بينهم . أحصاهم بنظرة سريعة ، فوجد أن عددهم يقارب الثلاثة عشر شاباً . ليسوا في سن واحدة ، بينهم من لم يكمل عامه العشرين ، وأغلبهم فوقها بقليل . لهجاتهم المختلفة، توحي بتباين المناطق التي ينتمون إليها . تركز الحديث .. في أكثره ، على تسارع وتيرة الأحداث، والانهيار السريع لحكومة طالبان. اختلفت التحليلات ، لكن .. هناك إجماع ، على أن القصف الجوي الأمريكي المكثف، على دفاعات طالبان ، في المدن الرئيسة ، وعلى تجمعات أفرادها .. وعلى المناطق السكنية ، كان عاملاً حاسماً في المعركة .

ثمة إحساس عميق بينهم .. بالإحباط ، وشعور متنام بالكراهية.. لأمريكا . النظرات المصوّبه على الغربيين ، الذين يخرجون ويدخلون في المكتب ، الموجود في طرف الصالة .. ويعتقد أنهم أمريكيون ، كانت مملوءة رغبة في الانتقام . يعلق أحد الموجودين، وهو يطيل النظر إلى رجل غربي، يعبر الصالة من منتصفها ، متجهاً إلى طرفها الثاني :

- آه ه ه .. يا زين ذبح الخبيث الكافر .. هذا ..! والله ما ينفع في هؤلاء .. إلا الذكاة .

تعليقات مثل هذه ، كانت تتسرب إلى اللاشعور ، لتستقر في أغوار العقل الباطن .. عبر ندوب عميقة ، أحدثها الغزو الأمريكي.. وتداعياته . أحاديث الهزيمة ، وذكرى ضحايا القصف الجوي .. وانهيار حلم الدولة المسلمة ، كانت تعمق هذه الندوب ..

وتوسعها ، لتتحول إلى مسارات يأس مظلمة .. ووحيدة ، تكتسي أجواؤها بلون الـــدم ، وتصرخ في جنباتها دواعي الانتقام ، ويدفع جحافل عنفوانها الإحباط .. ويبررها العجز الرسمي والشعبي العام .

صورة عبد الله .. قتيلاً في القلعة ، استحالت جرحاً غائراً في وجدانه، يحس به مثل بئر سحيقة ، تتسع فوّهتها ، مع كل حديث يسمعه، ممن حوله من الشباب ، عن جرائم الحرب ، وتوحش الغزو الأمريكي ، وهمجية الميليشيات . قفزت إلى خاطره ، وقائع حـــديث فضل الله ، عن مذبحة الحاويات ، واستعاد وصف مشهد قتل الأســـرى ، داخل القلعة، فاضطرمت نار الحقد ، في بئر أعماقه الهائلة . داعي الثأر .. عوى في شرايينه، واتسعت (البئر) ، لاستقبال مزيد من قصص الموت المجاني، الذي أحدثه الغزو الأمريكي .. من إبادة المدنيين بالطائرات ، إلى قتل الأسرى في الحاويات .

كـــان سارحاً ، لا يشعر بالناس والأشخاص من حوله .. مصيخاً إلى عويل ، يأتي من لجة البئر.. في أعماقه ، التي صارت تبتلع الأشياء ، وتهوي في قعرها الصور والأحاديث ، فلا يراهم ، ولا يسمع .. اللغط الصاخب حوله . ازدحمت دائرة الشباب ، مع قدوم وافد جديد ، انزلق بينهم .. إلى جانبه. العويل في أعماقه يصعد ، محمولاً على آهات حرّى ، وصل حميمها إلى عينيه .. فسالتا . التفت لصوت بجانبه ، يهز صاحبه كتفه ، ويطيل النظر إلى عينيه المغرورقتين بالدمع :

- فقدت عزيزاً ..؟

انتبه على السؤال . كان اللغط قد خفت ، والأعين جميعها

مشدودة إليه .. تتأمل وجهه . صاحب الصوت ، كان يطيل النظر إليه .. ويتفحصه. يتذكر أنه رآه من قبل .. فبادره الشاب :

- كأننا التقينا من قبل ..؟
- ربما .. لا أدري .
- ألست الذي جاء لمكتب جمعية الهلال الأحمر السعودي ، قبل حوالي أسبوعين ، تبحث عن شقيقك ..؟
- نعم. أنت .. أنت .. أنت صاحب ..
- أجل يزيد .. صاحب التبرعات . ألم تعثر على شقيقك..؟
- بلى .. قتل ..! قتلته قذيفة أمريكية.
- رحمه الله .. لعن الله الأمريكان .
- وأنت .. ماذا فعلت ..؟
- رفض المكتب استقبال التبرعات . قالوا لا يوجد أحد يستلمها ، والحكومة الأفغانية ، قد تسقط في أي لحظة .. اضطررت لتوزيعها ، على مجموعة من المجاهدين العرب ، الذين دخلوا أفغانستان .

سأله عن ظروف قتل أخيه ، فذكر له قصة أسره ، ثم قتله في القلعة.. وعرّج بشكل سريع ، على قصة أسرى الحاويات. التفت يزيد إلى بقية المجموعة ، وأخبرهم أن أحمد ، كان قد جاء يبحث عن شقيقه ، الذي قتله الأمريكيون . تعالت عبارات العزاء، ولعن الأمريكيين، والدعاء بهلاكهم .. من قبل الموجودين.

روى أحمد تفاصيل ما جرى . قصة قتل الأسرى في القلعة، أجّجت المشاعر. كل واحد من الحاضرين، صار يتحدث عن قريب أو صديق ، ربما يكون بين من قتلوا . مشاعر الغضب، وَأَيْمَانُ الوعيد

والتهديد ، بالانتقام من الأمريكيين ، لم يكن ينقصها.. لتتعالى وتيرتها ، إلا جرح آخر في كرامتهم ، يفتحه أحمد.. بروايته لحديث فضل الله ، عن مذبحة الحاويات . روى لهم ما سمعه من فضل الله، عن قيام أفراد القوات الأمريكية الخاصة ، بكسر رقاب الأسرى ، وقذف الأسيد في وجوههم ، وضربهم لبعضهم ، حتى الموت .. وإحراقهم لجثث آخرين ، قتلوا تحت التعذيب .

أحمد الذي كان ، قبل مقتل أخيه ، يجادل في دور أسامة بن لادن ، في هذه الحرب ، ويحمّله مسئوولية الأحداث ، بسبب التفجيرات ، التي استهدف فيها مصالح أمريكية ، في بعض دول العالم .. صار يتلذذ بسماع الشباب ، يردّدون وعيد الانتقام من الأمريكيين . الدراية التي لديه ، من قراءاته في مجال النفس الإنسانية ، جعلته يدرك أي جزء من الأحداث، ينكأ جروح هؤلاء الشباب . هناك كرامة مهانة ، وشعور عميق وحاد .. بالإذلال ، أحدثه الغزو الأمريكي . أخذ ينتقي من القصص ، التي سمعها عن ممارسات الأمريكيين ، ما له علاقة بتحقير مفهوم الكرامة، ويسهم في إذكاء نزعة الانتقام منهم .. ويغرس الكراهية ، لكل ما هو غربي :

- يقول فضل الله ، أنه رأى أحد أفراد القوات الأمريكية الخاصة ، يكسر رقبة أسير من طالبان ، والصليب يتدلى من عنقه .

كان يرقب الانفعالات على وجوههم ، بعد كل جملة يقولها ، وينصت للكلمات ، التي تصدر منهم ، تعليقاً على حديثه . لاحظ أنه بدأ يصل إلى ذروة معينة ، في إثارتهم .. فأضاف :

- أفراد الميليشيات الشمالية ، المتحالفة مع الأمريكيين ، شاركوا

في الجريمة . كان مما ذكره فضل الله ، أنه شاهد أحد أفراد هذه الميليشيا، يساعد جندياً أمريكياً ، في لبس سرواله ، بعد أن تبول على عدد من أسرى طالبان .

كان أحمد .. يضرب في عمق الكرامة المهانة .. المهزومة ، مدفوعاً بوجع لا متناهي ، ينبعث من الفراغ الهائل ، الذي خلفه موت عبد الله . إنه ليس فقط ، عدواً أجنبياً غازياً .. قتل أخاه، ذلك الذي يحدّث الشباب عن أخباره .. وينقش في مخيلتهم صورة له . بل هو مع ذلك .. متوحش ، وقذر ، ووسخ ، وهو فوق هذا وذاك .. كافر يذل مسلماً . هذه هي الصورة، التي كان يرسمها ، ويسعى لتكريسها ، وهو يعيد رواية حديث فضل الله، على رجال مهزومين .

في هذه الأثناء ، كان ثلاثة أشخاص ، بملامح غربية ، أحدهم يرتدي ملابس عسكرية ، يسيرون باتجاه المكتب ، الذي يقال أنه لأفراد مكتب التحقيق الفدرالي الأمريكي ، أو الاستخبارات الأمريكية . مشهد الجندي الباكستاني .. يبتسم ، ثم يفتح الباب للغربيين ، ويحييهم بانحناءة .. أثار حفيظتهم . يزيد كان أول المعلقين :

– هذه تربية مشرّف .. كلب الأمريكان ، التذلل لهؤلاء الكفار.

شعر أن استراتيجيّته تؤتي أُكُلَهَا ، إذا انطلقت بعدها التعليقات ، من كل الموجودين . كل واحد ، صار يروي مشهداً رآه ، أو قصة سمعها ، عن نفس الفكرة .. كيف أن الرئيس الباكستاني برويز مشرّف ، حَوّل باكستان ، والجيش الباكستاني

المسلم .. كما يقولون ، إلى أداة للكفار وعبّاد الصليب، وخادم للأطماع والمخططات الأمريكية .

أكبر الحضور سناً .. سمعهم ينادونه ناصر ، ويتندرون عليه أحياناً ، فيلقبونه : " الأخ المشكلة فينا " ، كان له رأي مختلف . ظل طوال النقاش ، يقاطع ويؤكد ، أن المشكلة في الناس ، وليست في الحكام :

- يا إخوان .. المشكلة فينا ، ما أصابنا ، هو نتيجة لما كسبت أيدينا. الحكام .. من الذي أوصلهم ، إلى ما وصلوا إليه.. ومن مكّنهم من أمورنا ..؟ إنها معاصينا ، كما تكونوا .. يولّى عليكم..!

اختتم النقاش ، بحكم صدر من أحدهم :

- ليس بعد الكفر ذنب ! ماذا تتوقعون من هذا (القادياني) الكافر..؟ هذا ما يفعله أبناء الطوائف المنحرفة .. دائماً خونة ، وعملاء لأعداء الأمة..!

علق آخر .. معترضاً :

- لم يعد ثمة فرق بين حكام المسلمين .. ارتهن مصير الأمة ، بيد طائفي كافر ، أو عميل مرتد . والله إن هؤلاء الحكام ، أولى بالجهاد.. من أسيادهم . من كان يصدّق أن باكستان ، البلد المسلم، سيكون عوناً للكفار ، في تدمير بلد جار مسلم .. أو في قتل مسلمين ، لولا هذه الحكومة الكافرة ..؟!

كلمات : ".. عوناً للكفار ، وقتل مسلمين، وأولى بالجهاد.. وحكومة كافرة " ، هي كل ما بقي في ذهن أحمد ، من تلك الأحاديث والنقاشات الطويلة ، التي خاض فيها الشباب ، بعد أن بدأوا ينهضون ، ويحملون أمتعتهم .. إثر سماعهم النداء ، بطلب التوجه إلى بوابة المغادرة ، استعداداً للسفر ، على رحلة الخطوط السعودية ، المتجهة إلى الرياض وجدة .

-١٧-

فكر أن يتصل بأهله قبل السفر ، ليخبرهم أنه قادم . لكن.. ماذا عسى أن يقول لهم ؟ هل يقول أنه عائد ، بدون عبد الله ؟ إذا سألته أمه.. هل يخبرها ، بأن عين قلبها ، كما كانت تدعو عبد الله ، قتل تحت الأنقاض ، بقذيفة أمريكية ، وأن الميليشيات ، التي صار لها سلطة ودولة، تدعمها أمريكا ، سلبته خاتمه ، الذي أهدته إياه .. ودمه ما زال حاراً ، وجسده لم يزل طرياً ..؟

كان قبل ثلاثة أيام ، قد اتصل عليهم ، وبشّرهم أنه في طريقه إلى الشخص ، الذي سيزوده بمعلومات وافيه ، عن مصير عبد الله . حرص أن تكون لهجته متفائلة ، وهو ما انعكس على شعورهم ، بقرب العثور على ابنهم . حسم الأمر ، قبل صعوده الطائرة .. سيتصل بوالده ، حالما يصل . يعرف طبيعة والده .. شديد القلق . لو أخبره ، فإنه لن يطيق صبراً على السكوت ، ولن يتمالك نفسه ، وقد يتصرف بانفعال ، حيال الموقف .. مما قد يزيد من معاناة والدته .

حطت الطائرة في مطار الرياض ، بعد منتصف الليل . عندما أنهى إجراءات الوصول ، وتسلم عفشه ، كان قد بقي على آذان الفجر ، قريب من ساعتين . لم يكن في نيته ، أن يتوجه للبيت مباشرةً .. قبل أن يرتب مع والده خطة ، لإبلاغ أمه ، عن مصير عبد الله ، دون أن يفجعها . رأى أنه سيكون مزعجاً .. ومفاجئاً ، أن يتصل بوالـــده ، في وقت متأخر ، كما أن اتصاله به ، في هذا

الوقت ، سيثير شكوك والدته ، قبل وضع الخطة ، لإطلاعها على حقيقة ما جرى لعبد الله .

كان يقلب مثل هذه الأفكار ، ويتأمل بعض رفاق الرحلة ، يدفعون عربات أمتعتهم الشخصية أمامهم .. باتجاه بوابات الخروج . تخيل .. حينما تفتح البوابة الآلية ، ثم تغلق بعد خروجهم.. كما لو أنهم يغادرون عالماً ، لينتقلوا إلى عالم آخر، وملكوت مختلف . بدت الألواح الزجاجية للبوابات ، وهي تنفرج، ثم تعود لتلتئم، مثل (سماوات) ذلك الملكوت ، تنشق .. لتبتلعهم. أطيافهم المتماوجة ، خلف الزجاج ، وهي تختفي رويداً .. رويداً، أَشْبَهَتْ أسراب طير ، أوغلت في السماء ، ثم اكتنفها الغمام ، في غيبة سرمدية، أو كشخوص .. في قافلة غمرها الضباب ، في يوم بارد، من أيام شباط .

تدفق الخيالات .. لم يوقفه إلا مرور موجة جديدة من الرفاق.. متجهة نحو بوابة الخروج . من بينهم .. كان يزيد وناصر .. وأسامة ، الذي لا يرى حلاً لمشكلة الأمة، من وجهة نظره، إلا بقتال طواغيت المسلمين كلهم ، وقتال الطاغوت المجرم، الكبير، المسؤول عن عذابات المسلمين .. أمريكا . التي يدين لها الطواغيت الصغار، كما يقول . خطاب أسامة، الذي يُقسّم العالم إلى معسكرين .. كافر تقوده أمريكا ، ومسلم يضطهده الغرب، بقيادة أمريكا . خطاب أسامة هذا، أُفْتُتِنَ به كثير من الشباب.. فتمثلوه ، وانقادوا له . لم تكن حدّية خطاب أسامة وبساطته، هو فقط .. ما شد الشباب إليه ، بل اختياره لنفسه، نمطاً حياتياً، قاسياً وصعباً ، وهو الفتى الارستقراطي ، الذي ينتمي لأسرة ثرية .

عند اقتراب الرفاق منه ، بدا لهم كأنه حائر .. ماذا يصنع . قدم له ناصر عرضاً :

- تأتي معنا ، نوصلك إلى البيت .. ؟
- لا .. شكراً ، أنا انتظر الوالد ، لقد اتصلت به ، وسيأتي.

تدخل أسامة .. معاتباً :

- كَلّفت على الوالد ، في هذا الوقت المتأخر . بالمناسبة .. الشباب تبادلوا أرقام جوّالاتهم ، من أجل التواصل .. هذه أرقامنا ، دعنا نسمع صوتك .

ناوله قصاصة ورقة ، فيها عدد من الأرقام ، وكتب هو رقمه، على ورقة أخرى ، وأعطاها إيّاه . ودّعوا بعضهم ، وانصرفوا وهم يتبادلون الدعاء ، والتواصي على الصبر والتواصل .

انتظر في المطار ، إلى وقت أذان الفجر . يعلم أن والده ، يخرج ليؤدي الصلاة مع الجماعة في المسجد .. وهذا أنسب وقت لمحادثته . خشي إن اتصل ، على هاتفه الجوال ، أن يكون قد تركه في البيت ، كما يفعل بعض المرّات ، فترد والدته على الاتصال .. فتعرف من رقم المتصل ، أنه في الرياض .. فيقع في حرج . قرر أن يشتري بطاقة اتصال مسبقة الدفع، من كشك يبيع الصحف والمجلات .. ليستخدمها . كان قد مضى على الأذان عشر دقائق . اتصل .. وتوالى الرنين متتابعاً .. ثقيلاً وبطيئاً ، وكاد أن ينقطع الاتصال ، ثم جاء الرد :

- ألو .. نعم ..؟
- أبي .. أنا أحمد ، السلام عليكم ..
- أهــلاً بك.. لم أعــرف الرقــم، أنت لا تتصل من جوّالك..! كدت ألاّ أردّ.. على اتصال من رقم غريب ، في مثل هذا

الوقت..

- أنا أكلمك من المطار ، من بطاقة اتصال ..
- أي مطار ..؟
- الرياض ..!
- الحمد لله على سلامتكما .. كيف حال عبد الله ..؟!
- نحن بخير ..! لكن لا تخبر الوالدة بوصولنا ، قبل أن ألتقي بك . هناك أمر مهم ، أريد أن تعرفه أولاً ..
- لا بأس .. أُصَلِّي ، وآتيكم في المطار ..
- لا .. أفضل ألاّ تأتي . أنا سأنزل إلى الرياض ، وأسكن في فندق .. وعند الساعة التاسعة ، اتصل بك .. وأرجو أن تكون خارج المنزل . مُهِمٌّ أن يبدو الوضع طبيعياً أمام الوالدة ..!
- تنزل ، وتسكن في فندق.. أنت وحدك.. لماذا ؟ وأين عبدالله..؟
- أقصد .. أنا وإيّاه ..! استودعك الله الآن . احرص .. حفظك الله ، ألاّ تَعْلَمَ الوالدة بوصولنا . مهم جداً .. مهم جداً..!

لم يستطع الأب أن يرجع للبيت .. لينام ، وغشيه هم وقلق . خاف إن عاد للبيت ، أن تلاحظ زوجته أم عبد الله ، ما هو فيه من القلق ، فتلح في معرفة السبب ، فيضطر لإخبارها بقصة المكالمة ، التي تلقاها من أحمد . اتصل على البيت ، وأخبرها أنه سيمكث في المسجد ، يقرأ القرآن ، إلى طلوع الشمس . ذكر أيضاً ، أنه يحس بفقدان الشهية ، ولا يريد فطوراً .. وسيذهب من المسجد إلى عمله .

لم ينتـظر إلى التاسعة ، كان الهم قد أكل قلبه ، وصار .. مما يجد من شدة القلق ، لا يقر له قرار . مرّة يفتح المصحف ، ومرّة يغلقة ، وحيناً يقرأ من أوله ، وآناً من آخره . حين طلعت الشمس، وصلّى ركعتي الإشراق ، خرج من المسجد ، وركب السيارة . كانت الساعة ، بعد السابعة بقليل .. سار لا يدري أين يذهب . تناول هاتفه الجوّال ، واتصل على أحمد . جاءه الرد مباشرةً :

– كنت أعلم .. أنك لن تصبر . أنا الآن خارج من المطار ، ما رأيك لو نلتقي قريب من مكتبك ، ونفطر معاً . هناك مطاعم، في الشارع المتفرع جنوباً، من شارع جرير .. قرب تقاطعه ، مع شارع صلاح الدين .. الستين. أقل من نصف ساعة ، وأكون هناك .. إن شاء الله .

انتابه القلق مرّة أخرى ، وعظمت الوساوس في خاطره . هذه هي المرّة الثانية ، التي يتحدث فيها ابنه ، بضمير المفـــرد . لماذا قال : أنا خارج المطار ، ولم يقل نحن ..؟ هل أخطأ في التعبير فقط ؟ هل هو وحده ، أم عبد الله معه ..؟ لماذا هو حـريص ، على إخفاء أمر قـدومهم عن أمه .. إن كان عبد الله معه ، كما يقول ..؟ هل يمكن أن يكون ، قد أصاب عبد الله مكروه ..؟ أسئلة كثيرة ، من هذا النوع ، أخذت تتراكم أمام عينيه ، وهو في طريقه إلى المكان .. حيث طلب منه ابنه ، أن يتقابلا .

حين وصل متأخراً خمس دقائق .. إلى المكان ، في الشارع الذي اقترح أن يفطرا، في أحد المطاعم التي تقع فيه ، وجد شخصاً واقفاً على الرصيف ، وبجانبه حقيبة كتف صغيرة . أخذ الشخص يلوّح له ، لحظة رأى السيارة . انقبض قلبه .. إذ رآه وحده . عرفه .. إنه أحمد. لم يتعرف عليه ، من المرّة الأولى.

كانت ملابسه رثة ، والسفر المتواصل ترك آثاره عليه . لحيته لم تعد حليقة .. كما كانت . ثمة شعيرات قصيرة نبتت ، في ذقنه وعارضيه . كان يريد أن يكذّب الخاطر ، الذي استحوذ عليه.. بأن عبد الله ليس معه ، رغم أنه لم يَرَ أحداً غيره ، إلاّ أن تقدمه وحيداً نحوه، للسلام عليه .. لحظة نزوله من السيارة، لم يترك مجالاً لأي شك : عبد الله غير موجود.. عبد الله لم يأت ..! .

ظل معلقاً ، بحبل واهٍ من الأمل .. بأن عبد الله لا يزال حياً . ربما جريح لا يقدرُ على السفر ، وسيأتي حالما يشفى، أو أسير.. وسيطلق سراحه ويعود . تأمل وجه أحمد ، وهو يُقْبِلُ.. في عمق عينيه ، انزوى حزن ، يحاول أن يستره بابتسامة مصطنعة ، وبعبارات الشوق واللهفة. كان أحمد، يبالغ في رفع صوته، بكلمات الاشتياق والترحيب ، وهو يحضن والده.. ليقطع الطريق على غصة ، يُحسُّها تصعد إلى حلقه، وتكاد تخنقه، فتمنعه من الكلام. حين ضم والده إلى صدره ، غلبه البكاء.. ففاضت العبرات . الحزن الذي تراكم خلال الرحلة ، التي ازدحمت بمشاهد الموت.. كان يملأ قلبه ، وبلغ أوّجَه بمقتل عبد الله . اختزن الألم ، ولهيب المعاناة ، طوال الأيّام الماضية، حتى صارت المشاعر تغلي في أعماقه ، و شعر أن كل ما في داخله يمور، مثل قدر كاتم .. إذْ بمجرد أن لا مس جسده جسد والده، صار ينتفض ، ثم انفجر بنوبة بكاء ، صامت ومرير .

اعترى الأب شعور ، بأن الذي كان يحاذر منه .. قد وقع . لم يتكلم أحمد ، ولم يقل شيئاً ، ولو قليلاً ، عما حصل لعبد الله ، لكنه أدرك بغريزة الأب ، أن مكروهاً قد حدث لابنه . تكلم أحمد، مخاطباً والده :

- نجلس .. لأحدثك ..؟

نظـــر الأب إلى عيني ابنه ، الغارقتين بالدمع ، وإلى وجهه، المملوء أسىً.. قد شحب، ولوّحه السفر . كان أول ما وقع نظره عليه .. انكره. ذلك العنفوان ، الذي يضج في محّياه، قد خفت، و بدا له مثل نبات روض، تَقَصّفَ من عطش ، اصْفَرّ .. حتى ذوت فيه أمارات الحياة .. قد استحال الآن ، إلى اللون الأحمر، من شدة البكاء :

- أنت جائع ..؟

- لا ..

- إذن .. لا داعي للجلوس ، تعال إلى السيارة .

-١٨-

في السيارة تحدث أحمد ، عن تفاصيل رحلته . روى كيف ذهب إلى بيت الأنصار في بيشاور ، والتقى صدفة بأبي طلحة، أحد أصدقاء عبد الله المقربين ، الذي عرض عليه المساعدة، في البحث عن عبد الله. ثم تنقلاتهم بين المدن والبلدات الباكستانية والأفغانية ، حتى لقائهم بأبي سلمان في كويتّا .. الذي دلهم عليه صاحبه ، ورفيق دربه ، عبد الهادي العراقي ، وهناك عرف منه، عن مقتل عبد الله في القلعة ، مع مئات من المجاهدين العرب والباكستانيين .

كان الأب يستمع صامتاً ، ويقود السيارة بهدوء . ظل متماسكاً، ومحافظاً على رباطة جأشه ، إلى اللحظة التي قال فيها أحمد :

- كنّا في شك.. من مصير عبد الله، إلى أن قال عبد الهادي، أن الشخص المقتول ، الذي رآه إلى جانب أبي سلمان في القلعة، كان مقطوع سبّابة اليد اليمنى، وجاء وصفه للخاتم، الذي انتزعه الأفغاني من خنصره، يطابق ذلك الذي أهدته أمي لعبد الله.

أجهش بعدها بالبكاء ، وصار ينتحب نحيباً ، لم يستطع معه السيطرة على السيارة ، والاستمرار في القيادة ، فأخذ ناحية من الطريق .. وتوقف. التقط طرف شماغه ، ووضعه على وجهه.. وهو ينشج. استمر على ذلك لدقائق ، خيم خلالها صمت ، لا يقطعه إلا أصوات السيارات ، التي بدأت أعدادها بالتزايد ، مع تقدم الوقت ، واقتراب الساعة من الثامنة ، حيث بداية دوام

موظفي معظم المؤسسات والشركات . سكت للحظات ، ثم رفع الشماغ عن وجهه ، وقال .. دون أن يلتفت :

- رحمه الله .. لقــــد نال ما تمنى . كثيراً ما عبّر عن شوقه للشهادة، في سبيل الله .. أسأل الله أن يبلغه منزلة الشهداء الأبطال ..

أحمد .. الذي صار مبهوراً بسجل شقيقه الجهادي ، وقصص البطولة، التي سمعها من رفاقه.. ثم موته المأساوي ، محاصراً في سجن القلعة، بادر والده قائلاً :

- والله لقد كان بطلاً يا أبي .. ! لو سمعت الذي سمعته عنه، من كل من قابلته ، لعرفت أي رجل كان عبدِ الله . كانوا يسمونه (آر ، بي ، جي)، لشجاعته . عرفت في هذه المدة القصيرة ، أشياء كثيرة عنه . لم يكن، رحمه الله ، يتحدث عن نــفسه ، لكن كثيرون يحملون عنه ، ذكريات تبعث على الفخر ..

- ما أجمل ذكرياته . قبل سفره الأخير بأيام .. رحمه الله ، ذهبت إلى أحد الأسواق المركزية ، ومعي إخوانك الصغار .. وهو معنا. كنا قد ملأنا العربة بأغراض شتى .. فجأة رأيناه يقبل مسرعاً وهو يدفع أمامه عربة فارغة.. ويبتسم ..

لم يستطع الأب أن يكمل حديثه ، خنقه البكاء ، فتعثرت الكلمات في حلقه .. فسكت . مرّت فترة صمت قصيرة .. واصل بعدها رواية قصته مع عبد الله :

- كان يبتسم ويقول : جاء دور الرقابة .. المقاطعة ستمارس مهمتها. ثم وجه كلامه لإخوانك : ألم نتفق أنه لا بضائع

أمريكية أو صهيونية .. ؟ ثم بدأ بتفريغ العربة المملوءة بالأغراض ، في العربة التي معه ، وأخذ يفرز البضائع الأمريكية الصنع .. وكلما ضج إخوانك ، وعبروا عن احتجاجهم .. يقول : هناك بديل ، اذهبوا وأحضروه .
رحمه الله ، له وحشة والله ..

غَشِيَتْه نوبة بكاء أخرى ، ووضع وجهه بين كفّيه ، وراح يتوجّد على عبد الله . أحمد .. لم يكن أقل ألماً وفقداً لشقيقه ، إلا أن مظاهر التصدّع النفسي ، التي رآها على والده ، جعلته يجاهد لكبت مشاعره ، والظهور بمظهر المتماسك ، لكي لا يدفعه إلى مزيد من التأزم النفسي .

اتفقا على أن يبقى أحمد في الفندق ، لفترة محدودة ، يتولى الأب خلالها ، ضمن ترتيب معين ، إبلاغ والدته ، بخبر عبد الله، بطريقة تدريجية ، لا تتسبب لها بصدمة ، ثم بعد مرور المدة المتفق عليها ، يظهر أحمد ، كما لو أنه قد قدم لتوّه من السفر.

عند الظهر ، توجه الأب إلى المنزل ، وآثار الهم والحزن ، بادية على وجهه . منذ أن سافر أحمد ، وهو على هذه الحال ، إلا أنه اليوم كان أكثر تأثراً . لاحظت أم عبد الله ذلك .. فاستبد بها قلق :

- أنت على غير عادتك اليوم ..!

تظاهر بأنه يحاول أن يتفادى تساؤلها ، وأنه لا شيء هناك ، سوى مجرّد إجهاد يشعر به ، لكنها رفضت هذا التعليل :

- لا .. ليس هذا فقط ..! أخبرني .. هل هناك شيء ؟

- اتصل بي شخص من باكستان ، وذكر أنه كان في قافلة فيها عبد الله وأحمد ، وقد تعرضت لاعتداء من إحدى العصابات .

ذكر أن عبد الله أصيب ، وأن أحمد أسر ، وهناك محاولات حثيثة لإطلاقه .

انهارت على المقعد القريب منها ، وأخذت تبكي ، وتلهج بالدعاء :

– أولادي .. أولادي ، يا رب سلم ، يا رب سلم ..

– تعوذي من الشيطان ، عليك بالدعاء .. لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم .

كان يحاول أن يتـماسك ، ويقاوم دمعات ، تكاد تقفز من عينيه . اعتذر عن الأكل ، وطلب كأساً من اللبن ، متعللاً برغبته في الراحة . يحس أنه غدا ضعيفاً جداً ، بحيث لو بقي أمامها دقائق .. فانه سينهار ، ويقول كل شيء . توجه إلى غرفة النوم.. وحين صار وحده ، اتصل بأحمد ، وأبدى له قلقه على والدته، التي فاجأها الخبر . لم ير أن حالتها تحتمل الانتظار ، يوماً أو يومين .. كما أتفقا ، لتعرف مصيره ، هو وشقيقه . بعد نقاش قصير ، استقر الرأي بينهما ، أن يفتعل اتصالاً ، ويكلم أمه ، على أساس أنه في باكستان .. يطمئنها على نفسه ، ولا يذكر لها كلاماً قاطعاً، عن مصير عبد الله .

بعد مضي وقت غير طويل ، خرج الأب من غرفة نومه ، واتجه لغرفة الجلوس . كانت الأم ما زالت في مكانها .. تبكي بصمت . استغربت مجيئه:

– لم تنم ..! باقي على صلاة العصر ساعة ..

– عجزت أن أنام ..

– ماذا ستفعل ، لتطمئن على أبنائنا ..؟

– ليس لدي وسيلة ، سوى أن أنتظر اتصال نفس الشخص ، لأنه

وعدني أن يتصل بي ، إذا توفرت لديه معلومات جديدة .

بينما هما على هذه الحال ، إذ بدأ جواله بالرنين . نظر إلى الرقم المتصل ، وقال بصوت مرتفع قليلاً ، تعمّد أن يسمعها إيّاه:

- رقم غريب .. لم أره من قبل ..!

حين رد على المتصل ، تصنّع الدهشّة والمفاجأة :

- من .. من ..؟ أحمد.. الحمد لله على سلامتك ، بشرنا عنك، وعن عبد الله . الحمد لله .. أنا طيب .. كلنا طيبون، ووالدتك بخير ، خذ كلمها ..

التقطت الجهاز من يده ، وبصوت يخالطه البكاء والنشيج ، راحت تسأله السؤال تلو الآخر :

- هلا حبيبي .. الحمد لله على سلامتكم . أخبارك ، طمئني عن نفسك ، ما هي أخبار عبد الله ..؟ أبوك يقول ، أن هناك من اعتدى عليه، بشرني .. إن شاء الله حالته ، ما هي بخطيرة..؟ متى سترجعون ؟

- أنا بخير يا أمي .. الله يسلمك . سأرجع قريباً ، خلال يومين. عبد الله تعبان بعض الشيء ، ويخضع للعلاج ، وأول ما يتعافى ، يأتي إن شاء الله .

- لماذا لا تنتظر حتى يتشافى ، وتأتي أنت وإيّاه ..؟

- أصبح الوضع خطيراً ، ولا أستطيع أن أبقى ، دون أن أتعرض لأذى.. وعبد الله عند بعض أصدقائه ، يتولون علاجه وحراسته . إن أَرَدّتِ أن أبقى معه بقيت .. ؟!

- لا .. يا حياتي.. تعال ، الله يحفظك ، لكن يجب أن تؤكد على عبد الله أن يكلمني ، في أقرب فرصة ..

- سأخــبر أصدقاءه بذلك ، وأؤكد عليهم .. مع السلامة يا أمي .. مشتاق إليكم ..
- مع السلامة .. الله يحفظكم ، لا تتأخر .

شَعَرَتْ بارتياح لدى انتهاء المكالمة . قبل قليل ، كان قد تملكها إحساس، أنها فقدت أبناءها جميعهم . الآن اطمأنت .. أحدهم سمعت صوته ، وآخر .. بعد أن يئست منه ، صارت تؤمّل أن تراه . الأب كان يرقب تقلب المشاعر ، في قسمات وجهها . فرح أنها تجاوزت أزمة ، كادت تودي بها .. رغم الحزن الذي يعتمل في داخله . ابتسم .. أراد أن يشعرها بمشاركته لها .. الفرحة ، وألّا يفسد عليها سكينتها ، بالسماح لمشاعر الفقد ، التي تمور في داخله .. بالظهور :

- الحــــمد لله .. كنت قلقاً جداً على أحمد . لم يكن ليذهب، لولا إصراري عليه .. عكس عبد الله ، الذي لا يقبل نقاشاً في سفره للجهاد . كنت سألوم نفسي ، طوال عمري ، لو أصاب أحمد مكروه .

بعبارته هذه ، أراد أن يهيئها ، للمصير الذي صار إليه عبدالله . كأنما أراد أن يقول لها : المجاهد .. باحث عن الموت ، وطالب للشهادة ، فلماذا نستغرب .. إذا انتهى النهاية ، التي ظل يبحث عنها ..!؟

مر يوم ، وفي ظهر اليوم الثاني ، أخبرها أنه تلقى اتصالاً من أحمد ، يفيد بأنه قد يتمكن من العودة ، على رحلة متأخرة .. الليلة ، أو صباح الغد. حين سألت عن عبد الله .. أجابها بلغة غير متفائلة :

– أحمد تحدث بلهجة غير مُطَمْئِنَةٍ ، عن صحته .

ردت بجزع :

– ماذا تقصد ..؟!

– لا يبدو من كلامه عنه ، أنه قادر على السفر قريباً ..!

انقبض وجهها .. وصمتت . بعد لحظات ، عادت لتسأل عن موعد وصول أحمد ، كأنما تريد أن تنشغل ، بأمر أقل غموضاً .. أو لتعزي نفسها بالقادم ، الذي ستراه ، وتسلو عن غائب ، لم تعد ترجوه .. ولا يقربه الزمن . كل يوم يمضي ، يبعده أكثر :

– متأكد أنه سيصل الليلة ..؟ !

– صاحب له .. اتصل علي ، ذكر أنه ودّعه عند باب صالة المغادرة ..!

حين خرج بعد صلاة العصر ، اتصل بأحمد ، وأخبره بالحديث، الذي تم بينه وبين والدته . اتفق معه أن يرجع وإيّاه ، الليلة إلى البيت ، بعد أن يشعر والدته ، أنه سيذهب إلى المطار لإحضاره. عاد عند آذان العشاء ، وقال لزوجته ، أنه اتصل بالمطار ، وأخبروه أن الطائرة القادمة من باكستان ، سوف تصل الرياض، قبيل منتصف الليل . لكن .. لأن الرحلات ، التي تأتي من باكستان، قليلاً ما تصل على موعدها ، فإنه سيذهب من الآن. تناول عشاءه على عجل ، وطلب منها ، وهو يستعد للخروج، أن تؤكد على إحدى البنات ، أن تعد غرفة شقيقها ، وترتبها .

توجه إلى حيث يقيم أحمد .. ليأتي به . عندما وصل .. طلب منه أن يرتدي الملابس الأفغانية ، التي كان يلبسها ، حين كان هناك .. وعاد بها معه :

– في هذه الملابس ، ستبدو أمام أمك .. أنك قد وصلت الآن

من أفغانستان . عليك أيضاً .. أن تصبر وتتماسك ، عندما تقابلها . لا تؤمّلها بشيء ، بشأن عبد الله ، ولا تَفْجَأْهَا .. في ا لوقت نفسه ، بخبر موته .

بعد الحادية عشرة ، وصلوا البيت . كانوا بانتظاره .. أمه ، وأخواته ، وأخوه الأصغر . حين دلف إلى داخل الدار ، من الباب الخارجي .. بدى مختلفاً ، غير ذاك ، الذي ذهب من قبل :

– لقد تغير ..

همست إحدى البنات لوالدتها :

– ثيابه أفغانية ، ولحيته طالت .. أطلقها ..!

ردّت الأم ، وهي تخطو نحوه .. يتنازعها الفرحة به ، والحزن على آخر.. تنتظره :

– نعم لقد تغير ..!

ثم همست .. بصوت لم يسمعه غيرها :

– عيناه المجهدتان ، تقولان شيئاً آخر ..! ليس هذا أحمد .. الذي كان، قبل أسبوعين .

أخذته بالأحضان ، وعبّرت عن شوق غامر له . لكنها .. تحاشت أن تثير معه موضوع عبد الله .. إلاّ سؤالاً عابراً ، خشية أن تثقل عليه ، بعد عناء سفر طويل .

لم يمكث أحمد طويلاً ، حتى قص على أمّه خبر عبد الله. غشيها حزن عظيم .. وظلت ساعات تبكي عليه . تسامع الجيران، وأهل الحي بالخبر . كان هناك تعاطف كبير ، من كثير من الناس .. لما عرفوا عن عبد الله من سمعة حسنه ، فتوافدوا على البـيت معزين . عائلة السلطان .. جيرانهم القريبين ، كانوا الأكثر تفاعلاً مع مصابهم ، فحضر الأب والأم ، والابن الأكبر ،

وعبّروا عن تعاطف وتضامن غير عادي .

بقيت أم عبد الله أيّاماً تجتر حزنها، لا يرقأ لها دمع، ولا يغمض لها جفن. كان أحمد يثبتها، بالحديث عن حياة عبد الله، الحافلة بالجهاد.. والنهاية الملحمية لبطل ، يحق لها أن تفخر به :

- أنتِ أمّ لرجل ، ظل يذرع الكون ، وينقش في كل ركن من الأرض ، وسام فخار . مثل عبد الله .. لا يبكى عليه يا أمي ، بل نبكي على أنفسنا. آه يا أمي .. في كل زاوية من أفغانستان ، تفوح لعبد الله رائحة بطولة ، ويعقد للشجاعة زمام .. ثم ينتهي شهيداً ، مقبلاً غير مدبر .. في صمود لم نسمع به ، إلا لدى المجاهدين العظماء .

-١٩-

انخرط أحمد في حياة جديدة ، غير تلك التي اعتاد عليها، قبل سفره لأفغانستان ، للبحث عن شقيقه . موت عبد الله ، والمشاهد التي رآها ، والأحاديث التي سمعها ، أثناء رحلته .. أحدثت تحولاً في تفكيره . مكث أسابيع لا يبرح البيت إلا قليلاً. يكاد لا يخرج إلاّ إلى المسجد للصلاة . اتجه للقراءة ، ومثلت مكتبة عبد الله ، التي تحتل غرفة في سطح المنزل.. معتكفاً ، صار يقضي فيها معظم ساعات النهار والليل . احتوت المكتبة على كتب تراثية ، يعتني أكثرها بمواضيع الجهاد ، ومسائل الولاء والبراء . لاحظ أن أغلب الأحاديث والنقاشات ، التي سمعها لدى الشباب ، لم تكن إلا صدى لما قرأه في هذه الكتب.. لكن بتأويلات مختلفة ، تحددها طبيعة شخصية المتلقي . النص نفسه، يتكرر بذات المعنى ، في معظم الكتب ، لكن الشباب يفهمونه ، كل بطريقته . مسألة التكفير والبراءة من الكفار ، مثل صارخ على تباين الافهام . أسامة وناصر صديقان ، يشتركان في همّ واحد، لكن اختلاف شخصيّتيهما ، يعكس هذه الحقيقة ، ويعبر عن موقف كل منهما .. مما يجري .

كان قد مرّ على رجوعه، قريباً من ثلاثة أشهر. شعر بالرغبة بأن يخرج، ويقابل الشباب، ممن تعرف عليهم في رحلته، أوغيرهم.. ويحادثهم . أثناء بحثه في مكتبة عبد الله ، عثر على

ورقة فيها أرقام لأصدقاء له . لا يعـــــرف أحداً منهم ، ولم يكن من بينها، من يحمل اسماً صريحاً ، وإنّما ألقاب وكنى ! لم يجد الحماس ليتصل بأي منها . ربما بعضهم قتل في أفغانستان، أو في جبهة أخرى .. حدث نفسه . أو ربما لا يصدقون أنه شقيق عبد الله ، وقد يظن بعضهم ، أنه من عناصر (المباحث) ، يريد الإيقاع بهم . تـذكر القصاصة التي أعطاها إيّاه أسامة في المطار.. حيث سجل الشباب فيها أرقامهم . نزل إلى غرفته ، وبحث في أشيائه ، التي عاد بها من أفغانستان .. فوجدها بين أوراقه . تأمل الأسماء ، وصار يتذكر الشخصيات ، ويسترجع الحوارات ، التي دارت بين أصحابها .. كلما همّ بأن يتصل بأي منها .

اسم أسامة في أول القائمة ، لكنه استبعد أن يتصل به . نقاشات أسامة وتعليقاته ، ما زالت عالقة في ذاكرته .. لم يجد في نفسه ، ارتياحاً للأفكار التي كان يطرحها . حين وقع نظره على رقم ناصر ، مالت نفسه للاتصال به . حدث نفسه : " يبدو ناصر أكثر الجميع ، هدوءاً وواقعية " . دوّن الاسم والرقم على قصاصة ورقة ، ثم دسها في جيبه ، وهو ينظر إلى ساعة يده .. ويهمس :

- الوقت متأخر .. غداً أتصل به .

اعتاد كل صباح ، أن يتناول القهوة مع والديه ، في صالة الجلوس.. قبل أن يصعد لمكتبته ، في السطح . لحظة يخرج من غرفته المقابلة للصالة، يجدهما بانتظاره . أول ما يدلف إلى الصالة ، تطالعه ابتسامة أمه ، التي تلتفت على وقع خطواته . هذا الصباح.. كانت وحدها ، بادرته قائلة ، بعد عبارات ترحيب:

- خرج والدك مبكراً .. لعمل له ، وجلست أنتظرك ، ليس للقهوة طعم بدونك .

يغمره شعور عميق بالمحبة والامتنان ، ويطيل النظر في عينيها السوداوين، اللتين بدت أجفانهما له ، مثل كَفّيْن حانيتين ، تأخذانه برفق بينهما . يقترب منها ، ويطبع قبلتين طويلتين ، على جبينها وكفها .. ويقول :

- ما يحرمني .. هذه الروح ، أنت أجمل وأروع أمّ .

أخذ مكانه قبالتها ، ثم التقط تمرة من الصحن ، وأتبعه بفنجان القهوة، الذي مدّته إليه . استغرقا في دقائق من الصمت، وهما يحتسيان قهوتهما . قطعت الصمت ، وهي لا تزال مطأطئة رأسها :

- أحمد .. أريد أن أفرح بك ..

رد ضاحكاً ، وهو يمد لها الفنجان ، ويهزه بكفه ، ليدفعها لترفع رأسها:

- صار لي أكثر من شهرين .. منذ أن عدت ، ألم تفرحي بي بعد ..؟

قالت .. دون أن ترفع بصرها :

- أنت تعرف ما أقصد ، أريد أن أرى لك أولاداً ..!

- آه الزواج ..! لست متهيئاً للزواج الآن .. يا ماما ..!

ثم أضاف بشيء من المزاح.. في محاولة منه لتغيير الموضوع:

- البارحة كانت هناك زحمة سيارات ، أمام بيتنا .. فحسبت أن لدينا مناسبة ، وأنا لا أعلم ..!

- جيراننا " السلطان " ، كانوا يحتفلون بتخرج ولدهم سيف، من معهد الشرطة .. والدك كان مدعواً . حزّ في خاطره رفضك مرافقته .. رغم دعوتهم لك ..!

– عســـــكري .. وعلّق شريط ، وغداً سوف يطارد خلق الله.
على أي شيء يحتفلون ..؟ !
– الناس طيبون جداً . أم سيف نِعْم الجارة .. لا أعتبرها والله، إلا مثل أختي .
– والنّعم فيها .. ما أقول فيها شيء ، الله يطوّل عمرك ..
– حتى ولدها سيف ..! تذكر موقفه أيّام العزاء . يقول والدك، أنه كان يستقبل المعزين .. وهو يبكي ، كأنّ عبد الله أخوه ، وليس ابن جيرانهم .

لم يعقب أحمد ، الذي صار يبدي في أحاديثه ، موقفاً غير ودي من رجال الأمن ، بعد تواتر أخبار وإشاعات عن اعتقالات، ورواج أحاديث عن تجاوزات ، تقوم بها الأجهزة الأمنية ، ضد شريحة من الشباب المتدين، العائد من أفغانستان .. أو أولئك الذين يقال أن لديهم أفكاراً متشددة . إلى الآن .. لم يسمع أن أحداً من الشباب ، الذين صادفهم ، أثناء رحلته لأفغانستان .. قد اعتقل . ربما لأنه منعزل عن الجميع .. فلم يقابل أحداً، ولم يتصل بأحد . اعتمد في موقفه هذا من رجال الأمن ، على ما يتردد بين والده ، ومن يزوره من الأقارب والمعارف .. عن قصص اعتقال للشباب المتدينين ، زادت عن المعتاد ، وكثر الحديث عنها .

خــرج من البيت ، وحين ركب سيارته، احتار أين يذهب..! علاقاته القديمة انتهــت . لم تعد له صلة ، بأيّ من رفاقه القدامى . سار باتجاه الشارع الرئيس ، القريب من منزلهم . خَطَرَ عـلى باله أن يطالع الصحف ، فتذكر أن ثمة عدداً من (البقالات) ، ومحلات التموينات الغذائية الصغيرة ، على جانبي

الشارع ، تبيع صحفاً محلية ، وأخرى عربية . توقف عند أول محل صادفه .. اعتاد في الماضي ، أن يشتري منه أغراضاً للبيت. دخل وهو يتلفت ، باحثاً عن واجهة عرض الصحف . التقت عيناه بعيني صاحب المحل .. ابتسم . يعرفه .. ويعلم أنه لن يمانع، بأن يتصفح تلك الصحف والمجلات المعروضة .. رغم اللوحة المكتوبة أعلاها : ممنوع القراءة .

أمضى ما يقرب من ساعة ، يقلب الصحف . يبدأ بالصفحة الأولى ، مستعرضاً العناوين ، ويمر سريعاً على باقي الصفحات، إلى أن يصل إلى صفحة الرأي . كان واضحاً عدم رضاه عمّا قرأ، أو حتى شاهد من صور . تعابير وجهه ، وَعَصَبيّته البادية ، توحي بذلك .. وهو يقلب أوراق الجريدة. أحياناً يجمع الجريدة، بطريقة غير منظمة ، ويكوّمها بغير ترتيب ، في غير مكانها ، الذي أخذها منه . ربما كذلك، نفث هواءاً من فمه ، باتجاه موضوع، مرّ عليه بسرعة ، كأنما (يبصق) على مضمونه .. أو ربما على صورة الكاتب . يصل به الغيظ أحياناً ، أن يضرب بقبضته على موضوع أثاره .

البائع كان يختلس النظر إليه ، ويراقب انفعالاته وتصرفاته. عندما استدار منصرفاً عن واجهة عرض الصحف ، بادره بسؤال، مليء بعلامات التعجب .. أكثر من الاستفهام :

- هاه يا أحمد .. ما أعجبك منها شيء ..؟!
- الله يلعن الأمريكان وعملاءهم . هذه صحف مسلمين ، هذا إعلام مسلم .. الجهاد صار إرهاباً ..؟!
- الأمريكان مقروصين .. لا تلومهم ..!
- يعني نبرر لهم ، هذا الذي يفعلونه .. من احتلال لبلاد

المسلمين، وقتل إخواننا ، وانتهاك أعراضنا ..!؟ انظر ..
انظر ، هل يسكت مسلم على هذا ؟ هل يقبل حر شريف ،
بهذا الذي يحصل ..!؟

كان يرفع صحيفة ، فيها صور لمساجين عراة ، يعلوها عنوان كبير : " فظائع من سجن أبو غريب " . لم ينتظر ليسمع الإجابة خرج مسرعاً باتجاه سيارته ، وهو يتمتم بكلام غير مسموع .

أين يذهب ..؟ مرّة أخرى تجول الخواطر في ذهنه : ماذا يفعل ، وهو لا يعرف أحداً ..؟ . تذكر أنه كان قد قرر أن يتصل بـ (ناصر) . أخرج هاتفه الجوال ، وتناول قصاصة الورقة من جيبه ، ودق على الرقم ثلاث مرات . في كل مرّة ، كان يسمع العبارة الرتيبة : " عفواً .. الرقم الذي طلبت ، لا يمكن الاتصال به الآن " .

بقي على صلاة الظهر ثلاث ساعات.. لا يدري كيف يمضيها . قلّب عدداً من الأفكار، ثم استقر رأيه أن يعود لمكتبته في البيت. حانت منه التفاتة للمقعد، الذي بجانبه، حيث وضع الكتاب، الذي حمله معه من البيت. لاحظ أن لاصق السعر، الذي وُضع في أسفل الكتاب ، يحمل اسم المكتبة، التي اُشتري منها. خطر على باله أن يذهب إلى المكتبة، بدلاً من المنزل ، ليطلع على الإصدارات الجديدة.

داخل المكتبة، انهمك بتصفح الكتب الجديدة، أو تلك التي لم يرها من قبل. مرّ الوقت سريعاً. لم يشعر بذلك ، إلا حينما سمع التنبيه ، من صوت المذيع الداخلي ، يعلن أن المكتبة ستغلق أبوابها للصلاة، بعد عشر دقائق . حمل الكتب التي عزم أن يشتريها، وتوجه للمحاسب. كان هناك صف طويل . أخذ مكانه

في الصف، وانشغل بالقراءة .

من داخل الصف.. أمامه ، كان يسمع شخصاً ، يتحدث مع آخر، بصوت مرتفع . حاول أن يتجاهل الصوت.. بتركيز أفكاره على ما يقرأ، لكنه لم يستطع . في كل مرة يعلو فيها الصوت ، يحس بالنبرة تثير فضوله.. وربما توتره. لم يقدر على تبيّن وجه صاحب الصوت، الذي كان قد أعطاه ظهره. حينما وصل الشخص إلى المحاسب ، والتفت ليدفع ثمن الكتب التي معه.. رأى جانباً من وجهه . كاد يقفز من مكانه ، وينطلق نحوه، لكنه فضل الانتظار .. قبل أن يجزم بأنه هو. أطال التحديق، وزاد من تركيزه ، ليتأكد منه . في إحــدى التفاتاته ، رأى وجهه كاملاً. همس في سره : إنه هو، فناداه بصوتٍ عال:

- يزيد..!

التفت الشاب، و رفع بصره باتجاهه. مرت لحظات، وهو يتأمل هذا الذي يناديه، أشرق بعدها وجهه بابتسامة، وقال بدهشة، وصوت سمعه الجميع:

- أحمد.. غير معقول..!

وضع الكتب التي في يده، وأومأ لصاحبه، الذي كان يتحدث معه.. لينهي عملية الشراء مع المحاسب ، وخرج من الصف، قاصداً أحمد. أخذه بالأحضان، وتبادلا عبارات الترحيب والاشتياق. يزيد.. لم يُخفِ عتبه على أحمد لانقطاعه:

- حاولت الاتصال بك مرات كثيرة. في كل مرة أجد جوالك مقفلاً. سألت أكثر الإخوة عنك.. كلهم ذكروا أنه ليس لك اتصال بأحد.

- صحيح.. جئت وانشغلت مع الوالد والوالدة .. بموضوع عبدالله

رحمه الله. الوالدة لم يكن وقع الخبر عليها هيّناً.

- معها حق..! رحيل عبدالله، كان فاجعة لكل من عرفه. لقد عرفت عن الشهيد، من إخوة هنا، ماجعلني أبكيه من قلبي، وأنا لم أتشرف برؤيته، أو معرفته.

- كيف حال الشباب، والإخوة كلهم..؟

- بخير.. ويسلمون عليك. معظم من اجتمعنا بهم في باكستان، يسألون عنك.. خاصة عندما يرد الحديث عن عبدالله، وشهداء قلعة جهانجي.

- أنا كذلك.. مشتاق لهم والله. حاولت اليوم أن اتصل بناصر، لكن جواله مغلق..

- ناصر..؟!

- نعم.. ناصر، الذي كان بعض الإخوة يمزحون معه، ويسمونه: "الأخ المشكلة فينا" .. لأنه كان لا يتفق مع معظم آرائهم، و يعترض على انتقاد الأنظمة والحكومات ، ويقول : يا إخوان المشكلة فينا ..!

- أووه.. نعم عرفته. ناصر أبو محمد، الله يصبّحه بالخير. شكلك فعلاً، منقطع عن العالم..!

- هاه.. كأن فيه أمور صارت، ومادريت عنها ..؟

- ناصر سكّروا عليه (الجماعة)، من أكثر من شهرين ، وممنوعة عنه الزيارة. حتى أهله ما يعرفون مصيره ، ولا يدرون أين أرضه من سمائه . فيه كلام، إنه تعرض لتعذيب شديد، وهناك شك ، أن منع الزيارة عنه ، هو بسبب ما صار إليه وضعه الصحي .. بعد السجن ، بحيث لا يسمح لأحد من أقاربه أن يراه..!

- على أيش..؟!
- ألقى كلمة ، بعد صلاة الجمعة ، في مسجد (الولاء والبراء).. عن انتهاك أعراض المسلمات ، في سجون الأمريكان في العراق، ودعى للجهاد، وجمع تبرعات لدعم المجاهدين ..!
- هو آخر واحد ، كنت أظن أنه يُعتقل..!
- هذا الكلام تقدر تقوله للمباحث.. يا الحبيب. أنا لازم أمشي.. صاحبي خلص، وأنا جئت معه. خلّ يصير بيننا اتصال، جوالي هو نفسه.. ما تغير.

انصرف يزيد، لكن لقاء المصادفة الخاطف القصير، ترك في نفسه تساؤلاً كبيراً : يزيد لديه معلومات كثيرة . اللقاء كذلك .. أيقظ مخاوفه، وأثار قلقه .. خاصة اعتقال ناصر . بعد يومين اتصل به ، ودار بينهما حوار مطوّل على الهاتف . تطرّقا في الحوار ، إلى اهتمامات الشباب، وأنشطتهم .. خاصة المتعلقة بأوضاع الجهاد ضد الإحتلال الأمريكي في العراق . اتفقا على اللقاء ، في إحدى الاستراحات ، لكن في اللحظة الأخيرة ، تم إلغاء اللقاء .

بعده بيوم ، أعلن البيان ، الذي ورد فيه اسم يزيد .. ثم تواردت أخبار عن اعتقاله . عرف فيما بعد ، أن إلغاء اللقاء ، كان بسبب مداهمة الاستراحة ، التي كانت تحت المراقبة ، من قبل أفراد المباحث .. واعتقال بعض الأشخاص .

-٢٠-

كان قد مضى ما يقرب من ثمانية أشهر ، على غياب أحمد، بحجة السفر للتجارة .. حينما قرأ رسالة مشفرة ، في الانترنت.. عنوانها : " أم الشـهيد (أر . بي . جي) .. لم يبق لها إلا الله ". لم تتضمن الرسالة سوى دعاءً لأم الشهيد بالصبر ، لكنه أحس أنها موجهة له .

في الثلاثة أشهر الأخيرة ، انقطعت اتصالاته بأهله، التي كانت على نطاق ضيق ، من بداية اختفائه . كان قد مَهّدَ لهذا الانقطاع بتبريرات غير مقنعه .. أول الأمر. ثم صارحهم أن هناك أسباباً أمنية وراء غيابه .. تجعله لا يتصل بهم. في آخر اتصال ، قال لأمه .. التي كانت غير مقتنعة بتبريراته، وتساورها شكوك، حول الأسباب الحقيقية لغيابه :

- أنا لم أسافر للتجارة .. إنهم يطاردونني ، دون ذنب ارتكبته.
- لماذا تظن أنهم يطاردونك .. يا ولدي ..؟ يبدو أنك توهمت ذلك، أو كذب عليك أحد .. فهربت ، وجعلت نفسك في موضع شبهة .

احتد .. ورد منفعلاً :

- أنا لست طـفلاً يا أمي ، ليضحك علي أحد . ألم يأتوا إلى منزلنا للقبض علي ، صباح اليوم الذي غادرتكم فيه ..؟!

رسالة الانترنت، جعلته يغامر ويتصل بالبيت ، رغم تحذيرات

رفاقه. هي من ردّت على الاتصال .. كأنما كانت تنتظره . ترك غيابه فؤادها فارغاً ، وصوتها قد امتلأ جوىً ، كان يقطّعه نشيجها . لم تفلح توسلاتها له ، بتسليم نفسه .. ما دام موقناً، أنه لم يرتكب شيئاً . جادلها في المصير الذي آل إليه يزيد .. الذي يصفه بأنه شاب ساذج ، لا (يسرح بعنزتين) . اعتذر عن الاستمرار في المكالمة، لأن هذا، كما يقول، قد يقود الجهات الأمنية إلى معرفة مكانه، عبر مراقبة الاتصالات. أمام إلحاحها، ورجاءاتها المتتالية، بأن لا يعذّبها بغياب طويل.. وعدها بأن يراها قريباً.

طبعت المكالمة في نفسه أثراً سيئاً. توسلات أمه الملهوفة.. قلقها.. خوفها.. رجاؤها الحار، الصاعد من أعماق نفسها الكسيرة، انغرس في أعماقه، مثل سيف من لهب.. فشق روحه. أصبح يتنازعه أمران: الطريق الجديد الذي سلكه، بعد اختفائه، وأوغل فيه كثيراً.. فكراً وأصحاباً. الأمر الآخر.. روحه التي صارت بعد المكالمة، نزّاعة لامرأة جعلته سببها الوحيد، الذي تتعلق بالحياة من أجله:

- لا تموّتني.. وأنا حيّة يا أحمد. ما لي بعد الله، بعد ماراح عبدالله.. إلا أنت..!

عاد إلى أصحابه، بتلك الروح الجريحة..المقسومة نصفين. عَجَزَ أن يقشع الغمامة، التي كست وجهه، بظلال من الحزن. كلما أراد أن يظهر بغير مايشعر، أحس بأنين أمه .. وتوسلاتها، تخرج كسحابة دخان حامية، من صدع روحه ، فتغشى وجهه.. بعتمة ولهيب . مثل بركان يزفر حممه.. فيمتد دخانه في الفضاء، ظلاً هائلاً، ولساناً من لهب.. يملأ ما حوله بالظلام والحمم.

كلماتها: " لا تموّتني وأنا حيّة ، مالي إلا أنت" .. تدوي في أعماقه، كصافرة قطار، يستعد لرحلة أخيرة.. نحو المجهول.

"أبو الشهيد على غير عادته .. ما هو طبيعي ، أكيد صار له شيء".

كانت هذه أول عبارة يسمعها، حينما دخل على رفاقه.. بعد حديث المكالمة الهاتفية مع أمه. انزوى في ركن من الغرفة، بعد أن ألقى السلام.. دون أن يتكلم. حاول بعض الرفاق معرفة مابه.. لكنه رفض الإفصاح عن مشاعره. كان يخشى من عبارة تتهم رجولته، فتطعنه في كبريائه.. أو مقارنة بين صمود عبدالله و ضعفه.. فتضربه في كرامته . كل الذي أجابهم به، بعد إلحاحهم، أن أمه مريضة .. وتوسلت إليه أن تراه . أبو عمر ، أقرب الأصحاب إليه ، فسّر ذلك بشوق الوالدة، ولهفتها لرؤية ابنها ، واقترح ترتيب خطة كي يراها ، لتطمئن عليه ، ويهدأ بالها . رفيق آخر .. قال بدعابة ثقيلة ، أنه ليس طفلاً، و أنه ما تكنى بـ (أبو الشهيد)، إلا ليكون أهلاً للمسؤولية .. وتحمّل مثل هذه المواقف. ثم أضاف.. بلغة حازمة:

- الطريق طويلة ، وتحتاج تضحيات.. بما في ذلك الأهل والأولاد..

وقع في نفسه شيء من تعليق صاحبه هذا، ولمزه له .. بأنه ليس طفلاً. شعر بألم يضاف إلى الهمّ الذي لديه.. بسبب التعريض بقدرته ، على تحمّل المسؤولية .. مقارنة بأخيه ، الشهيد عبدالله، الذي تكنى به .

كان قد اختار أن يُكنّى بـ (أبو الشهيد)، جرياً على العادة

المتبعة، بين شباب الجهاد . أصبح تقليداً، أن تختفي الأسماء الحقيقية، مقابل الكنى.. كجزء من ثقافة الجهاد. الكنية ليست فقط .. تيّمناً بشخصية رمزية، مارست فعلاً يتسامى على شهوة الذات، ولا محاولة.. لاستعادة دور الشخصية الخاص والمتميز. بل عملية انسلاخ كامل من الأنا ، بنقصها وعجزها.. والارتباط بالرمز المثال: بإنجازه.. بكماله، بما يمثله من قيم علويّة، تقدم المجموع (الأمة)، على الفرد (الأنا). هي كذلك.. في واحد من أبعادها العميقة، الموغلة في اللاشعور ، تعبيراً عن قطيعة .. مع (حاضر) ذليل مهزوم، والارتباط بـ(ماضٍ) عزيزٍ منتصر.

في مساء اليوم الذي التحق فيه أحمد بالشباب، كان هناك احتفاءً غير عادي بوجوده. أبو عمر، كان هو الذي قدّمه للمجموعة:

- أخوكم أحمد الشاهد، شقيق عبد الله (أبو القعقاع النجدي).. مسقي الشيوعيين في أرض الأفغان ، كؤوس الموت. أسرة كريمة.. ذرية بعضها من بعض. أحمد عقد صفقة مع الله، مستجيباً لداعي المولى سبحانه: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم..." لقد قرر أن يلتحق بإخوانه، في كتائب الحق ، لتحقيق ذروة سنام الإسلام ، كما أمر بذلك إمام المجاهدين صلى الله عليه وسلم .
- ربح البيع.. ربح البيع، يا أبا ...
- سَمّوه أبا الشهيد، تيَمُّناً بعبدالله، ذلك الأسد الهصور، الذي نحسبه عند الله شهيداً.
- ربح البيع يا أبا الشهيد.. نِعْمَ والله من تكنّيتَ به. أشهد والله، أن ساحات الجهاد، قلَّ أن تعرف بطلاً كهذا ، ولم أرَ بين

الرجال وفاءً لأمته مثله. تنقّل بين ساحات الجهاد من أفغانستان، إلى الشيشان.. إلى البوسنة، حاملاً روحه على كفه، فداء للإسلام.. ثم مات نافراً للجهاد، كأنما النداء يعنيه: " انفروا خفافاً وثقالاً..".

استحسن الكنية، خاصة أنها تربطه بعبدالله، الذي أصبحت شخصيته الرمزية البطولية ، تسيطر عليه . الحفاوة التي اُستقبل بها، والكنية التي أعطيت له، جعلته في أجواء مختلفة . جزء من الوهج الذي تتمتع به شخصية عبدالله، أحسّ به يسري في كيانه .. وعادت به الذاكرة إلى بيت الأنصار في بيشاور .. حيث أحاديث البطولة ، وقصص الشجاعة ، والشهداء ، والكرامات.

أبو عمر، صديق قديم لعبدالله، لم يسافر أبداً، بغرض الجهاد، ولم يحمل سلاحاً في حياته. كان في أول حياته، شاباً عادياً، له اهتمامات بالكرة والرياضة ، لا تخلو من التعصب. بدأ حياته العملية صحفياً متعاوناً، مع جريدة تصدر في إحدى العواصم الأوروبية . ثم تدرج في العمل ، حتى أصبح مسؤولاً عن مكتب الجريدة في الرياض ، لعدد من السنوات. أثناءها.. كان كثير السفر ، يتردد بين مكتب الجريدة ، ومقرها الرئيس ، في العاصمة الأوروبية . بدأت علاقته بعبدالله ، حين نشر تقريراً صحفياً، عن الجهاد والمجاهدين .. الذين دأبت وسائل الإعلام، على وصفهم بـ(الأفغان العرب) . كان التقرير ، من وجهة نظر عبدالله ، وكثير من المجاهدين ، مليئاً بالمغالطات ، وفيه تجنٍ واضح على المجاهدين .

عدد الجريدة ، الذي نُشر فيه التقرير، تم تداوله على نطاق واسع بين شباب الجهاد .. كما درجت العادة على تسمية الشباب

المتدين ، الداعم أو المتعاطف، مع الجماعات المقاتلة .. تلك التي لها نشاطات عسكرية ، يقوم بها أفراد مسلمون ، في بلدانهم، ضد قوى أجنبية .. أو يقومون بأعمال مسلحة، في بعض مناطق النزاع، بين أقلية مسلمة ، وأكثرية غير مسلمة . التقرير كان مصدر استياء وغضب ، لكثيرين منهم ، مما جعل بعض الشباب يخطط للاعتداء عليه وتأديبه .. كما صرح بعضهم بذلك . عبدالله كان له رأي مختلف :

- أنا أفضّل أن تتم مناصحة الرجل.. وتوضيح الحقيقة له..!

- هل تظن أن هؤلاء تخفى عليهم الحقيقة. موضوعه ينضح بالحقد والأكاذيب.. وموالاة أعداء الله . هؤلاء .. أهل هوى ومصلحة ، لا ينفع مع هذه الأشكال ، إلا لغة القوة .. إنهم جبناء.

- هذا الأسلوب لا يجدي ، وقد يعود أشد وانكى على أهل الخير والصلاح. ثم لا تنسَ أنه محمي من السلطة..! دعوني أجرب مناصحته.

اتصل عبدالله بكاتب الموضوع ، (ولـيد النافع) ، مدير مكتب الجريدة، الذي تكنّى بـ (أبو عمر) فيما بعد.. بعد أن ترك الجريدة، وأصبح محسوباً على الشباب المتدين. كان هناك نقاش قصير على الهاتف ، حول التقرير المنشور ، وسياسة الجريدة بشكل عام . الانطباع الجيد لدى عبدالله ، عن الحوار الذي جرى أثناء الاتصال ، شجعه أن يطلب مقابلة وليد. كانت نتيجة اللقاء مذهلة، بكل المقاييس. استطاع عبدالله أن يصحح رؤية وليد ، تجاه الجهاد والمجاهدين ، بل إنه غيّر قناعاته كليّةً ، مما

انعكس على منهجه في تغطية أخبار الجهاد ، و في حديثه عن المجاهدين ، فأصبح ينحو نحو الاعتدال والموضوعية . التحول الذي طرأ على وليد ، كان محل مراقبة ومتابعة رئيس التحرير، الذي عمد إلى فصله وطرده من العمل ، متهماً إياه بالتواطؤ مع (الأصوليين) . كانت صدمة له ، أن يُعامل بهذه الطريقة ، رغم خدمته الطويلة في الجريدة .. لكنه استوعب الموقف ، وأخذ طريقاً مغايراً .. منخرطاً في أعمال خيرية .

التجربة التي اكتسبها وليد من عمله السابق، إعلامياً متنقلا، داخل و خارج المملكة ، أفادته في عمله الجديد.. ناشطاً في جمعيات إغاثية ، تتركز جهودها في البلاد الإسلامية ، التي تعاني من كوارث إنسانية ، بسبب الحروب.. خاصة أفغانستان والبوسنة والهرسك. لم يلبث وليد ، بعد طرده من عمله في الصحيفة ، وانخراطه في عمله الجديد.. في (مؤسسة الحرم الخيرية) ، الذي يقول عنه أنه : " ممارسة إعلامية ، بالأفعال .. لا بالأقوال" .. حتى ذاع صيته، بعد أن وظف خبرته وقدراته ، في تطوير العمل الإغاثي .

علاقة وليد القديمة بعبدالله، ظلت مستمرة ، على فترات متباعدة، وساهمت بشكل كبير، في دفعه باتجاه عمله الجديد. هذه العلاقة .. كانت كذلك ، مصدر ثراء معلوماتي له ، حول الجهاد والمجاهدين ، واللاجئين في أفغانستان .. على وجه الخصوص ، وظفها في تطوير عمله الجديد ، وكان قد استفاد منها ، في الفترة الأخيرة من عمله في الجريدة . فحينما كتب مقاله ، الذي اشتهر به كثيراً ، وكان له صدى كبير في الوسط الإعلامي ، عن مفهوم تقاطع المصالح ، بين المجاهدين

والأمريكان، في التصدي للغزو السوفيتي ، كان يلمح ، كما ذكر فيما بعد ، إلى تهافت تهمة العمالة للأمريكان ، التي غالباً ما تلصق بالمجاهدين . هذا المقال تحديداً ، هو ما جعل رئيس التحرير، يتخذ قراراً بفصله من عمله ، وطرده من الجريدة .. دون حفل توديع أو تكريم ، كما هي عادته ، مع الصحفيين الذين يعملون في الصحيفة، ثم يتركونها.

بعد خروجه من الصحيفة بأيام، اتصل بعبدالله.. وقال ممازحاً:

- فُصلت من عملي بسببك..! طردني رئيس التحرير.. يقول آخر شيء أقبله ، أن يكون هناك اختراق أصولي للجريدة.

شعر عبدالله بأسى، وكان الخبر مفاجأة له.. فقال مواسياً:

- كنت أظن رئيس التحرير ، سيفرح بالطرح المتوازن ، الذي سيجلب قراء آخرين للصحيفة . لماذا لم يتعامل مع أسلوبك المعتدل في الطرح .. على أساس أنه رأي آخر ، يسع الجريدة أن تقبله..؟

- أنت لا تعرف رئيس تحرير صحيفتنا..! إنه ليبرالي ديمقراطي، إذا كان (الرأي الآخر)، إعادة إنتاج لأفكاره وقناعاته. حينما كتبت مرة عن الرقص الشرقي ، وقلت إنه موروث ثقافي، يجب المحافظة عليه ، من سطو الراقصات الروسيات .. كافأني ، و أثنى عليّ في اجتماع للزملاء في الجريدة ، وقال: "وليد علماني مستنير .. أجد نفسي فيه" . الأسبوع الماضي، حين بُلّغت بقرار فصلي ، ذكر لي أحد الزملاء ، أنه هددهم بأن من يتصل بهذا الظلامي المتخلف .. يعني أنا ، سوف يلقى مصيره..!

-٢١-

انغمس وليد النافع ، أو أبو عمر، في العمل الإغـــاثي ، و ذاع صيته، واشتهر أمـــره بين شـــباب الجهاد، خـــصوصاً.. تـــحوله من صـــحفي مشـــهور، معادٍ للجهاد و(الجهاديين)، إلى شاب متدين، له حضور متميز في الأعمال الإغاثية ، في المناطق التي أصبحت بعض مجتمعات المسلمين، ضحية للحروب فيها. قصة فصله من الصحيفة التي تحدّث بها، في أكثر من مجلس ، وكلام رئيس التحرير عنه ، حين وصفه، بأنه (علماني مستتير) ، شاع كثيراً في أوساط الشباب ، حتى صار بعض أصحابه يداعبونه، ويطلقون عليه لقب (العلماني).. فانتشر، وعُرف به. هذا اللقب.. لم يكن يحبذه، وأعلن ذلك صراحة، في إحدى مكاشفاته:

- أرجوكم.. لا أحب أن يذكّرني أحد بذلك المجتمع الساقط. لقد كنت مرة في لندن ، في زيارة المقر الرئيس للجريدة .. نهار رمضان المبارك ، ففوجئت ببعضهم يحضرون الخمر .. ويحتفلون قائلين : " اشربوا نخب رمضان"..!

في كل لقاء يجمعه بالأصحاب الجدد، تُثار معه (حقيقة) مايقال عن (الليبراليين) ، كما يسمون أنفسهم .. وفسادهم . كان يؤكد ذلك، وصار دأبه الحديث ، عن ممارسات حدثت ، في مجتمع عمله السابق، كجزء من (سياسة فضح) بيئة الفساد والفجور ، لمن يسمون أنفسهم .. العلمانيين والليبراليين ، كما

يقول. في إحدى المرات ، تحدث عما سماه : اصطياد البنات، من خلال بريد القراء:

- يحـرصون على النشر للفتيات .. والأسماء النسائية عموماً، ويبرزون مواضيعهن، فإذا ما تعلقت البنت بالأضواء ، وشعرت أنها صارت مشهورة .. توقفوا عن النشر لها، وطلبوا منها الاتصال بالجريدة ، للتباحث بخصوص موضوعها .. وحين تتصل ، تبدأ المساومة والابتزاز . كثير من الساذجات سقطن ، بسبب هذه الحيلة.

أقسم أنه في إحدى المرات ، كانت التي تراسلهم فتاة معاقة ، يُحْضِرُ سائق أسرتها الخاص ، مشاركاتها مباشرة للصحيفة .. ولم يمنعهم ذلك ، من محاولة مساومتها وابتزازها .

مكاشفات أبي عمر ، وأحاديثه عن (مجتمع) الصحيفة ، التي كان يعمل بها سابقاً ، عمّقت الشعور لدى معظمهم ، أن إعلاماً ضالاً وفاسداً، ليس إلاّ انعكاساً لأناس فاسدين . لقب (العلماني) ، الذي يطلقونه عليه .. مزاحاً ، لم يعد بالنسبة لهم كلمة عابرة ، قيلت في غير سياقها. بل يعبر عن مواقف و مضامين ، تصدّقها.. أحداث مثل هذه ، التي يتحدث عنها، لأناس هذه (حقيقتهم) .. كما صاروا يؤمنون ، وهذا ما يجب أن يكون الحكم عليهم ، وعلى من يدافع عنهم . عبّر عن ذلك (أبو عاصم)، في عبارة تقريرية حاسمة :

- يشربون الخمر في نهار رمضان.. عناداً..! هل بعد هذا الكفر من كفر..؟

ويضيف:

- لم تعد هناك صعوبة ، في فهم ولعهم العجيب بالفساد، و

لماذا يقفون هذا الموقف من المجاهدين .. ولماذا هذا الولاء والحب لأمريكا ، والكره للإسلام وأهله ، ومناصرة أعدائه..!
هل في قلب أحد ، يجادل عن هؤلاء.. ذرة من إسلام ..؟
هذه الرؤية أصبحت عامة ومسيطرة.. ومثلت لديهم .. مرجعية ، لفهم موقف من يسمونهم (العلمانيين والليبراليين)، من قضايا المسلمين. صار سائداً بينهم.. الجزم بولاء (هؤلاء) للكفار، ومحاربتهم للإسلام . اعتبرت هذه المواقف كذلك .. قرينة للحكم عليهم ، وإصدار الفتاوى ضدهم .. وربما استباحة دماءهم .

أول لقاء لأحمد بوليد.. أو أبو عمر .. كما صار يكنّى ، كان في عزاء شقيقه . حين جاء وليد يعزّي بعبدالله . لم يكن أحمد قد عرف بخبر تحوله ، والتحاقه بالشباب المتدين.. وتلقبه بأبي عمر ، وإن كان قد سمع بقصة تركه للجريدة ، دون معرفة الأسباب . ثمة تغير واضح وجذري في مظهره الخارجي .. حدث نفسه : " ليس هذا (وليد) الصحفي والرياضي المشهور ، الذي يحرص على الظهور بكامل أناقته في وسائل الإعلام ، واختار لنفسه صورة شخصية ، ترافق أي خبر ينشر عنه في الصحافة.. يبدو فيها ، مثل شاب بوهيمي عابث " .
حين عانق والده معزياً، سمعه يقول :
- ابنكم الصغير وليد النافع .. أبو عمر. عظم الله أجركم بذلك البطل.. ما مات يا أبا عبدالله ، من قُتل شهيداً. مامات من أحيا به الله خلقاً كثيراً .. فما أنا ومئات غيري ، إلا صنيعة من صنائع عبدالله.
تكلم أبو عمر، مؤبناً عبدالله .. وبكى . لم يكن أحمد يعلم ،

بالذي جرى بين وليد وشقيقه عبدالله . لذلك.. لم يفهم قصده من قوله ، أنه صنيعة عبدالله . بدى الأمر له لغزاً: متى التقى عبدالله بوليد.. أو أبو عمر ، كما يلقب نفسه ، و قَلَبَه بهذا الشكل..؟ يعلم أن عبدالله يملك مقدرة خاصة على التأثير، في كل من يقابلهم، لكن.. ليس أن يحدث تحولاً ضخماً ، بهذا المستوى .. كالذي يراه في وليد أو (أبو عمر). للمرة الثانية ، يشعر بسطوة شخصية عبدالله عليه . حديث أصدقائه عن جهاده وبطولته الفائقة.. ثم موته الأسطوري ، قتيلاً تحت أنقاض القلعة ، بسبب القصف الأمريكي ، كانت المحطة الأولى ، لعملية تغير جذري في حياته: عبدالله بالنسبة له ، لم يعد شقيقاً فقط، بل رمزاً ملهماً. وشيجة (الدم) ، نظر إليها بمفهوم مختلف.. النسب أحدها، و(الغاية) التي أريق من أجلها الدم ، تأتي في قلبها .. ثم طبيعة (العدو) الذي استباح ذلك الدم . كل ذلك، خلق من علاقته بعبدالله ، شيئاً مختلفاً ومتميزاً ، حدد مسار حياته فيما بعد:

تقدم أبو عمر إلى أحمد يعزيه . شد على يده ، و كرر جملة: كلنا نُعزّى في الفقيد. كان يتأمله وهو يصافحه : لحيته طالت ، وحديثه أصبح مختلفاً، إلا أن شخصية وليد ، الشاب العصري العابث.. لم تبرح مخيلته وإن كان الظاهر قد تغير تماماً:

- شكراً لك، و جزاك الله خيراً.. يا أخ وليد..

شَدّ على يده :

- أخوك أبو عمر..!

ثم اقترب منه ، وهمس في أذنه ، وهو يحضنه :

- أرجوك .. أنا أخوك الذي لم تلده أمك، أو أخوك الذي صنعه عبدالله. دعني في خاطرك.. أول الناس، حينما

تحتاج شيئاً .. أي شيء.

ثم أخرج بطاقة عمل، تحمل معلومات شخصية، وناولها إيّاه.

بقيت العبارة الأخيرة: " دعني في خاطرك.. أول الناس"، عالقة في ذهنه ، إلى ظُهر ذلك اليوم، الذي أذيع فيه البيان .. عن مطلوبين للجهات الأمنية، بينهم يزيد . حينها .. أحس بخوف غريب ، واستشعر رهبةً من الغد القريب . استبد به قلق شديد، ولم يدرِ ما يفعل ، ولا بمن يتصل . ضاقت به الدنيا ، فتذكر أبو عمر ، وعبارته الأخيرة ، فعزم أن يتصل به . كان قبل ذلك، قد اتصل بجوالات ، أغلب من في القائمة ، التي كان أسامة ، قد أعطاها إيّاه في المطار.. كلها كانت مغلقة . حين اتصل بأبي عمر، لم يرد عليه ازداد قلقه وخوفه، فأرسل رسالة جوال: " أنا أحمد الشاهد ، أريدك ضروري". بعد دقيقة، جاءه الرد ، من رقم مختلف: " اتصل من كبينة .. على هذا الرقم".

ذهب إلى أقرب كبينة اتصال.. وطلب الرقم . لم يطل انتظاره، حتى سمع صوته ، على الطرف الآخر:

- لا تحدد مكانك، ولا تذكر أسماء.
- أنا..
- عرفتك.. ماذا تريد.. هل هو بشأن (البيان) الذي أُعلن اليوم..؟
- نعم..
- هل لك علاقة، أو معرفة بأحدهم..؟
- نعم..
- الدور عليك، لا تنم الليلة في بيتكم. أغلق جوالك، واتصل بي

بعد صلاة العشاء، على نفس الرقم.. من كبينة عامة .

عاد إلى البيت، متصنعاً عدم القلق. فاتَح زوجته بعزمه على السفر الليلة، لظروف طارئة ، لها علاقة بتجارة ، بدأها مع أحد الشركاء .. كما قال . حين سألته ، عما إذا كان غيابه سيطول، أخبرها بأنه لا يدري . موضوع السفر الطارئ ، وإجابته المبهمة، أثارت مخاوفها .. فألحت عليه أن يقول لها الحقيقة . كان مرتبكاً ومتردداً . خشي إن أخبرها ، أن يتسبب لها بأزمة صحية ، خاصة أنها حامل في شهرها الأول . لم يجد مناصاً من أن يصارحها:

- اليوم أذيع بيان من الداخلية ، عن مطلوبين .. بينهم أشخاص كنت قد تعرفت عليهم في أفغانستان وباكستان. لدي إحساس عميق بأنني سأعتقل، بتهمة الاشتباه .. أن لي علاقة بأنشطة يقومون بها .

حـــــاولت أن تثنيه عن عزمه ، والإيحاء له ، بأن إحساسه هذا ، قد يكون مجرد أوهام .. إلا أنها واجهت منه إصراراً وتأكيداً ، على أنه مستهدف:

- لقد اعتقلوا أشخاصاً .. هم أبعد ما يكونون عن العنف والتكفير، مثل شخص إسمه ناصر . حتى يزيد .. الذي ورد اسمه في البيان ، وأظن أنه الآن قد اعتقل.. شاب ساذج وبريء جداً .

طلب منها أن تتصل بأحد أشقائها، إن رغبت الذهاب إلى أهلها، لأنه لا يستطيع إيصالها. بقي في البيت إلى صلاة العشاء، حيث أدّى الصلاة في البيت، ثم نزل إلى والدته. كانت في مصلاها. سلم عليها، وأخبرها بنية السفر ، بغرض التجارة،

والبحث عن لقمة العيش . لم تجادله كثيراً .. ودّعها وخرج .
ركب سيارة أجرة، و قصد كبينة اتصال ، تقع في شارع عام، بعيداً
عن بيتهم.

اتصل ولم يُجب أحد. كرر الاتصال دون نتيجة . بدأ التوتر
يتسلل إلى أطرافه ، التي صارت ترتعش . أخذ يرقب الشارع،
من خلال زجاج الكبينة . كلما هدّأت سيارة من سرعتها ،
وأوشكت على الوقوف ، ظنها تابعة لأفراد من المباحث ، جاءوا
للقبض عليه. اتصل للمرة الثالثة.. القلق صار ينمو في قلبه، مع
كل رنة اتصال ، تنتهي بلا جواب . شعر كأنما قلبه مسطح ماءٍ
كبير، وأنّ رنات الاتصال ، مثل أحجار ترمى فيه ، فتخلق دوائر،
تتسع باتساع الخوف ، الذي صار يتمدد داخله .. مع كل رنّة
تذهب ولا تعود. كان قد شارف على اليأس ، مع اقتراب انقطاع
الاتصال.. عندما سمع صوته:

– آلو..
– نعم.. نعم
– تعمّدت ألاّ أرد عليك مباشرة، لأتأكد أنه أنت .. من إلحاحك
بالاتصال.
– لو لم ترد ، كنت لا أدري ماذا سأفعل..!
– خذ (ليموزين) ، و توجه إلى شارع أسد بن الفرات ، في حي
العاصمة. في منتصف الطريق ، غيّر سيارة الأجرة ، وتأكد
أن لا أحد يتبعك . حينما تصل .. هناك في نهاية الشارع،
من جهة الشمال ، توجد مكتبة (السراج المنير).. سوف
أنتظرك هناك . لا تنزل أمام المكتبة مباشرة .. وتأكد أيضاً،
أن لا أحد يتبعك ، وأنت تتوجه للمكتبة . إذا دخلت المكتبة لا

تبحث عني ، أنا سآتي إليك .. وإذا التقينا لا تعانقني .

وصل المكتبة، ونفّذ ما أمره به. مضت عشر دقائق، داخل المكتبة، بقي خلالها يتصفح الكتب. مرّ بعدها من جانبه.. و قال بصوت مسموع:

- أنا كذلك، لم أجد تخريج الألباني ، لأحاديث (الملل والنحل) للشهرستاني. لقد تأخرنا على مضيفنا ، يجب أن نمشي .

سارا .. مع بعض، ثم همس له ، دون أن ينظر إليه:

- لا تتلفّت.. و دعنا نتحدث عن العقار.

خرجا من المكتبة، واجتازا الشارع، إلى الجهة المقابلة. سارا عكس اتجاه السير، إلى أول شارع فرعي ، حيث ثمة سيارة بيضاء صغيرة واقفة ، في زاوية لا يصل إليها نور الشارع الرئيس. ركبا .. وانطلقا إلى داخل الحي . بعد أن سارت السيارة قليلاً ، توقف و قال:

- أول شيء تفعله الآن.. ان تتخلص من جوّالك هذا .

- الشريحة..؟

- الشريحة والجهاز.. يمكن الوصول إلينا عن طريق جهازك المغلق!

أخرج الجهاز من جيبه، وأراد أن يقذفه من النافذة، فاعترض عليه. أخذ الجهاز منه، واستخرج الشريحة، ثم نزل و وضع الجهاز تحت عجلة السيارة ، وداس عليه. بعد أن سار قليلاً ، أتلف الشريحة ورماها .

جال داخل الحي لدقائق، توجّه بعدها لطريق رئيس . لم يكلمه خلالها. شعر بثقل الصمت ، فأراد أن يثير موضوعاً ، يدفعه للكلام .. فسأله:

- إلى أين سنذهب..؟
- إلى الشباب..
- مَن..؟
- المجاهدين..!

نظر إليه باستغراب . لم يكن يظن في يوم من الأيام ، أن شخصاً مثل هذا ، ستكون له علاقة بالجهاديينً . منذ متى وهو مرتبط بهم ، وهل كان ينوي تجنيده، حينما طلب منه ، يوم العزاء أن يتصل به ، إذا احتاج إلى شيء..؟ كيف عرف أن ظرفاً كهذا سيحصل..؟ تداعت الأسئلة إلى خاطره، وهو يلحظ السيارة ، تتجاوز السيارات الأخرى ، بسرعة غير عادية . سيطر عليه شعور غريب .. أحسّ كأنما السيارة بانطلاقتها السريعة ، تعبر إلى زمن آخر ، وأنه بعد لحظات سيكون في عـالم مختلف، لا علاقة له بالعالم الذي أتى منه . أعزّاؤه وأحبابه ، الذين تركهم، سيبقون شخوصاً في الذاكرة.

استشف أبو عمر ما يدور في خاطره.. فقال:

- لعلك تتساءل : ما علاقتي بالجهاد والمجاهدين ، وأنا الذي لم أسافر للجهاد ،ولم أدخل معركة .. أو أحمل سلاحاً في حياتي..؟
- نعم.. إضافة إلى ذلك ، فالمعلومات التي لدي ، أنك أقرب إلى (التبليغيين) .. ولستَ سلفياً جهادياً..
- صحيح.. لكن ذهابي لأفغانستان ، لأعمال الإغاثة ، جعلني مشبوهاً ومُتهماً..! أخبرني أصدقاء أن لديهم معلومات ، بأن الاستخبارات الباكستانية ، وضعت اسمي ضمن قائمة،

تتهمهم بالانتماء لتنظيم القاعدة، وقدّمتها للاستخبارات الأمريكية .

– يبقى الأمر احتمالاً ..!

– لا .. هناك زملاء لي ، في مؤسسات إغاثية ، من المملكة و دول الخليج .. اعتقلوا ونقلوا إلى (غوانتاناموا) ..

– هل فكرت أن تسلم نفسك للداخلية هنا .. وتوضح حقيقة موقفك..؟

– لا ..! هل فكرت أنت أن تسلم نفسك..؟ قضية أصحابك الذين اعتقلوا .. قضية اشتباه ، فيما يبدو ، وهي أهون من قضيتي. أنا بحكم عملي في الإغاثة ، التقيت بأشخاص تريدهم أمريكا بشدة.. وربما ألتقطت لنا صور، ونحن نتبادل الابتسامات..! هل تظن أنهم سيصدقونني ، إذا قلت لا أعلم شيئاً .. ليس بيني وبينهم، سوى عبوات طبية، وأكياس دقيق..؟ كم من العذاب سأتحمل حتى يقتنعون..؟!

لم يرد على تساؤله: لماذا لا يسلم نفسه ، رغم أن قضيته ، كما يقول.. هيّنة .

خطر على باله ، أنه ربما ليس مطلوباً ، وقد يكون استعجل في قرار الهروب والاختفاء..! صار يتذكر ناصر ، ويتذكر يزيد .. وآخرون لا يعلم مصيرهم. ألم يقل يزيد أن أهل ناصر لا يعرفون عن مصيره شيئاً ..؟.

وصل إلى يقين ، بأن قراره بالاختفاء .. هو الصواب . تعزز هذا اليقين ، حين عاد إلى خاطره ، وهو يستعيد جملة أبو عمر الأخيرة : " كم من العذاب سأتحمل حتى يقتنعون..؟" .. ما ذكرته

والدته، عندما كلمها صبيحة الليلة التي غادر فيها .. من أنهم كانوا أيضاً ، (يبحثون) عن أخيه عبدالله، إذْ لم يكتفوا بالسؤال عنه هو فقط ، لمّا جاءوا إلى بيت والدهم. همس لنفسه: كم من العذاب سأحتمل .. حتى يقتنعوا أن عبدالله قُتِل تحت الأنقاض، في قلعة جهانجي ، وليس فاراً أو مختفياً ، مع زعماء القاعدة في (تورا بورا) .. ويرسل التعلميات والأوامر من هناك ..!؟

-٢٢-

ظل أبو عمر الأقرب إلى قلبه ، من بين أفراد المجموعة. كان الوحيد، الذي يدعو إلى الهدوء ، واستبعاد الخيارات العنيفة. مازال حاضراً في ذهنه، حينما امتنع هو ، ومنعهم.. من تجنيدهم إيّاه ، في إحدى عمليات التفجير الانتحارية . يذكر وقتها .. أنه دخل مع بقية أعضاء الخلية ، في نقاش وجدل طويل ، كاد ينتهي بالانفصال .. حول مفهوم الجهاد ، و شرعية الأهداف . لم يجدوا حينها ، حينما ضيّق عليهم الخناق ، إلا أن يقولوا :

- هذه أوامر القيادة..

- نحن لم نبايعهم على هذا..!

أحس بعد هذا الحوار ، و حوارات أخرى مشابهة سبقته ، أنه يتفق مع أبو عمر في أشياء كثيرة .. خاصةً رفض التكفير ، واستهداف رجال الأمن . حالة الانكسار النفسي ، التي أصابته، بعد اتصاله بوالدته ، لم يجد سنداً من أحد ، يساعده على تجاوزها ، إلا أبو عمر الذي واساه ، و ذهب إلى اقتراح خطة ، يتمكن خلالها ، من رؤية أمه. كان هناك اعتراض ، ورفض من بقية الأعضاء للخطة .. خشية سقوطهم في يد الأجهزة الأمنية. أبو عمر أقنعهم ، وتكفّل بوضع خطة يرى فيها أحمد والدته ، دون مخاطرة :

- والدته مريضة ، وتحتاج إليه .. يجب أن يراها.

- العملية تشتمل على خطورة. المرتدون من قوات الطوارئ،

وكلاب المباحث .. في كل مكان . هناك خطر الاعتقال ، وهناك خطر القتل والتصفية.

- سأضع خطة.. بعد المتابعة وعمل التحريات اللازمة ، إن لم يوافق عليها الجميع.. لا تُنفّذ.

تم الاتفاق على ذلك ، وبدأ أبو عمر، بمشاركة أحمد، في وضع خطة . سأل أبو عمر أحمد ، إن كان له خالة، فأفاد بأن له خالتان . كان رأي أبو عمر أن يتم توصيل رسالة شفوية إلى والدة أحمد، يطلب منها أن تجتمع، في يوم محدد ، مع أخواتها في منزل إحداهما ، حيث سيحاول أحمد أن يقابلها هناك . الرسالة احتوت كذلك، على طلب أن تبقي الأمر سراً .. حتى عن أخواتها، إلى حين اللقاء. تقضي الخطة ، أنه في اليوم والوقت المحدد، يقوم أحمد بالاتصال على جوال إحدى خالاته ، والتحدث مع أمه لطمأنتها ، والاتفاق معها على مكان آخر يلتقون فيه .. في موعد لاحق ، بعد وضع الترتيبات اللازمة لذلك . اعتمدت الخطة في نجاحها ، على افتراض أن جوال الخالة غير مراقب، وأن الاتصال به آمن .

عرض أبو عمر الخطة على أعضاء المجموعة ، وتمت الموافقة عليها . في الموعد المحدد ، اتصل أحمد على جوال خالته فاطمة.. سلم عليها، وسأل عن أمه . فوجئت الخالة باتصاله ، وهرعت تنادي أختها :

- أم عبدالله ، يا أم عبدالله.. البشارة .. أحمد على التلفون..!

تظاهرت الأم بالمفاجأة.. و لم تخفِ فرحتها . حين التقطت الجوال من شقيقتها ، ظنت في البداية أنه سيخبرها أنه في

الطريق إليها :

- هل أنت قريب..؟

- أمي.. حبيبتي ، كيف حالك.. مشتاق إليك والله ..

- أحمد.. هل ستتأخر..؟!

- لن أستطيع رؤيتك اليوم..

- كيف..؟!

قالتها بجزع.. وأضافت:

- منيّت نفسي برؤيتك هذا اليوم . كان لدي موعد في المستشفى.. ألغيته. اعتذرت عن حضور مِلْكَة ابن جيراننا، و ولد صديقتي العزيزة، سيف السلطان.. هذه الليلة ، رغم إلحاح أمه ورجائها. كدت أمام إلحاحها و توسلاتها ، أفضح نفسي، و أقول : يا أم سيف أنت ستفرحين بِمِلْكَة سيف، و أنا سأكحل عيني برؤيه أحمد .

ثم انفجرت بالبكاء.

حاول أحمد تهدئتها. أخبرها أن الاحتياطات الأمنية ، تتطلب ذلك، وأنه لا يستطيع أن يتحرك ، دون موافقة أصحابه ، الذين يوفرون له غطاءً أمنياً:

- هذا الترتيب يا أمي للتأكد من سلامة الإجراءات التي وضعناها، قبل أن أتمكن من مقابلتك.

- هل تعني أنك ستراني و تذهب ..؟

- دعينا لا نستبق الأمور.. ياحبيبتي. أراك الآن ، ثم نبحث كيف ننهي الموضوع ، بالطريقة المناسبة .

الجزء الثاني من الخطة ، الذي أبلغه أحمد لوالدته ، هو أن تأتي بعد أسبوع ، إلى منزل خالته الأخرى .. مزنة ، مع سائقهم

الخاص . تبقى هي في المنزل ، وتعود الخالة مع السائق إلى بيتهم . أخبرها أن الهدف من ذلك ، تضليل أفراد المباحث ، الذين قد يكونون يتابعونها ، للوصول إليه . ثم بعد ذلك يأتي .. ليراها في منزل خالته.

التحريات التي قام بها أعضاء المجموعة الآخرون .. بعد اجتماع والدة أحمد بأخواتها ، لم تظهر أي تحركات غير طبيعية، لأفراد الأمن، قريب من بيت الخالة ، الذي جاءت إليه والدة أحمد . هذا يعني أن عملية الاتصال، كانت آمنة ، وأن الوضع مُطَمْئِنٌ ، كما قال أبو عمر .. لتنفيذ الجزء الآخر من الخطة، و هو الذي اتفق عليه أحمد ووالدته، أثناء اتصاله بها، في منزل خالته. ناقش أبو عمر تفاصيل جزء الخطة الثاني، مع بقية الرفاق :

- في الأسبوع القادم .. في الموعد المتفق عليه ، أستقل أنا و أحمد االسيارة ، للذهاب إلى الموقع. يتبعنا بمسافة لا تقل عن مئة متر سيارة أخرى ، فيها فهد وفيصل.. تقوم بتأمين انسحابنا ، لو وقعنا في فخ نقطة تفتيش . نحتاج إلى سيارة، تكون على المسار الآخر المعاكس ، حينما نقترب، و يضيق الطريق .. وتكون قريبة من خط سيرنا .. باستمرار. تتدخل فقط .. فيما لو تمت إعاقة حركة السير ، في المسار الذي نحن فيه. نبقى على اتصال فيما بيننا بالجوال .. في أضيق نطاق .

أحمد كان صامتاً ، طوال فترة مناقشة الخطة .. لم يكن مطمئناً. شعر أن شيئاً ما سيحدث . فاتح أبو عمر بشعوره .. بعد أن اختلى به :

- ثمة شعور عميق في داخلي .. بالخطر. لا أريد أن أتسبب لكم بأذى، دعوني أتدبر أمري بنفسي..!

- اُطرد عنك هذا الهاجس . تصرفك بنفسك ، يعرضك .. ويعرض الآخرين للخطر .

مرت الأيام بطيئة وثقيلة على أحمد . قــلقه يزداد مع كل يوم يمر. فكر أن ينسل منهم و يسلم نفسه .. وكاد أن يفعل، لولا أنه تذكّر وعده لأمه.. بأن يراها بعد أسبوع . إذا سلم نفسه ، فقد تمر أشهر ، دون أن تدري عنه شيئاً . أي صدمة ستصدّع قلبها ، لو جاء الموعد ولم يأتِ ، قد تقضي عليها المفاجأة . لو نجت من صدمة عدم رؤيتها له ، وتجاوزت الأزمة ، كم من الوقت سيمرّ ، حتى تعلم بمصيره .. وهل ستتحمل ذلك..؟! أسئلة كثيرة، كانت تنـغرس في قلبه المتوجس .. فيزداد خفقاته ، حتى صار يشعر أن صدره بسببها ، لم يعد يحتمل شدة الخفقان . حينما حلّ الموعد ، كان قد بلغ حالاً من التوتر ، أصبح معه ، غير قادر على إمساك كأس الماء . لون وجهه شحب ، وغارت عيناه .

ركبوا السيارة ، و ساروا صامتين . الرفاق اقترحوا أن ينضمّ إليهم ثالث من أصحابهم ، يقود السيارة ، ويساعد أبو عمر في التعامل مع أي طارئ ، في ظل الوضع النفسي المتردي لأحمد ، الذي يبدو غير قادر على التعاطي بشكل عملي ، مع أي مفاجأة. سارت الأمور على ما يرام ، معظم الطريق، ولم تكن هناك حاجة لاتصال فيما بينهم . حين اقتربوا من المنزل زاد توتر أحمد ، رغم أنه لم يكن هناك ما يدعو للقلق إلى الآن . بعد مسافة قصيرة ، سيصبح الطريق عنق زجاجة ، أي مفاجأة قد تحدث . جاءت الأوامر للسيارة الثالثة بأن تنتقل إلى المسار الآخر المعاكس . لم يبقَ إلا إشارة مرورية واحدة ، للوصول إلى

المنزل .. والمسافة إليها في حدود المئة متر .

فجأة ظهرت سيارتا أمن ، و سيارة جيب مسلح لقوّات الطواريء . توقفت .. وشكّلت نقطة تفتيش ، قبل الإشارة . السيارة التي فيها أحمد وأبو عمر .. ورفيقهم الثالث ، لم يعد أمامهم مناص من العبور من خلال نقطة التفتيش ، أما السيارة التي تتبعهم ، سيارة فهد وفيصل ، فكانت لديها فرصة الهرب مع شارع فرعي . اتصل أبو عمر بهم :

- أقفَلوا الطريق .. تصرفوا أنتم ، واتركونا نعالج الوضع بطريقتنا..!

- لا.. سنغطيكم ، حين تقتربون من نقطة التفتيش .. لا تتوقفوا، اندفعوا بأقصى سرعة.

انتقل فيصل بالسيارة الثانية ، التي يستقلها هو وفهد ، من المسار الأيسر للشارع ، إلى المسار الأيمن ، وحينما حاذى الشارع الفرعي ، افتعل حادثاً مع السيارة التي خلفه.. فتوقف . التفت إلى فهد وقال :

- سأنزل وأراقب الإخوة . هم الآن على مرمى سلاحنا .. حينما أعطيك الإشارة ، انزل و أطلق النار باتجاه نقطة التفتيش، لتؤمن غطاءً للإخوة ، ليتمكنوا من الهرب .

نزل فهد ، كأنما يتفقد الصدمة التي تعرضت لها سيارتهم، و عينه على نقطة التفتيش . الحادث أعاق الحركة ، في المسارات كلها ، بسبب تزاحم السيارات ، للعبور للممر السالك .. فتوقف تدفق السيارات . صارت المنطقة التي أقام فيها رجال الأمن نقطة التفتيش، فارغة من أي حركة.. ومكشوفة. حينما لاحظ فهد ، أن سيارة أصحابه تندفع بسرعة، لحظة اقترابها

من نقطة التفتيش ، أعطى إشارته لفيصل ، الذي ترجّل من السيارة، وأمطر سيارات الأمن، بزخات كثيفة من النيران. فتح فهد كذلك، شنطة سيارته والتقط سلاحه ، و بادر هو الآخر بإطلاق النار .. ثم قادوا سيارتهم ، باتجاه الشارع الفرعي ، ولاذوا بالفرار. عبرت السيارة التي فيها أحمد وأبو عمر نقطة التفتيش، بسرعة هائلة ، إلا أنها تلقت وابلاً غزيراً من النيران ، من سيارة الجيب المسلحة، التي استعاد العسكري ، الذي يقـــف خلف الرشاش فيها .. توازنه ، بعد أن فاجأته النيران ، الآتية من الخلف .

أبو عمر كان يجلس في المقعد الذي بجانب السائق ، وأحمد كان في المقعد الخلفي ، خلف السائق . التفت أحمد إلى الوراء ، لحظة اخترقت سيارتهم نقطة التفتيش ، مستغلة حال الارتباك، الذي حدث بين ا لعسكر ، بسبب اطلاق النار المفاجئ. لاحظ أن رجال الأمن ، الذي يقفون إلى جانب سيازاتهم .. لتفتيش السيارات ، قد وقعوا أرضاً بسبب المفاجأة، التي أصابتهم من إطلاق النار الكثيف ، الذي جاءهم من الخلف .. و ربما أصيب بعضهم . انتبه للعسكري ، الذي قفز إلى سيارة الجيب المسلحة، ووجّه رشاشه الثقيل باتجاههم . لم يكونوا قد تجاوزوا الإشارة بعد ، حين بدأ يصرخ ، ويطلب من (أبو عمر) ، أن ينزلق إلى أسفل المقعد ، ليتفادى الرصاص . انهمرت بعدها النيران بكثافة على سيارتهم ، التي كانت قد نجحت في تجاوز الإشارة ، رغم الازدحام المروري ، الذي أعقب حادث إطلاق النار. سادت الفوضى المرورية ، واضطر العسكري لوقف إطلاق النيران ، بسبب كثافة الحركة المرورية .. وازدحام السيارات . بدا أن

السيارة ، التي يستقلونها ، قد أعطبت بعض عجلاتها .. فصارت حركتها بطيئة جداً . أوقفوا السيارة ، وترجل أبو عمر وصاحبه.. حيث كانت السيارة الثالثة بانتظارهم ، لكن أحمد لم يتحرك . نظر أبو عمر ، الذي أصيب في كتفه ، وينزف بشدة ، إلى المقعد الخلفي .. فأشاح بوجهه، كان أحمد متكوماً ، ويطفح فوق بقعه كبيرة من الدم .. فقال وهو يتحامل على الركوب :

- مزقه الرصاص .. أسكنك الله فسيح جناته ، و ربط على قلب أمك.

-٢٣-

أزف الموعد ، ولم يأتِ أحمد .. فاشتعل قلبها همّاً. الانتظار ممضّ و قاتل ، حينما يكون ترقباً لحبيب .. قد لا يأتي. أخذت تقلب الجوال .. تتمنى أن يأتيٍ اتصال ، أو حتى رسالة ، لكن الجوال بقي صامتاً ، جامداً.. كأنما يشارك في (مؤامرة) الغموض، التي قد تجعل من (المجهول) الذي نتطلع إليه .. (حقيقة) مفجعة.

مضت الساعات ، وهي تنتظر .. على مثل النار . الملل أدرك كذلك أختها ، فاضطرت للاتصال .. تستأذن في العودة إلى منزلها. حين عادت، كانت أم أحمد شاحبة .. اغترف الهّم معالم الحياة ، من محياها . وجهها باهت ، وعيناها جامدتان ، كأنما اليأس قد حفر أخاديد في أعماقها ، فغاض فيها الدم، و هوت في قعرها الأحاسيس . ابن أختها ، الذي حضر قبل قليل .. ولم يكن يعلم بالترتيب ، بين خالته وابنها أحمد .. للالتقاء في منزلهم ، قال بعفوية:

- اليوم .. بعد المغرب ، لم أتمكن من الوصول إلى البيت إلا بعد ساعة. حصلت مواجهة بين رجال الأمن ومطلوبين ، فأغلقت المنطقة بكاملها.

قاطعته والدته ، وهي تحاول أن تقلل من صدق الرواية ، بعد أن شاهدت علامات الاضطراب على أختها:

- من قال ذلك ..؟ لم نسمع شيئاً ، وقد يكون الأمر ناتجاً عن

حادث سيارة . نعاني كثيراً من هؤلاء الشباب ، الذين يُفَحِّطُون بسياراتهم ، وباتوا يهددون حياة الناس..!
- لا يا أمي ..! الأشخاص الذين كانوا قريبين من الموقع .. يقولون ذلك. هناك كلام ، أنّ إصابات وقعت من الطرفين، ورأيت أنا سيارة مهشمة، تنقلها الشرطة .. يقال أنها للمطلوبين.

بدت علامات الهلع على وجه أم أحمد . برزت عيناها ، و فتحت فمها ، وهي تستمع لحديث ابن أختها . حاولت أن تستطلع منه أكثر ، عن تفاصيل ما جرى .. لكنها عجزت عن الكلام ، فصارت تُتَأْتِيء بكلمات غير واضحة أنفاسها أخذت تتلاحق بسرعة ، وهي تفرك كفيها بعصبية ، وتحرك رأسها يميناً وشمالاً . لم تفلح جهود الأم ، في إزالة الأضرار التي سببها حديث ابنها لخالته. كانت بإشارات مطّردة من عينيها، تحاول إسكاته ، أوجعله يغير موضوع الحديث.. أو يلطفه.

شعرت أم أحمد بصدرها يضيق، ويضغط على قلبها، حتى أفقدها الألم ، القدرة على الكلام تماماً . وسيلة التعبير الوحيدة، التي قدرت عليها ، كانت البكاء ، فتدفق الدمع من عينيها ، ثم استدارت جهة الجدار، وأسندت رأسها إليه. التفتت شقيقتها إلى ابنها، وقالت بصوت خفيض.. تعاتبه:
- كيف تتكلم بهذا الكلام، وأنت تعلم أن ابن خالتك أحمد، من المطلوبين..؟

بقي صامتاً، ولم يُعلّق.. وتوجهت والدته لأختها أم أحمد وضمّتها . ظلت تنتفض بين يديها للحظات ، وهي تحاول تهدئتها .. وَطَمْأنَتَها . حاولت أن تبعد عنها ، هاجس أن يكون أحمد طرفاً

في عملية اطلاق النار .. التي قال ولدها أنها حدثت :

- الكلام الذي قاله ابني غير أكيد .. مجرّد سماع ..! ثم أحمد .. الله يحفظه ، أعرفه زين ، بعيد عن هذه الأمور .

ظلت تحدثها لدقائق ، وعندما سكنت ، استأذنت للعودة إلى منزلها . لما وصلت ، كان الوقت يقترب من منتصف الليل . ثمة وضع غريب لاحظته .. باب بيت جيرانهم "السلطان" مفتوح ، وهناك سيارات تقف أمام البيت . لا تعرف أن لديهم مناسبة ، لأن صديقتها أم سيف لم تذكر ذلك .. وهي التي اعتادت ألاّ تخفي عنها شيئاً ، بما في ذلك مناسباتهم الخاصة.

حين دخلت البيت ، كان زوجها أبو عبدالله بانتظارها . سألها بلهفة :

- ما الأخبار..؟

- انتظرته .. على الموعد .. حسب الاتفاق ، ولم يأتِ..!

- اتصل..؟

- لم يتصل.. وهذا ما يقلقني.. ثم ...

أرادت أن تتحدث عن المواجهة ، التي ذكر ابن أختها أنها حصلت ، بين رجال الأمن ومطلوبين .. لكنها تراجعت .

- ثم ماذا ..؟

- لا شيء .. لا شيء . فقط صدري ضائق ..!

تنهد .. وأطرق رأسه ، وظل صامتاً . مشهد السيارات الواقفة أمام بيت جيرانهم ، ما زال يثير استغرابها .. سألته :

- ما هذه السيارات ، عند منزل جيراننا .. بابهم مفتوح..؟

- لا أدري .. أنا في البيت من بعد صلاة العشاء مباشرة..!

بدّل أبو عبدالله ملابسه و استسلم للنوم . أما هي فقد توضأت ، وأخذت تصلي الوتر. كانت تدعو ربها بحرارة وتبكي. امتدت صلاتها إلى وقت الفجر ، حين أذّن .. صلت وبقيت في مصلّاها . الإجهاد والسهر غلباها ، فنامت على سجادتها.. إلى الضحى . أيقظها أبو عبدالله ، الذي كان قد طلب من إحدى بناته ، أن تُعدّ لهما القهوة والإفطار . تناولا القهوة، لكنها اعتذرت عن الفطور:

- لا أجد نفسي تشتهي الأكل .. كم الساعة الآن ..؟

- الحادية عشرة إلا قليلاً..

أخذت تقلب جوالها ، وتفتش في حافظة الرسائل . تنتظر اتصالا أو رسالة . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . انقبض قلبها ، حين قفز إلى ذهنها خاطر سيئ : من البارحة لم تتلقَّ أي اتصال أو رسالة من أي أحد ..! ما هذا الصمت المريب..؟

نهضت واتجهت نحو النافذة . حينما أزاحت الستارة، ارتعشت وتراجعت.. والتفتت إلى زوجها ، الذي يقلب أوراقاً بين يديه ، وقالت:

- الأمر غـــــير طبيعي .. ما هذه الأعداد الهـائلة من السيارات، عند بيت جيراننا " السلطان "..؟

- سأستطلع الأمر ، حين أخرج لصلاة الظهر .. بعد قليل.

عندما خرج ، رفعت بصرها إلى الساعة الحائطية : الساعة الآن الثانية عشرة إلا دقيقتين. قاومت رغبة خفية ، تحاول منعها من فتح الراديو ، والاستماع لموجز أخبار الساعة الثانية عشرة ، من إذاعة البرنامج العام . فتحت الراديو ، فسمعت المذيع يقول : "موجز لأنباء منتصف النهار.. وبيان من وزارة الداخلية" .

أحست بقلبها ، كأنما يهبط من مكانه ، حينما قال المذيع " بيان من وزارة الداخلية " .. وتسارعت دقاته ، وهي تتابع الأخبار، بانتظار سماع المذيع ، يتلو بيان الداخلية . وقفت على قدميها، حين بدأ المذيع بقراءة البيان:

" تعلن وزارة الداخلية أن قوات الأمن، أثناء أدائها لمهماتها المعتادة في حفظ الأمن، حاولت التثبت من شخصيات بعض الأفراد، الذين يستقلون سيارة مشبوهة، فبادروا بإطلاق النار، على رجال الأمن، الذين ردوا عليهم، في محاولة لإيقافهم . وقد نتج عن ذلك مقتل أحد أفراد الفئة الضالة، وهروب بقية أفراد المجموعة. أظهرت التحقيقات أن الشخص المقتول، من الفئة الضالة، من العناصر التي تدربت في أفغانستان على أعمال التفجير والتخريب، ويدعى أحمد الشاهد ، وهو سعودي الجنسية . كما استشهد في المواجهة ، أثناء تأدية واجبه ، الرقيب سيف السلطان. حمى الله بلادنا من كل عابث، وهذا لن يزيدنا إلا إصراراً على اجتثاث الفئة الضالة".

عقدت الصدمة لسانها، وأعتراها مثل الحمى ، فأخذت تنتفض، ثم خرت مغشياً عليها . في غرفة مغلقة ، في مكان غير بعيد ، ثمة امرأة تتلمس بطنها، بانتظار مولود ، سيرى الدنيا، ولن يرى فيها أباه .. وفي غرفة أخرى ، في مكان آخر ، امرأة تنظر في عطفيها، تتأمل ثوب زفافها .. إلى رجل ، لن يعود إليها أبداً ..!

مطابع الجمعة الالكترونية
هاتف ٤٩٥٥٤٤٤ / ٤٩٥٣٨١٠

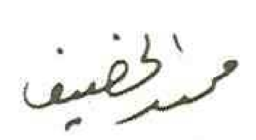


أحداث العنف و الإرهاب .. مزّقت سكون الريـاض، و هتكت عذرية سكينتها . الرياض لم تكن ضحية فقط . بـل كانت كذلك، مسـرحاً، ذبحت على أديـمه معان جـميلة .. أحدهـا الجـهاد .

حين كانت الرياض تتخضب بدمائها، و تمد يدها، بحثاً عن مخرج، كان ثمة (حفار قبور) و (مثقف) . قـد صار معـروفا .. متى يزدهـر حفـار القبور، و ما هي أدواته .. و لـماذا دائما هو على(الحياد) .

المثقف .. هو لسان مجتمعه و قـلبه، و لا يستطيع أبداً، أن يكون محايداً. بأدواته .. العمل الإبداعي، يمـارس المثقف (فـعلا أبـداعيا)، و يـقوم بقـراءة متـعمدة، و مـؤلمة .. و صريحـة، لأوجاع مجتمعه . يحاول أن يكون (شاهداً)، يجيب على جميع الأسئلة .

نقطة تفتيش .. فعل اجترحه (مثقف) . ارتأى أن يكون (شاهداً)، و ليس (حفار قبور) .
شـاهداً رأى مدينته .. حبيبته، تُـغْتال طمأنينتها، و معنى جـميلا .. كان حـلمه و أمنيته، يُفتأت عليه ..
شاهد .. أراد أن يجيب على (كل) الأسئلة، لتعودَ للمدينة سكينتها، و يعودَ المعنى الجميل، إلى ميدانه الحقيقي .



مطابع الجمعة ت : ٤٩٥٥٤٤٤ - ٤٩٥٣٨١٠